بسم الله الرحمن الرحيم

تساخفات محمد على عبد الجليل فى مقاله: "أخطاء القرآن اللغوية والإنشائية- قراءة تفكيكية"

د. إبراهيم عوض

مكتبة الشيخ أحمد

منشية الصدر – العباسية – خلف جامعة عين شمس/القاهرة

١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

(محمد على عبد الجليل (١٩٧٣م) كاتب سورى يرفض الإسلام ويهاجم الرسول بل وينكر وجوده، ويلح على أن القرآن من تأليف جماعة من البشر وليس وحيا سماويا. وهو يعيش الآن فى فرنسا ويعمل باحثا فى معهد البحوث والدراسات حول العالَم العربى والإسلامى (IREMAM) بالعاصمة الفرنسية. ونتاجه الفكرى قليل، وأفكاره تتسم بانفلاتها من قيود المنطق إلى فوضى التخيلات الوهمية السخيفة. وله مقال عنوانه: "أخطاء القرآن اللغوية والإنشائية: قراءة تفكيكية" منشور بموقع "الحوار المتمدن" (العدد ٤٤٤٧- ٨/ ٥/ ٢٠١٤م)، وفيه يطنطن بأن فى القرآن أخطاء لغوية وإنشائية، عارضا بكل بجاحةٍ الطريقةَ التى ينبغى إصلاح هذه الأخطاء بها وإعادتها إلى سواء السبيل مع أن فى لغته العربية غلطات نحوية لا تليق. وفى هذه الدراسة سوف أرد على ما جاء فى هذا المقال، مُورِدا إياه قطعة قطعة ومُتْبِعا كل قطعة بتعليقى عليها تفصيلا. وسوف ألوّن خلفية كلامه باللون الأخضر، وخلفية ردودى عليه باللون الوردى واضعا كلا من كلامى وكلامه بين قوسين، ومنهيا إياه بشرطة يعقبها اسم صاحبه.

(لن نتطرَّقَ إلى الأخطاء العِلمية الكثيرة فى القرآن لأنَّ وجودها أمرٌ طبيعى فى نص كُتِبَ فى القرن السابع الميلادى، بالإضافة إلى أنه ليس نصا علميا بل نص دينى أدبى يعكِسُ المستوى المعرفى لواضعيه وعلومَ عصرِهم. بل سنحاولُ قراءةَ أخطائه اللغوية والإنشائية قراءةً تفكيكية، بحسب النظرية التفكيكية لجاك دريدا Jacques Derrida (1930 - 2004))- محمد عبد الجليل).

(الكاتب هنا يجعل القرآن من تأليف البشر. ويتحدث عن أخطاء القرآن العلمية التى يصفها بـ"الكثيرة" كأنها أمر مسلم به ولا خلاف عليها بين أحد. والنبوة عنده لا تزال مفتوحة الأبواب وستظل إلى أبد الآبدين، وأى فرد يمكن أن يكون نبيا ما توافرت فيه

بعض الصفات، وليست النبوة وحيا ينزله الله على من اختاره سبحانه. ويوضح هذا قوله فى مقال له آخر بعنوان "حقيقة النبى" منشور فى موقع "الحوار المتمدن" (العدد: ٣٩٤١ – ١٤/ ١٢/ ٢٠١٢): "استنادًا إلى "التقسيم" السباعى الثيوصوفى التوضيحى للكائن الإنسانى، تكون النبوةُ هى تواصلَ الرباعيةِ الدنيا للإنسان (أو نفسه الدنيا الفانية) مع الثلاثية العليا فيه (النفس العليا الخالدة) بحيث لا تقِفُ الرغباتُ والانفعالاتُ عائقًا يشوِّش صفاءَ هذا التواصل. فالنبوةُ هى استعداد الأجسام الدنيا فى الإنسان لِتَلَقِّى الإشارات من الإله الباطن (أو الشعلة الإلهية الكامنة فى الإنسان والمتصلة بالوعى الكونى) والقدرة على عكسِها. فالنبوةُ حالةُ وعى عاليةٌ لا تأبهُ بالصورة الاجتماعية المكوَّنةِ عنها وليست حكرًا على أحد دون أحد. فأى إنسانٍ يمكنُه أنْ يختبرَ حالةَ النبوة، ويمكنُه أنْ يَتَّخِذَ الإلهَ الباطنَ الذى فيه (الشعلة الإلهية الداخلية الكامنة) مُعَلِّمًا له. فعلى قَدْر استعداد المريد أو التلميذ يكون المعلِّمُ. وعلى قدْر تحمُّلِ الإنسان وطاقتِه تتنزَّلُ الإشاراتُ ("على قَدْرِ أهلِ العزمِ تأتى العزائمُ"). لقد وردَ عن محمد قوله: "أشدّ الناسِ بلاءً الأنبياءُ ثم الأمثلُ فالأمثل". وكذلك تكون قُدْرةُ التيار الكهربائى على قَدْرِ تحمّلِ الجهاز الذى يسرى فيه هذا التيارُ، وإلا أحرقَه. ولذلك "لَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمّا تَجَلَّى رَبُّه لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا".

وهكذا تكون النبوةُ حالةَ وعى فرديةً بحتةً واختبارًا فرديا خالصا لا علاقة له بانفعالات الجماعات وردود أفعالها القطيعية. النبوةُ حالةُ وعى داخليةٌ تتأتَّى بالمجاهَدة والاختبار والبلاء والقدرة على التحمل، وربما على مرِّ تجسُّدات عديدة، ولا تمنحها الألوهةُ بالمجان وبصورة اعتباطية لأى فردٍ كان، بدليلِ أن الألوهةَ لا تمنح هذه الحالةَ للأشرار. أما

الرسالةُ فهى التعبير عن حالة النبوة. لقد اعتبرَ ابنُ عربى أن منزلة النبى أعلى بقليل من منزلة الرسول وأدنى من منزلة الولىّ ("– مقامُ النبوَّةِ فى برزخٍ/ فُوَيقَ الرسولِ ودونَ الولى").

أمَّا عبارةُ "خاتَمُ النبيين" فلا تعنى بتاتًا "آخرَ الأنبياء"، بل تعنى "مصدِّقَ الأنبياء الذين أتوا قبله". وأما عبارةُ "لا نبىَّ بعدى" بمعناها المتداول فإما أن محمدًا قد قالها وكان يريد بالفعل إغلاقَ بابَىِ النبوة والتشريعِ معًا. وبهذا يكون قد ضيقَ كثيرًا. ولذلك قال المتصوِّفُ عبد الحق بن سبعين (١٢١٦/١٢١٧– ١٢٦٩/١٢٧١): "لقد زرَّبَ [ضيَّقَ] ابنُ آمنة (لقد حَجَّرَ واسعًا) بقوله: لا نبى بعدى". وإما أنه قالها لأسبابٍ سياسيةٍ بحتةٍ وكان يقصد أن بِيَدِه وحدَه السلطةَ التشريعيةَ، بمعنى أنه إذا كان هناك إنسانٌ بعده وصلَ إلى حالة النبوة فلا يحق له أنْ يستخدمَها كسلطة تشريعية، أى أنه أغلَقَ بابَ التشريع فقط بهدف توحيد مراكز السلطة فى مجتمعه مِن أجلِ بناء دولته. وإمَّا أنه لم يقلْ هذه العبارةَ بل نُسِبَت إليه، أى أن الساسةَ ورجالَ الدين قد قوَّلوه ما لم يقلْ لخدمة مصالحهم. وإما أن محمدًا قد قال العبارة بمعنى آخر ولكن الذين أتوا بعده فَهِموها عن قصدٍ أو جهلٍ بغير المعنى الذى كان محمدٌ يقصده.

فمن وجهة نظر إسلامية هناك تعارُضٌ بين إغلاق الإسلام لِبَابِ النبوة وبين إقراره بوجوب وجود نذير فى كل شعب. فاعتبرَ القرآنُ أن محمدًا ليس سوى بشيرٍ ونذيرٍ وأن لكلِّ قوم نذيرًا: "إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ." فإنْ قال فقهاءُ الإسلام بأن النذير لا يُشْتَرَطُ فيه أنْ يكون نبيا فالسؤال هو: ما الذى يمنع النذيرَ من أنْ يكون نبيا؟ إذا أنجبَت أمةُ العرب فى عصر من العصور وفى بقعة من الأرض شخصيةً أقر المؤمنون بها بِنُبُوَّتِها فما الذى يمنع منطقيا وروحيا وسوسيولوجيا من أنْ تُنْجِبَ أممٌ أخرى شخصياتٍ تُقِر هذه الأممُ بنُبُوَّتهم؟ فمِن غيرِ المعقولِ أنْ يكونَ

هناك أنبياءٌ فى عصر محدد ومكان محدد ولا يكون هناك أنبياء فى عصرنا هذا. النبى من الناحية الروحية هو من حقَّقَ حالةَ تواصل مع الأتما (الإله الباطن). فإذا بلغَها أناسٌ فى عصور سابقة فلا بد أنْ يتمكنَ أناسٌ فى عصرنا مِن بلوغها. أما النبى من الناحية الاجتماعية فهو مَنْ تعترفُ جماعتُه بنبوَّتِه. ومعروفٌ أنَّ كلَّ دِين ينفى عمومًا نبوّةَ نبى الدين اللاحق. فالأديانُ السابقة للإسلام لم تعترف بأنّ محمدًا نبيًّا أو بتعبير أدقّ نبيًّا صادقًا. وكذلك الإسلامُ رفضَ نبوةَ أنبياءِ الأديانِ اللاحقة (مِن مورمون وقاديانية وغيرهم) فى حين أن مجتمعاتِهم أقرت بنبوّتِهم. وهكذا تكون مسألةُ الاعتراف بالنبى مسألةً اجتماعية سياسيةً معقدة. فليس كل مَن حقَّقَ حالةَ نبوةٍ يُصَنَّفُ على أنه نبى. النبىُّ المعترَفُ به اجتماعيا هو من صناعة المجتمع. فإذا كان هناك إنسانٌ وصلَ إلى مرتبة النبوة وكان مجتمعه يحتاج إلى صورة النبى فإن هذا المجتمعَ يُؤَسْطِرُ صورةَ ذلك النبى ويعدِّل فيها بحيثُ تصبح قابلةً للتداول ومعبِّرةً عن ثقافة المجتمع وتخدم فى الوقت نفسه الطبقةَ الحاكمة. أى أنَّ النبى الذى تصنعه الجماعةُ يختلف عن حالة النبوة الفردية التى يحققها النبى، إذْ إن الطبقةَ الحاكمةَ تستولى على صورة النبى لخدمة مصالحها وإحكام السيطرة على المجتمع. فالجماعة اللغوية والعرقية والدينية هى التى تصنع النبى على صورتها ومثالها. ولذلك لم نَرَ فى ثقافاتنا الذكورية صورةً لِنَبِيّة. فإذا كانت هذه الثقافاتُ قد رَسمَت الألوهةَ فى صورةٍ ذكورية فمن الطبيعى أنْ ترسمَ النبوةَ فى صور ذكورية أيضًا".

وواضح أن كلامه كله لا يستند لا إلى التاريخ ولا إلى المنطق ولا إلى الإسلام: فأما التاريخ فيخبرنا أن المجتمعات التى ظهر فيها الأنبياء قد قاومتهم بوجه عام بمنتهى العنف ووقفت منهم موقف الرفض والكراهية والاتهام بل والقتل أيضا فى بعض الأحيان على نقيض ما يقول الكاتب، ولم تؤمن بهم إلا بعد اللتيا والتى وبعد عداوات وإيذاءات منهم له، وربما بعد حروب بين الطرفين أيضا. وأما المتنبئ القاديانى والمتنبئ البهائى فلم يؤمن

بأى منهما مجتمعه بل قسم ضيق جدا من هذا المجتمع، علاوة على أن تنبؤهم هو ثمرة تخطيطات بعض الدول الكبرى ومؤامراتها الرامية إلى التشويش على الإسلام وإفساد أمره وتشكيك المسلمين فى إيمانهم وتشتيت انتباهم وتمزيق ولائهم. وما محمد على عبد الجليل وأمثاله ممن تكاثروا كالسرطان فى الفترة الأخيرة إلا ثمرة أخرى، ولكن صغيرة وحقيرة، من ثمار هذه التخطيطات والتآمرات الغربية. بل إن عيسى نفسه عليه السلام لم يؤمن به من بنى إسرائيل إلا عدد جد صغير وهامشى، وبقيت أغلبية اليهود يهودا كما كانوا ولم يعترفوا بنبوته. وبخلاف ذلك نجد المجتمع العربى كله قد انتهى إلى الإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام. كما يقول لنا التاريخ: ليس كل نبى قد نفى أن تكون هناك نبوة بعده. ففى التوراة كلام عن مجىء المسيح، وفى الإنجيل تبشير بمجىء محمد، أما الإسلام فقد أكد بصريح العبارة أن باب النبوة قد أُغْلِق بمجيئه. كما أن احتجاج الكاتب بقوله تعالى: "وإنْ من أمةٍ إلا خلا فيها نذير" لا يقوم على أساس، فهو غير منسحب على المستقبل الذى يأتى بعد محمد بل محصور، كما هو جلىٌّ بيِّنٌ من الآية الكريمة، فيما مضى.

ويعضد ذلك قوله تعالى فى سورة "الأحزاب": "ما كان محمد أبا أحدٍ من رجالكم، ولكنْ رسولَ الله وخاتَمَ النبيين"، وهو ما وضحه وفصله الرسول فى حديثه الشريف بقوله صلى الله عليه وسلم: "مَثَلِى ومثلُ الأنبياءِ من قبلِى كمَثَلِ رجلٍ بَنَى بنيانًا فأحسنَهُ وأجملَهُ إلا موضعَ لبنةٍ من زاويةٍ من زواياه. فجعلَ النَّاسُ يطوفونَ به ويَعْجَبونَ له ويقولون: هلا وُضِعَتْ هذه اللَّبِنةُ؟ قال: فأنا اللَّبِنَةُ، وأنا خاتَمُ النَّبيِّينَ". وعن أبى هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال: "كانت بنو إسرائيلَ تسوسهم الأنبياءُ: كلما هلك نبى خَلَفَه نبى. وإنه لا نبى بعدى، وسيكون خلفاءُ فيَكْثُرون". وقال صلى الله عليه وسلم: "فُضِّلْتُ على الأنبياءِ بسِتٍّ: أُعْطِيتُ جَوامِعَ الكَلِمِ، ونُصِرْتُ بالرُّعبِ، وأُحِلَّتْ لى

الغنائمُ، وجُعِلَت لى الأرضُ طَهُورًا ومَسجِدًا، وأُرْسِلْتُ إلى الخَلْقِ كافَّةً، وخُتِم بى النَّبِيُّون".

بيد أن الكاتب يترك هذا كله ويذهب إلى ابن ستين فى سبعين وعبارته السافلة: "ابن آمنة". ولم يسق حجة واحدة ولا حتى شبهة يعضد بها كلامه ولو على سبيل التكلف، بل أخذ يتخيل ويخال وينسب إلى النبى محمد عليه الصلاة والسلام نيات لا أدرى كيف عرفها يزعم فيها أنه إنما أغلق باب النبوة لكذا وكيت من الأسباب. وكلها خبطات عشواء تقوم على الكذب الوقح الذى ليس له رجلان! ولم لا، ومحمد على عبد الجليل فيما هو واضح، إنما أتى لينفذ أجندة معدَّة له سلفا وموضوعة أمامه ينقل عنها نقل مسطرة فى لغة بذيئة فى حق النبى الكريم المختار دون أن يترك له مشغِّلوه الحق فى التساؤل أو الخروج على النص؟ وهناك كثيرون من أذناب الغرب ممن ينتمون إلينا ظاهرا يعملون عمل صاحبنا، وينفذون ما يراد منهم كالقرود، ويرددونه كالببغاوات، لقاء جعل معلوم. والغاية من ذلك كله إرباك المشهد وطمس المفاهيم الصحيحة وإحلال مفاهيم أخرى شيطانية مكانها. فالنبى، فى رأيه الكليل، لا يختاره الله اعتباطا (هكذا قال)، بل أى شخص يمكن أن يكون نبيا ما دام قد جاهد وبلغ المحطة التى تؤهل صاحبها لأن يكون نبيا. وفى هذا السياق نراه، وهو الذى يخطِّئ محمدا فى كل شىء ويهاجمه ويهاجم دينه وكل ما أتى به، يستشهد بكلام له يظن أنه نافعه فى هذا الخبص العجيب. لكن من قال إن الله سبحانه يختار أنبياءه اعتباطا دون أن يكونوا مؤهلين لهذا نفسيا وخلقيا وعقليا؟ إن محمد على عبد الجليل ينفى النبوة التى نعرفها والتى تقوم على اصطفاء الله سبحانه لبعض عباده لينهضوا بهذه المهمة الصعبة ثم يستدير من ناحية أخرى ويزعم أن باب النبوة مفتوح لكل إنسان ما دام قد حاز الصفات المطلوبة، وكأن النبوة وظيفة

يعلنون عنها فى الجرائد، ومعها الشروط التى لا بد من توافرها فيمن يريد الحصول على الوظيفة.

وهو هنا يجرى فى خطا القاديانيين والبهائيين وكل من يحطب فى حبل المستعمرين ليفسدوا أمر المسلمين ويَلْبِسُوا عليهم دينهم. ومعنى هذا أنه يرفض النبوة بضوابط إلهية، ويقول بانفتاح بابها أمام كل عميل كذاب. ثم هو يستعين بجهاز مصطلحاتى غامض ملتو استقاه من ميدانى التصوف والأساطير. أى أنه فى الوقت الذى يرفض فيه أنبياء الله ورسله الذين اختارهم الله على عينه يقيم مكانهم أنبياء ورسلا منحرفين شيطانيين. والمهم أن الجماعة الذين ظهر فيهم أولئك الرسل قد قبلوهم وآمنوا بهم. أى أنه ليس المهم أن يكون النبى مؤهلا حقيقة للقيام بهذا الدور الشامخ الصعب النبيل الذى هيأه الله سبحانه له واختاره الله له اختيارا بل أن يقبله قومه. إنها النبوة فى طبعتها المحمدية العلوية العبجليلية الجديدة. ولم لا؟ إننا فى سويقة لبيع الجبن والسمن والخبز والسمك والدجاج والخضراوات والليمون، ولسنا فى عالم الأنبياء والمرسلين. وأرجو ألا ينسى القراء الكرام ما بينتُه قبل قليل من أن أولئك الأنبياء لم يحظَوْا رغم ذلك كله بقبول مجتمعاتهم لهم، بل بجزء منها صغير ليس غير.

بل إنه ينفى أن يكون للنبى محمد وجود تاريخى. وهذا جنون مطبق أخذه جاهزا من كلام بعض رقعاء المستشرقين بأخرة. فهو، كما قلت، مجرد أجير ينفذ ما يطلبونه منه بالحرف، وفى فمه جزمة قديمة. وهو يمضى مثرثرا ومنتجا كلاما هلواسيا يقدمه إلى القارئ على أنه هو الحق الذى لا يأتيه الباطل أبدا، إذ يقول مثلا فى مقالة له أخرى بنفس الموقع السابق تحت عنوان "دور محمد فى تأليف القرآن" (العدد ٤٣٢٢- ٣١/ ١٢/ ٢٠١٣م): "لا تُقدِّم لنا المصادرُ التاريخيةُ معلوماتٍ صريحةً ومباشرة عن دور محمَّد نبى

الإسلام فى تأليف القرآن. لا بدَّ إذًا، لِفَهْم دَوْر محمَّد، من قراءة ما بين السطور والبحث عن المؤشرات غير المباشرة. إنَّ تضارُبَ الروايات التاريخية يشكِّك فى وجود محمَّد نفسه. فقد أشارَ المؤرِّخ محمد بن محمد بن أحمد بن سيد الناس اليعمرى الربعى (ت. ٧٣٤ هـ) فى كتابه "عيون الأثر"، وكذلك ابنُ كثير فى "السيرة النبوية" (ج ١، ص ١٩٧)، إلى عدة رجال حملوا اسمَ محمَّد فى وقت ظهور ما يسمَّى بالنبى محمَّد، وهم: (١) مُحَمَّدُ بْنُ أُحَيْحَةَ بْنُ الجَلاحِ الأَوْسِى (٢) ومُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ الأَنصارِى (٣) ومُحَمَّدُ بْنُ بَراءٍ البَكْرِى (٤) ومُحَمَّدُ بْنُ سُفْيانَ بْن مُجاشِعٍ (٥) ومُحَمَّدُ بْنُ حُمْرانَ الجُعْفِى (٦) ومُحَمَّدُ بْنُ خُزاعِىّ السُّلَمِىُّ.

فهل كان محمَّد الذى قدَّمه لنا المؤرِّخون والمحدِّثون والمفسِّرون والفقهاء شخصيةً تركيبيةً توفيقيةً لا تشير إلى شخص بذاته بل إلى عِدَّة أشخاص يحملِون طابعا معيَّنا مميَّزا؟ ألا يمكن أنْ تكون شخصيةُ محمَّد كشخصية "ليلى" وكشخصية "الذئب" فى حكاية "ذات الرداء الأحمر" (Le Petit Chaperon rouge ذات القبَّعة الحمراء)، من حيثُ أنها لا تدلُّ على شخص معيَّن؟ بل إنَّ شخصية "محمَّد" أقربُ إلى شخصية "الذئب" من حيث أنَّ الشخصيتين محمَّدٍ والذئبِ تَرمُزانِ إلى الذكورة والشهوة الغريزية. إنَّ شخصية "ليلى" لا تشيرُ إلى طفلةٍ بعينِها اسمُها "ليلى"، كما لا تشير شخصيةُ "الذئب" إلى حيوان بعينه اسمه "الذئب". بل تشير الشخصيتان إلى نموذج بدئى أو شخصية نموذجية معيارية. هذا فضلا عن أنَّ شخصيتَىْ "ليلى" و"الذئبِ" ليستا محورَ الحكايةِ بل إحدى أدواتِها، لأنَّ قلب الحكاية وهدفها هو معالجة موضوع الجنس (بحسب تحليل إريك فروم وفرويد). وينبغى، لِفَهْمِ مغزى الحكاية، قراءةُ رموزها وفكُّها. (للتوسُّع: مراجعة مقال: "ذات القبَّعة الحمراء والخبرة الجنسية"، دارين أحمد، موقع "معابر")...

من الضرورى إذًا التمييزُ فى محمد بين شخصيتين: شخصية محمد التاريخية الحقيقية المجهولة وبين شخصية محمد الإيمانية الرمزية الأسطورية المركَّبة. وقد أشرتُ إلى ذلك فى مقالَىَّ "حقيقة النبى" و"كيف نقرأ قصص الأنبياء؟" حيث يأخذ الرواةُ والمؤرخون بعضَ عناصر من الشخصية الواقعية ليبنوا الشخصيةَ السردية الأسطورية مثلما يفعل الروائى الواقعى حين ينطلق من شخص حقيقى واقعى ليبنى شخصيتَه الروائية التى تعكسُ ذاتَه وبيئتَه أكثرَ بكثيرٍ مما تعكسُ الشخصيةَ التى انطلقَ منها. ما فعلَه كُتَّابُ السيرة يشبه تماما ما يفعله الروائى. إنَّ ما يربط شخصية محمَّد الخيالية المختلَقة المذكورة فى كتب السيرة بالشخصية التاريخية الحقيقية هو خيط رفيع يشبه الخيط الذى يربط شخصيةَ بابا نويل الخيالية بالشخصية التاريخية الحقيقية للقديس نقولا أسقف ميرا الذى قيل عنه إنه كان يوزِّعُ المالَ على المحتاجين وهو مُتَخَفٍّ. وبالتالى فعندما يقوم أحدٌ بانتقاد محمَّد فإنما ينتقد فى الواقع الصورةَ التى رسَمَها الكُتَّابُ عن شخص محمَّد والتى لا تعكسُ شخصَ محمَّد بل تعكِسُ الوسط الثقافى والدينى والاجتماعى لكاتب السيرة. عندما أنتقدَ محمَّدا فإننى أنتقدُ الوصفَ الذى قدَّمه لى واضعو السيرةِ عن محمَّد والذى يُعبِّر عن بيئتهم والذى لا يصلحُ بتاتا لأنْ يكونَ نموذجا يُقْتَدى به لإنسان هذا العصر، مع التحفُّظ أساسا على مبدأ القدوة...

يَجِبُ التنويه أولا أنه من البديهى أن القرآن من إنتاج بشر، كأى كتاب آخر، بحسب ما تقوله لنا التجربة والواقع والعِلْم. ففكرةُ أنْ يأتى ملاكٌ من السماء السابعة حاملا وحيا أو متأبِّطا كتابا إلى شخص قائلا له: "اقرأْ" هى فكرة روائية ميثولوجية تتناقض مع الواقع والبديهة والعِلم (إلا إذا اعتبرنا التأليف وحيا) شأنُها كشأن فكرة ولادة المسيح من عذراء بلا أب (إلا إذا أخذْنا كلمة "عذراء" بمعنى "أم عازبة" وكلمة "بلا أب" بمعنى "بلا أب شرعى"). ففكرة الوحى الإلهى للأنبياء بحسب المنظور الإبراهيمى عامةً والإسلامى

خاصةً، وفكرةُ حمْلِ امرأةٍ من دون اتِّصال جنسى مع رجُلٍ، هما فكرتان لا معنى لهما واقعيا. وينبغى قراءةُ "الوحى" و"الحبَل بلا دنَس" قراءةً رمزيةً. ربما تشير فكرةُ الوحى الإلهى إلى تعظيم الكتابة، وقد تشير فكرةُ "الحبَل بدون رجُلٍ" إلى تحقير الجنس فى عصر ظهورهما".

وواضح أن الرجل يسير فى واد، والإسلام والعقل والفهم السليم المستقيم فى واد آخر مختلف تماما عن وادى التيه والضلال الذى يسير فيه. وهو لا يستخدم المنطق العاقل بل يردد كالببغاء بعض كلام علماء النفس بالتواءاته وتعقيداته وفروضه العجيبة وخروجه على كل معقول متجاهلا أن هذا الكلام يتغير من وقت إلى وقت ولا يستقر، وأن علماء النفس كثيرا ما يتضاربون وينسف بعضهم كلام بعض. وسبب ذلك هو رغبته العنيفة فى تجنب الوضوح والمنطق حتى لا ينكشف جهله وعواره، فتراه يتمسح فى كلام هؤلاء الناس وكأنهم آلهة، وما يقولونه وحى لا يعرف الخطأ، ومن ثم يهاجم الإسلام خلف دريئة كلامهم لائكا المصطلحات والعبارات المهومة التى لا يمكن العقلاء أن يمسكوا بشىء منها. فالأمر كله مجرد فقاعات ما إن تطير فى الهواء الطلق حتى تنفجر فلا تخرج منها بشىء.

وأظرف ما قال وأبعثه على الإضحاك أن التاريخ والواقع والعلم تثبت أنه لا يوجد شىء اسمه الوحى. وكنت أريد أن يبين لنا كيف أثبت التاريخ والواقع والعلم ذلك. هل أخذ مشركو قريش النبى محمدا إلى أحد المعامل المكية وأَجْرَوْا عليه التجارب العلمية وكشفوا عليه بجهاز الكذب وصوروه وهو يتلقى الوحى فبان تماما أنه لا جبريل ولا وحى ولا يحزنون، وإنما هى هلاوس وتخيلات؟ أم ترى صاحبنا يشتط فى الفجور فيزعم أنه قد أجرى ذلك على سيدنا محمد من باريس، التى يعيش صاحبنا الكذاب المدلس فيها

منغنغا فى عناية الفرنسيس، على تنائى الديار وتباعد الزمان، واتضح له زيف كل ما جاء فى الحديث والقرآن والسيرة والتاريخ؟ كذلك فقوله إن فكرة الوحى الإلهى تشير إلى تعظيم الكتابة هو كلام رقيع، فهل كان الأمر يستأهل عذابات ثلاث وعشرين سنة وصداماتها وآلامها ومعاركها للوصول إلى هذه الفكرة وتفهيمها للناس؟ وهل كان العرب يكرهون الكتابة؟ إن قصائدهم مملوءة بما يشير إلى إجلالهم للقلم والخط والصحيفة. كما أنهم لم يكونوا كلهم أميين، وإن غلبت الأمية عليهم. ثم إن القرآن مفعم بموضوعات لا تكاد تنتهى إلى جانب الكلام عن الكتابة. بل إن الكتابة لا تشكل موضوعا بارزا بين موضوعاته.

وظريف أيضا نفيه وجود النبى تاريخيا لمجرد أنه كان هناك فى الجاهلية من اسمه محمد. أرأيتم رقاعة كهذه الرقاعة؟ بسيطة، فهناك من أسماؤهم محمد الآن بعشرات الملايين، ومن أسماؤهم محمد عبد الجليل بالملايين، فهل يصح اتخاذ هذا تكأة لإنكار وجودك، وإن كان وجودك لا قيمة له؟ وإذا كان الشىء بالشىء يذكر فقد كان المستشرقون يلحون على أن سيرة النبى محمد من الوضوح بمكان على عكس حياة السيد المسيح عليهما السلام، وكان قرودنا التابعون للفكر الاستشراقى لا يجرؤون على الشك ولو لحظة واحدة فى صحة وجوده التاريخى. أما من يوم أن ظهر فريق من المستشرقين يشكك فى هذه الحقيقة فقد رأينا عددا من قرودنا يرددون هذا الإنكار لوجوده صلى الله عليه وسلم. وهل يستطيع القرد غير هذا؟ لو استطاع ما كان قردا ولا بقى قردا!

ولعل القارئ قد لاحظ أن محمد عبد الجليل لم يجد فى الأساطير ليشبِّه به النبى عليه السلام إلا ليلى والذئب، وبخاصة الذئب لما يرمز إليه من الذكورة والشهوة الغريزية كما ذكر، فضلا عن تأكيده أنه صلى الله عليه وسلم لا يصلح أن يكون قدوة لنا الآن، إن

كان هناك شىء اسمه قدوة حسبما يقول. وهو تشبيه وراءه ما وراءه. إنه أسلوب فى الإساءة والتحقير لُقِّنَه على أيدى خبراء غربيين شياطين بحيث يشوه صورة النبى فى نفوس المسلمين مرة فى إثر مرة، ومع التكرار والتراكم يخرج النبى صلى الله عليه وسلم من عقول المسلمين ويصير شخصا عاديا بل شخصا مقيتا كما تَمْقُتُ الذئب، ويرتبط اسم نبينا العظيم بالشهوة الغريزية كما يرتبط بها الذئب طبقا لكلام قردنا الذى يشبه الخراء.

وعودا إلى كلام هذا المضطرب العقل والفكر عن أخطاء الكتاب المجيد وخلوه من أية حقائق علمية نقول إن القرآن، بعكس ما قال، يذكر فى بساطة تامة معلومات علمية صحيحة غاية فى الأهمية والخطورة لم تكن معروفة إلى وقت قريب. فعلى سبيل التمثيل نقرأ فى الآية الثانية عشرة من سورة "فاطر" قوله تعالى: "وما يستوى البحران: هذا عذبٌ فراتٌ سائغٌ شرابُه، وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ. ومِنْ كُلٍّ تأكلون لحما طريا وتستخرجون حِلْيَةً تلبَسونها..."، وهو ما فهمه المفسرون القدامى على غير وجهه، إذ حسبوا أن فى الآية استعمالا مجازيا قُصِد به التغليب على أساس أن الحلىّ إنما تستخرَج من البحر الملح وحده، لكن التعبير القرآنى غلَّب البحرَ الملح على البحر العذب وألحق هذا بذاك وأعطاه حكمه، مع أن تركيب الكلام فى الآية لا يسمح بهذا، إذ يقول: "ومِنْ كُلٍّ... تستخرجون حِلْيَةً تلبَسونها"، ولم يقل مثلا: "ومنهما تستخرجون حلية...". فـ"مِنْ كُلٍّ" إنما تعنى أن الحلية كما تستخرج من البحر الملح فكذلك تستخرج من البحر الحلو. أى أنها موجودة فى الأنهار مثلما هى موجودة فى البحار.

وهناك أيضا قوله عز شأنه فى سورة "النحل" عن النحل والعسل: "يخرج من بطونها شرابٌ مختلفٌ ألوانُه..."، الذى قال عنه علماء المسلمين القدامى إن النحل إنما ينقل العسل من الأزهار بفمه إلى خلاياه، ولا يخرج شىء من بطونه لأنه لا شىء يدخل

بطنه أصلا حتى يخرج منها، وإنما الكلام على المجاز باعتبار أن ما كان خارجا من الفم فهو خارج من جهة البطن ما دام الفم والبطن فى ناحية واحدة من الجسم. نجد ذلك فى كتاب الشريف المرتضى: "تلخيص البيان فى مجازات القرآن". والحق أن العسل إنما يخرج من بطون النحل بعد أن ترتشف رحيق الأزهار ويتحول فى بطونها إلى عسل تمجه بعد ذلك من فمها.

ولقد كنت وأنا شاب صغير، كلما قرأت ما جاء فى سورة "الفجر" عن

"إِرَم ذاتِ العماد * التى لم يُخْلَق مثلها فى البلاد"، أَمُرّ عليها وفى نفسى حيرة، لأنى لا أستطيع أن أتصور ما يقوله القرآن عنها وعن عمادها التى لم يُخْلَق مثلها فى البلاد، وأتساءل بينى وبين نفسى: كيف لم يُخْلَق أعمدة مثل أعمدة عادٍ فى البلاد؟ وبأية وسيلة استطاعت قبيلة عربية تعيش فى قلب الصحراء قبل الإسلام بقرون أن يكون لها عِمَاد ليس لها نظير فى البلاد؟ وظل الأمر يرهق عقلى عسرا إلى أن سمعت منذ بضعة عقود فى إحدى الحلقات التلفازية عن الإعجاز فى القرآن الكريم التى كان يقدمها د. زغلول النجار أن هناك كشوفا أثرية تَمَّتْ عن طريق التقاط صور من الفضاء الخارجى من قِبَل علماءَ أمريكانٍ لأبنية تحت الأرض فى الربع الخالى من الجزيرة العربية ذات أعمدة هائلة الضخامة والطول، فارتاح فضولى، لكنى أردت أن أحصل على اسم المجلة الأجنبية التى أوردت هذا الخبر. وظللت أتتبع الموضوع حتى قرأت الفقرات التالية من مقال كبير للدكتور زغلول عنوانه: "الكشف الحديث عن إرم ذات العماد" بجريدة "الأهرام" المصرية بتاريخ ٧/ ١٠/ ٢٠٠٢م:

* فى سنة ١٩٨٤م زُوِّد احد مكوكات الفضاء بجهاز رادار له القدرة على اختراق التربة الجافة الى عمق عدة أمتار يعرف باسم جهاز رادار اختراق سطح الأرض (Ground

Penetrating Radar Or GPR) فكشف عن العديد من المجارى المائية الجافة مدفونة تحت رمال الحزام الصحراوى الممتد من موريتانيا غربا الى أواسط آسيا شرقا. وبمجرد نشر نتائج تحليل الصور المأخوذة بواسطة هذا الجهاز تقدم أحد هواة دراسة الآثار الأمريكان، واسمه نيكولاس كلاب Nicholas Clapp، إلى مؤسسة بحوث الفضاء الأمريكية المعروفة باسم "ناسا: NASA" بطلب للصور التى أُخِذَتْ بتلك الواسطة لجنوب الجزيرة العربية، وبدراستها اتضح وجود آثار مدقات للطرق القديمة المؤدية الى عدد من أبنية مدفونة تحت الرمال السافية التى تملأ حوض الربع الخالى، وعدد من أودية الأنهار القديمة والبحيرات الجافة التى يزيد قطر بعضها عن عدة كيلو مترات. وقد احتار الدارسون فى معرفة حقيقة تلك الآثار، فلجأوا الى الكتابات القديمة الموجودة فى إحدى المكتبات المتخصصة فى ولاية كاليفورنيا، وتعرف باسم "مكتبة هنتنجتون: Huntington Library "، وإلى عدد من المتخصصين فى تاريخ شبه الجزيرة العربية القديم، وفى مقدمتهم الأمريكى جوريس زارينز Zarins Juris والبريطانى رانولف فينيس Ranulph Fiennes. وبعد دراسة مستفيضة أجمعوا على أنها هى آثار عاصمة ملك عاد التى ذكر القرآن الكريم أن اسمها "إِرَم" كما جاء فى سورة "الفجر"، والتى قُدِّر عمرها بالفترة من ٣٠٠٠ ق. م. إلى أن نزل بها عقاب ربها فطمرتها عاصفة رملية غير عادية. وعلى الفور قام معمل الدفع النفاث بكاليفورنيا The Jet Propulsion Laboratories "معهد كاليفورنيا للتقنية: California Institute of Technology, J. P. L" بإعداد تقرير مطول يضم نتائج الدراسة، ويدعو رجال الأعمال والحكومات العربية الى التبرع بسخاء للكشف عن تلك الآثار التى تملأ فراغا فى تاريخ البشرية، وكان عنوان التقرير هو: "البعثة عبر الجزيرة: The Trans - Arabia Expedition "، وتحت العنوان

مباشرة جاءت الآيتان الكريمتان رقما ٧– ٨ من سورة "الفجر"، وقد أُرْسِل لى التقرير لدراسته. وقد قمت بذلك فعلا وقدمت رأيى فيه كتابة الى المسئولين بالمملكة العربية السعودية. وقد ذكر التقرير أن اثنين من العلماء القدامى قد سبق لهما زيارة مملكة عاد فى أواخر حكمها، وكانت المنطقة لا تزال عامرة بحضارة زاهرة، والأنهار فيها متدفقة بالماء، والبحيرات زاخرة بالحياة، والأرض مكسوة بالخضرة، وقوم عاد مستكبرون فى الأرض، ويشكلون الحضارة السائدة فيها، وذلك قبل أن يهلكهم الله تعالى مباشرة. وكان أحد هؤلاء هو بلينى الكبير من علماء الحضارة الرومانية، والذى عاش فى الفترة من٢٣م إلى ٧٩م، والآخر كان هو الفلكى والجغرافى بطليموس الإسكندرى، الذى كان أمينا لمكتبة الإسكندرية، وعاش فى الفترة من١٠٠م إلي١٧٠م تقريبا، وقام برسم خريطة للمنطقة بأنهارها المتدفقة وطرقاتها المتشعبة، والتى تلتقى حول منطقة واسعة سماها باسم "سوق عمان". ووصف بلينى الكبير حضارة عاد الأولى بأنها لم يكن يدانيها فى زمانها حضارة أخرى على وجه الأرض، وذلك فى ثرائها ووفرة خيراتها وقوتها حيث كانت على مفترق طرق التجارة بين كل من الصين والهند من جهة، وبلاد الشام وأوروبا من جهة أخرى، والتى كانت تصدر إليها البَخُور والعُطُور والأخشاب والفواكه المجففة والذهب والحرير وغيرها. وقد علق كثير من المتأخرين على كتابات كل من بلينى الكبير وبطليموس الإسكندرى بأنها ضرب من الخرافات والأساطير، كما يتشكك فيها بعض مدعى العلم فى زماننا ممن لم يستطيعوا تصور الربع الخالى، وهو من أكثر أجزاء الأرض قحولة وجفافا اليوم، مليئا فى يوم من الأيام بالأنهار والبحيرات والعمران. ولكن صور المكوك الفضائى جاءت مطابقة لخريطة بطليموس الإسكندرى، ومؤكدة ما قد كتبه من قبل كل منه ومن بلينى الكبير كما جاء فى تقرير معهد الدفع النفاث".

كذلك لا ينبغى أن ننسى الإشارات المتكررة فى القرآن الكريم إلى البيوت الفارهة التى كانت ثمود تنحتها من الجبال. وكنت أتصورها مجرد كهوف وغيران يعيشون فيها كما تعيش الوحوش فى مثل تلك المواضع إلى أن رأيت على المشباك (الإنترنت) صورا لقصور رائعة الجمال والتصميم بارعة الهندسة والزخرفة نحتها الثموديون فى واجهات الجبال، فقلت فى نفسى: سبحان الله. وفهمتُ تلك الآيات من يومها الفهم اللائق بها، وعرفت مدى دقة القرآن وابتعاده عن إطلاق القول دون أساس وأن منتقديه ليسوا إلا مجموعة من الأوباش الضالين.

وأمر آخر هو أن الكاتب السطحى الفكر والتفكير ينبئنا أنه سيطبق، على أخطاء القرآن ولغته، النظرية التفكيكية التى أتى بها جاك ديريدا. و"التفكيكية" فى الأدب، كما يقول طارق فايز العجاوى فى مقال له بالعدد ٣٨٥٩ من "الحوار المتمدن" بتاريخ ٢٣ سبتمبر ٢٠١٢م، "من المذاهب النقدية الجامحة والمتطرفة المعاصرة، وهدفها التشكيك فى أن يكون للنص الأدبى معنى ثابت. ولقد أسس هذا المذهب جاك دريدا، الذى حاول أن يبرهن أن هناك عناصر كافية فى النص الأدبى تمنع تمركزه او استقراره حول معنى محدد. وبذلك يكون قد تحدى البنيوية المعهودة.

والثابت أن الرأى عند دريدا أن تفسير النص يعرض لما هو مكبوت فيه من احتمالات لامتناهية ومن لعبة المعانى التى تضيع عبر مصادر النص أو ما اصطُلِح على تسميته بـ"التناصية". على كل الأحوال يرى هذا المذهب أن سيكولوجية الإنسان تعيش تحت رحمة الجزء اللاواعى من شخصيته والذى يصعب ضبطه أو تحديده بشكل دقيق. ومن وجهة أخرى فإن القيم الإنسانية غير ثابتة، وهى عرضة للتغيير حسب الظروف المحيطة بها صغيرها وكبيرها. ومن جهة ثالثة فإن اللغة التى نستخدمها تتطور باستمرار حسب

السياق والموقف والنواحى البراغماتية التى تلف النص وتحيط به. وهى اعتباطية كما أكد اللغوى الشهير سوسير، ولا يوجد علاقة حتمية أو منطقية بين المعنى واللفظ. وبناء على ذلك فإن عملية الترميز تتغير لأن اللغة بطبيعتها بلاغية. وهذه المدرسة تذهب إلى أن هناك ذاتية خاصة بين القارىء والكاتب يصعب أيضا تحديدها. وهى من أنصار القراءات المتعددة للنص الواحد".

ثم يمضى قائلا: "ومن وراء هذه النزعة التفكيكية ليس غريبا باعتقادى تصور مفهوم عبثية الحياة فى كل شىء. وهنا تكمن بعض صور الخطورة. فإذا كانت حياتنا بلا معنى فيصعب تحديد أى هدف ضمنها. وعليه لا يخفى على أحد أن دعاة هذه المدرسة أسسوا مذهبهم كردة فعل ضد البنيويين، الذين يصرون على أن للنص الأدبى بنية متراصة ومتكاملة دون الاعتماد على أى عنصر خارجى. وبدورنا نسأل: كيف يتصدى أدبنا العربى لهذه التيارات النقدية الحديثة المستوردة من الحضارة الغربية والتى بلغت حد الترف الفنى بإصرارها على إثارة تساؤلات قد تبدو غريبة علينا وعلى العالم الشرقى بشكل عام؟ والثابت أيها السادة أنه فى أدبنا العربى نوع من الثقة والإيمان بأن الصحيح صحيح، والخطأ خطأ، وأن الدين من عند الله جلت قدرته مصدر القيم الثابتة والمطلقة".

ومن الواضح أن محمد على عبد الجليل يُجْلِب على قرائه كما تصنع الفرق الموسيقية الشعبية، بضجيجها المزعج للآذان والنفوس جميعا، فى شوارع الأحياء الفقيرة وحاراتها حين يكون هناك عرس، إذ يستخدم مصطلح "التفكيكية" رغم أنه لا يدرك معناه. وهو فى أحسن الأحوال، إذا أحسنا الظن به مخادَعةً لأنفسنا، ربما قصد أنه سيفكك النص القرآنى إلى عناصر صغيرة يتناولها عنصرا عنصرا. وهو إذن يقصد التفكيك بالمعنى العام

لا التفكيكية كمصطلح فلسفى ونقدى، وإلا فلم يحاول الوصول إلى معنى فى النص القرآنى يستند إلى المنطق على حين أن التفكيكية ترى أن المعانى اعتباطية وأن كل قارئ يفهم النص بطريقته، فليس هناك معنى للنص إذن هو المعنى الصواب، وما عداه خطأ. إذن فهو رجل فقير الذهن غليظ الفهم، ومع هذا يحاول أن يبدو لنا غنيا فاحش الثراء العلمى. وبالمناسبة فديريدا يهودى الدين، وكان يعانى من الشذوذ الجنسى. ولسوف يُظْهِر الكاتب بعد قليل احتفاءه بسامى الديب النصرانى الفلسطينى المتعصب الفظ البذىء. وبالمثل سوف يرى القراء أنه فى هذا المقال قد تصدى لما لا يملك أدوات التصدى له. إنه حالة بائسة تبعث على الغثيان- إبراهيم عوض).

(فى ما يتعلَّق بالأخطاء الواردة فى القرآن، يقدِّم المسلِمُ المؤدلَجِ أحكامًا مسبقة لا أساسَ لها من الصحة لا لغويا ولا تاريخيا. ولو أنه قرأَ القرآنَ بحيادية كقراءته لكتاب غير مقدَّس فسوفَ يرى الأخطاءَ بوضوح لأنَّ علاقة القارئ بالنص هى أحد أهم محدِّدات القراءة. ومن بين هذه الأفكار الجاهزة الخاطئة التى يقتنع بها (المسلمون) مِن دُونِ تفكير قولُهم إنَّ "القرآن نزلَ بين قومٍ أَكْفاء، ولو اكتشفوا أخطاءً لما سكتوا عليها" وأنه كان "محفوظًا فى الصدور"... فهُمْ يتخيَّلون المجتمعَ الذى ظهرَ فيه القرآنُ فى الجزيرة العربية فى القرن السابع الميلادى مجتمعًا ديمقراطيا مثاليا متناسين ما نقلَتْه المصادرُ التاريخيةُ العربيةُ والإسلاميةُ عن الجدل الكبير الذى أُثيرَ عند جمعِ القرآن (وقد أثار هذه القضية مؤخَّرًا الدكتور محمد عابد الجابرى)، ذلك الجدلِ الذى يشير إلى عدم اتفاق الصحابة على النسخة الذى نشرها عثمانُ. فابنُ مسعود مثلا رفضَ إدراجَ الفاتحة والمعوِّذتين فى القرآن، مما اضطرَّ عثمانُ، من أجل توحيد القرآن، إلى إحراق باقى المصاحف كمصحف ابن مسعود ومصحف ابن عباس ومصحف عائشة، مما جعلَ بعضُ الصحابة، وعلى رأسهم عائشة، يُكَفِّرون عثمان ويطالبون بقتله ويرفضون دفنه فى مقابر المسلمين.

كما يتناسون أنَّ عوامَّ العرب آنذاك لم يكونوا أَكْفاءً (جمع: "كُفء") بل أَكِفَّاء (جمع: "كفيف") لا يرون إلا ما تريد السلطةُ الزمنيةُ آنذاكَ أنْ تُرِيَهم إياه وأنَّ عربَ الجزيرة لم يكنْ يهمُّهم لا أخطاءُ القرآن ولا القرآنُ نفسه بل كانت تهمُّهم مصالحهم الاقتصادية ولقمة عيشهم وأنَّ كثيرًا من القبائل ارتدَّت عن الإسلام فورَ وفاة محمد- محمد عبد الجليل).

(يقول المتنطع إن المسلِم المؤدلَج يصدر أحكامًا مسبقة لا أساسَ لها من الصحة لا لغويا ولا تاريخيا، وإنه لو قرأَ القرآنَ بحيادية كقراءته لكتاب غير مقدَّس لرَأَى أخطاءه بوضوح لأنَّ علاقة القارئ بالنص هى أحد أهم محدِّدات القراءة، وإنه من بين هذه الأفكار الجاهزة الخاطئة التى يقتنع بها المسلمون مِن دُونِ تفكير قولُهم إنَّ القرآن نزلَ بين قومٍ أَكْفاء، ولو كانوا قد اكتشفوا أخطاءً لما سكتوا عليها، وإنه كان محفوظًا فى الصدور... هذا ما قاله المتنطع! وبنفس المنطق، وعلى أساس من نفس المبدإ نقول إن الملحد كاره الإسلام والناعق بما يُلْقَى إليه من أفكار وآراء لا يمكنه التفكير بحيادية أبدا. وكيف يمكن أن يفكر بحيادية وتجرد، وهو يعرف أنه لو فعل ذلك لطُرِد طردة الكلاب الجُرْب إلى حيث الزمهرير وصرير الأسنان والضياع والفقر وعدم المقدرة على شراء أم الخبائث؟

ويقول المتنطع أيضا إن المجتمع العربى أوانذاك لم يكن مجتمعا ديمقراطيا بل دكتاتوريا، أى أن الخليفة يتحكم فى كل أمور الرعية، ولا يستطيع أحد أن يخالف عن أمره فى دقيق أو جليل، ليعود فيقول عقب ذلك على الفور إن من المسلمين من اعترضوا أشد الاعتراض على عثمان بسبب جمعه الرعية على مصحف واحد، وكفَّروه ورفضوا دفنه فى مقابر المسلمين. فهل الجو الاستبدادى يسمح بمخالفة الحاكم على هذا النحو المطلق الحرية،

فضلا عن تكفيره وتحريض الناس على قتله حتى ليقتلونه فعلا؟ إن لم تكن هذه قمة الديمقراطية، فما الديمقراطية إذن أيها الغبى؟

أما بالنسبة إلى مسألة "المعوذتين" فتعال نحسبها بالعقل: الصحابة جميعا يرون أن المعوذتين قرآن، على حين أن فلانا وفلانا وفلانا وحدهم من الصحابة لا يَرَوْن ذلك، فبأى الرأيين نأخذ؟ من السهل أن نحكم على ثلاثة من بين الأمة كلها بالسهو أو النسيان أو الخطإ، لكن من الصعب جِدّ الصعب أن نتهم بالخطإ الأمة كلها بكبارها وأهل العلم والسياسة فيها. ترى لو كان الجو جو استبداد كما يزعم هذا المهَلْوِس أكان يجرؤ ثلاثة على تحدى رأى باقى الأمة بما فيهم الخليفة ذاته ومساعدوه وكبار رجال الدولة؟

ثم كيف يزعم الأفاق أن العرب لم تكن تهتم بالقرآن أدنى اهتمام بل كان كل ما يهمهم آنئذ هو مصالحهم الاقتصادية ولقمة عيشهم، وهو نفسه الذى يقول إن المسلمين قد انقسموا فريقين بسبب ما فعله عثمان من جمع المسلمين على مصحف واحد، وإن الأمر قد انتهى جراء ذلك إلى قتل الخليفة ورفض طائفة من الناس دفنه فى مقابر المسلمين؟ أهذا صنيع قوم لا يبالون بالقرآن البتة؟ يا أخا الضلال، ما دمت كذوبا فكن ذكورا حتى لا تفضح نفسك بنفسك! الحق إنك لسخيف بالغ الحمق والسفاهة! لقد حاول الكفار بكل سبيل أن يقللوا من شأن القرآن الكريم، وكانوا يقولون: "لو نشاء لقلنا مثل هذا"، وزعموا أنه ليس شيئا آخر غير أساطير الأولين، واتهموا الرسول بأنه ساحر وكاهن وكذاب ومجنون. فهل هذا موقف ناس لا يهتمون بالقرآن؟ ثم أين كانت الدكتاتورية الإسلامية من القرشيين حين كان النبى لا يزال بمكة، وكان هو الطرف الأضعف الذى ينزل به الأذى والضر وتلاحقه الشتائم والاتهامات وقذائف الأحجار

والدعايات المزعجة؟ كذلك أين كانت الدكتاتورية الإسلامية من القرشيين بعد هجرته صلى الله عليه وسلم وحوارييه إلى يثرب؟ إنهم فى الحالتين لم يكونوا يخضعون لسلطانه، بل هم الذين ألجأوه إلى مغادرة بلده وترك الجمل لهم بما حمل. أى أنه لم يكن هناك شىء يجعلهم يخشونه ويمنعهم من انتقاد أخطاء القرآن "لو" كانت به أخطاء. ومع هذا لم يحدث أن خطأوه البتة.

وإذا كان الكاتب التافه يعيب العرب حينذاك بأنهم لم يكونوا ذوى ثقافة واسعة فالرد هو أن الثقافة الواسعة شىء، والمقدرة اللغوية على إدراك ما فى القرآن من أخطاء أسلوبية شىء آخر. ذلك أنهم كانوا يعرفون لغتهم معرفة واسعة عميقة، وفيهم الشعراء والخطباء والكهان والسياسيون، فكيف وسعهم أن يسكتوا على أخطاء القرآن اللغوية لو كانت فيه أخطاء لغوية حسبما يزعم هذا الأفاك؟ وإذا كان العرب المشركون قد وسعهم الصمت رغم ذلك كله، وهو أمر غير متصور بل مستحيل، فكيف وسع الصمت اليهود والنصارى، وقد كان بين كل من الفريقين وبين الرسول خلافات وخصومات من شأنها أن تدفعهم دفعا إلى العمل على تخطئته وتخطئه الكتاب الذى أتى به قائلا إنه وحى من عند رب العالمين؟

لقد انتقد نصارى نجران مثلا ما جاء فى القرآن المجيد من أن مريم هى أخت هارون، كما كان اليهود فى يثرب يسخرون من الأذان والصلاة واصفين نداء المؤذن بنهاق الحمير. فكيف يزعم السخيف العقل أن العرب كانوا يخشون دكتاتورية الدولة المسلمة؟ وقبل أن يمسك هذا السفيه بـ"مريم أخت هارون" هذه ويعمل منها قصة مدعيا هو أيضا أن القرآن قد أخطأ خطأ تاريخيا لأن بين مريم أم عيسى وبين هارون أزمنة طوالا هأنذا أستبق الأحداث وأقول له إن استعمالات الكتاب المقدس للأخوّة فى المعانى المجازية

كثيرة. وفى عدد غير قليل من هذه الاستعمالات المجازية للأخوّة فى الكتاب المقدس تدخل "مريم أخت هارون" بكل سهولة ويسر. وقد قال الرسول عليه السلام ردا على اعتراض بعض من كبار نصارى نجران على هذه التسمية إن بنى إسرائيل كانوا يسمون بأسماء صالحيهم، وهو ما تعضده "دائرة المعارف الكتابية" فى مادتى "أخ" و"أخت".

عن المغيرة بن شعبة: "بعثَنى رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ إلى نجرانَ، فقالوا لى: ألستُمْ تقرأونَ: "يَاأُخْتَ هَارُون"، وقد كانَ بينَ موسى وعيسى ما كانَ؟ فلم أدرِ ما أُجِيبُهُم. فرجعتُ إلى رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ فأخبرتُه، فقالَ: ألا أخبرتَهُم أنَّهم كانوا يُسمُّونَ بأنبيائِهِم والصَّالحينَ قبلَهُم؟". فإذا كان الأمر كذلك فأين الدكتاتورية التى تمنع العرب من انتقاد القرآن لو كانت فيه أخطاء لغوية؟ ولقد كانت بين مشركى مكة ومسلمى المدينة نقائض شعرية عنيفة ردد المشركون خلالها كل ما يمكن تصوره من الاتهامات للنبى ودينه ورجاله، ومع هذا لا نجد فى هذه الأشعار القرشية أى شىء يمس القرآن من الناحية اللغوية. ثم لو كان الأمر قائما على الدكتاتورية كما يزعم هذا الكيذبان فلماذا يا ترى لم يهمل المسلمون تلك الأشعار فكأنها لم تكن، بدلا من روايتها والحفاظ عليها حتى لتصير مادة أدبية وعلمية تدرَّس فى المدارس والجامعات وتؤلَّف فيها الدراسات والكتب؟ على أن القرآن ليس هو الذى سماها: "أخت هارون" بل اليهود حين جاءتهم تحمل الصغير عيسى دون أن تكون قد تزوجت. ولقد سمع اليهود فى المدينة بـ"مريم أخت هارون"، وأن أسلافهم هم الذين أطلقوا عليها تلك التسمية. وكان حريا بهم أن يعترضوا ويسخروا من هذا الذى يحكيه القرآن فيقولوا إن أسلافنا لم يقولوا ذلك. لكنهم سكتوا، والسكوت علامة الرضى، وبخاصة من اليهود ذوى الألسنة الوقحة المغرمة باختراع البهتان وترويجه.

وهذا ما قالته "دائرة المعارف الكتابية" عن استعمالات "أخ" و"أخت" فى الكتاب المقدس: ف"الأخت تستخدم كثيرا فى العهد القديم، وهى فى العبرية "أبوت"، للإشارة إلى:

١- أخت شقيقة من نفس الأبوين.

٢- أخت من أحد الأبوين (تك ٢٠: ١٢ ، لا ١٨: ٩).

٣- امرأة من نفس العائلة أو العشيرة (تك ٢٤: ٦٠، أى ٤٢: ١١).

٤- امرأة من نفس البلد أو الناحية (عدد ٢٥: ٢٨).

٥- يقال مجازيا عن مملكتى إسرائيل ويهوذا إنهما أختان (حز ٢٣: ٤).

٦- تعتبر المدن المتحالفة أخوات (حز ١٦: ٤٥).

٧- تستخدم نفس الكلمة العبرية لوصف أشياء ذات شقين أو أشياء مزدوجة، مثل الستائر أو الشقق التى يقال عنها "بعضها موصول ببعض" (وفى العبرية "موصول بأخته" – خر ٢٦: ٣ و٦)، كما تطلق أيضا على أزواج الأجنحة (حز ١: ٩، ٣: ١٣).

٨- لوصف بعض الفضائل المرتبطة بالشخص مثل "قل للحكمة: أنت أختى" (أم ٧: ٤، أى ١٧: ١٤).

٩- لوصف العلاقة بين محب وعروسه كتعبير عن الإعزاز (نش ٤: ٩، ٥: ١، ٨: ٨).

وفى العهد الجديد تستخدم الكلمة اليونانية "أيلف" (أخت) فى المعانى الآتية:

(١) لوصف القرابة بالجسد أو بالدم (مت ١٢: ٥، ١٣: ٥٦، ١٩: ٢٩، لو ١٠: ٣٩، لو ١٤: ٢٦، يو ١١: ١، ١٩: ٢٥، أع ٢٣: ١٦).

(٢) أخت فى المسيح: "أختنا فيبى" (رو ١٦: ١، انظر أيضا ١ كو ٧: ١٥، ١ تى ٥: ١، يع ٢: ١٥).

(٣) قد تشير إلى كنيسة: "أختك المختارة" (٢ يو ١٣)".

و"يطلق لفظ الأخ على:

١- الابن فى علاقته بأبناء أو بنات نفس الوالدين (تك ٤: ٨، ٤٢: ٤، مت ١٠: ٢).

٢- الابن لنفس الأب فقط دون الأم (تك ٢٠: ١٢، ٤٢: ٣) أو لنفس الأم فقط دون الأب (قض ٨: ١٩).

٣- على قريب من الأسرة الواحدة، كابن الأخ مثلا. فقد قال أبرام عن لوط ابن أخيه إنه "أخوه" (تك ١٤: ١٢ و١٦).

٤- على أفراد السبط الواحد (٢ صم ١٩: ١٢).

٥- أطلق اسم "إخوة" على الأفراد من الشعب الواحد (خر ٢: ١١، أع ٣: ٢٢، عب ٧: ٥).

٦- على حليف أو أحد أفراد شعب حليف (عدد ٢٠: ١٤، تث ٢٣: ٧، عاموس ١: ٩).

٧- على شخص يشابه شخصا آخر فى صفة من الصفات (أم ١٨: ٩).

٨- على الأصدقاء (أيوب ٦: ١٥).

٩- على شخص يماثل شخصا آخر فى المرتبة أو المكانة (١ مل ٩: ١٣).

١٠- على شخص من نفس العقيدة الواحدة (أع ١١: ٢٩، ١ كو ٥: ١١).

١١- تستخدم مجازيا للدلالة على المشابهة كما يقول أيوب: "صرت أخا للذئاب" (أيوب ٣٠: ٢٩).

١٢- على زميل فى العمل أو فى الخدمة (عزرا ٣: ٢).

١٣- أى إنسان من الجنس البشرى للدلالة على الأخوة البشرية (مت ٧: ٣ - ٥، أع ١٧: ٢٦، عب ٨: ١١، ١ يو ٢: ٩، ٤: ٢٠).

١٤- للدلالة على القرابة الروحية (مت ١٢: ٥٠).

١٥- قال الرب للتلاميذ: "أنتم جميعا إخوة" (مت ٢٣: ٨). كما استخدم الرسلُ والتلاميذُ لفظَ "إخوة" للتعبير عن بنوتهم المشتركة لله وأن كلا منهم أخ للآخر فى المسيح (أع ٩: ١٧، ١٥: ١ ... إلخ)، فالمؤمنون جميعا إخوة لأنهم صاروا "رعية مع القديسين وأهل بيت الله" (أف ٢: ٩). وقد كان الربيون اليهود يفرقون بين "أخ" و"قريب" فيستخدمون لفظة "أخ" لمن يجرى فى عروقهم الدم الإسرائيلى، أما لفظ "قريب" فيطلقونه على الدخلاء، ولكنهم لم يكونوا يطلقون أى لفظ من اللفظين على الأمم. أما الرب يسوع والرسل فقد أطلقوا لفظة "أخ" على كل المؤمنين، ولفظة "قريب" على كل البشر (١ كو ٥: ١١، لو ١٠: ٢٩). وكل المجهودات الكرازية وأعمال الخير إنما هى من منطلق هذا المفهوم المسيحى لعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان.

١٦- للدلالة على المحبة القوية المتبادلة (٢ صم ١: ٢٦، كو ٤: ٧ و٩ و١٥ و٢ بط ٣: ١٥)"- إبراهيم عوض).

(ثم إنَّ عمليةَ كشْفِ أخطاءِ القرآن فى بداية ظهوره لم تكنْ ممكنةً لأنه كان محصورًا فى نطاقٍ ضَيِّق، ولم يكنْ قد انتشرَ. ولذلك لم يؤبَه به فى بداية الأمر. وعندما انتصرَ المسلمون وانتشرَ قرآنُهم أصبحَت عمليةُ كشْفِ أخطاء القرآن أصعبَ بكثيرٍ بل غيْرَ ممكنةٍ اجتماعيا ولا سياسيا. فإذا كنا فى عصرِنا الحالى عصرِ حرية التواصل نجد كثيرًا من المسلمين يحاولون بشتى الطرق إغلاق صفحة "أخطاء القرآن اللغوية والإنشائية" التى أنشأها الأخ الباحثُ والمترجِمُ سامى الذيب على شبكة التواصل "فيس بوك" فكيف كانت الحالُ فى القرون الوسطى فى الجزيرة العربية بعد ظهور الإسلام؟ وكيف كان سيُسْمَح لمنتقدٍ أنْ يبيِّنَ الأخطاءَ اللغوية إذا كان لا يُسْمَح أساسًا إلا لمسلمٍ أو منافقٍ أنْ يعيش فى الجزيرة العربية؟ ولو أنَّ أحدًا تجرَّأَ وأظهرَ خطأً فى القرآن فمن سيروى عنه؟ أين مؤلفات ابن الراوندى النقدية على سبيل المثال؟

إنَّ عدم وجودِ مصادرَ تاريخيةٍ تُشِير إلى كشف معاصرى القرآن لأخطاء القرآن لا يعنى أبدًا عدمَ وجودِ أخطاءٍ فيه ولا يعنى أنَّ خصومَ القرآن لم يكتشفوا أخطاءه، بل يعنى عدمَ وجودِ حُرِّيةٍ كانت تسمح بانتقاد القرآن وكشفِ عيوبِه أو تسمح بالحفاظ على الآثار النقدية للقرآن إنْ وُجِدَت. فإذا كان عثمانُ نفسُه قد أحرقَ جميعَ المصاحف الأخرى وأسكَتَ بالعنف جميعَ الأصوات المعارِضة، ووظَّفَ مؤيدوه أساليبَ بلاغيةً وفقهيةً لتبرير أخطاء القرآن وتناقضاتِه (مثل أسلوب "الالتفات" [الذى يَندُرُ فى شِعرِ ما قبلَ الإسلام ويكثرُ جدًا فى القرآن] و"التقديم والتأخير" و"الاعتراض" و"الحذف والتقدير" وأحكام "الناسخ والمنسوخ" وبعض القراءات وبعض التبريرات النحوية الإعرابية

وكثير من الأحاديث وكثير من التفاسير) فكيف بأتباعه الذين تحجَّرَتْ عقولُهم بفعلِ القرآنِ عبْرَ العصورِ أنْ يسمحوا لأحد أنْ يبيِّنَ لهم أخطاءه؟- محمد عبد الجليل).

(كالعادة يقول الكاتب الشيء ونقيضه، فيزعم أن العرب فى بداية أمر القرآن لم يكونوا يأبهون به، ولهذا لم يهتموا بتبيين ما فيه من أخطاء، ثم يستدير من الناحية الأخرى فيقول إنهم قد خَطَّأوه لكن المسلمين قد استبدوا بهم واضطروهم للسكوت. فكيف نوفق بين هذا وذاك، وهما نقيضان لا يمكن التوفيق بينهما؟ أما كتب ابن الراوندى فكثير مما كانت تتضمنه موجود فى كتب من ردوا عليه. بل إنها كانت موجودة حتى عصر ابن الجوزى على الأقل، إذ ذكر فى كتابه: "المنتظم"، الذى نقل خلاله كثيرا من هجومه على الإسلام والرسول وفَنَّد صبيانياته فى الاعتراض على القرآن، أنه قد اطلع عليها بنفسه: "كنت أسمع عنه العظائم حتى رأيت في كتبه ما يخطر على قلب أن يقوله عاقل، فمن كتبه: "كتاب نعت الحكمة"، و"كتاب قضب الذهب"، و"كتاب الزمرد"...". ومع هذا لم نسمع أن أحدا لا من العلماء ولا من العوام ولا من أصحاب السلطة قد تعرض له بسوء.

بل إن ابن خلكان قد أثنى عليه وجعله من فضلاء عصره وترحم عليه: "أبو الحسين أحمد بن يحيى بن إسحاق الراوندى العالم المشهور. له مقالة فى علم الكلام، وكان من الفضلاء فى عصره، وله من الكتب المصنفة نحو من مائة وأربعة عشر كتابا منها كتاب "فضيحة المعتزل وكتاب التاج وكتاب الزمرد وكتاب القصب" وغير ذلك. وله مجالس ومناظرات مع جماعة من علماء الكلام، وقد انفرد بمذاهب نقلها أهل الكلام عنه فى كتبهم. توفى سنة خمس وأربعين ومائتين برحبة مالك بن طوق التغلبى، وقيل: ببغداد،

وتقدير عمره أربعون سنة، وذكر فى البيتان أنه توفى سنة خمسين، والله أعلم، رحمه الله تعالى".

وفى"البداية والنهاية" لابن كثير نقرأ ما يلى: "أحمد بن يحيى بن إسحاق، أبو الحسين بن الراوندى، نسبة إلى قرية راوند ببلاد قاشان ثم نشأ ببغداد، كان بها يصف الكتب فى الزندقة، وكانت لديه فضيلة، ولكنه استعملها فيما يضره ولا ينفعه فى الدنيا ولا فى الآخرة. وقد ذكرنا له ترجمة مطولة حسبما ذكرها ابن الجوزى فى سنة ثمان وتسعين ومائتين، وإنما ذكرناه ههنا لأن ابن خلكان ذكر أنه توفى فى هذه السنة، وقد قلس عليه، ولم يجرحه بل مدحه فقال: هو: أبو الحسين أحمد بن إسحاق الراوندى العالم المشهور، له مقالة فى علم الكلام. وكان من الفضلاء فى عصره، وله من الكتب المصنفة نحو مائة وأربعة عشر كتابا منها "فضيحة المعتزلة، وكتاب التاج، وكتاب الزمردة، وكتاب القصب" وغير ذلك. وله محاسن ومحاضرات مع جماعة من علماء الكلام، وقد انفرد بمذاهب نقلها عنه أهل الكتاب. توفى سنة خمس وأربعين ومائتين، برحبة مالك بن طوق التغلبى، وقيل: ببغداد".

وفى "الوافى بالوفَيَات" لصلاح الدين الصفدى ضمن ترجمته لابن الراوندى: "وقال محمد ابن إسحاق النديم: قال البلخى فى كتاب "محاسن خراسان": أبو الحسين أحمد ابن الراوندى من أهل مرو الرّوذ من المتكلمين. ولم يكن فى زمانه فى نظرائه أحذق منه بالكلام ولا أعرف بدقيقه وجليله منه. وكان فى أول أمره حسن السيرة جميل المذهب كثير الحياء، ثم انسلخ من ذلك كلّه لأسباب عرضت له ولأن علمه كان أكثر من عقله... قال: وقد حُكِيَ عن جماعة أنه تاب عند موته مما كان منه وأظهر الندم واعترف بأنه إنما صار إليه حميّةً وأنفةً من جفاء أصحابه وتنحيتهم إيّاه من مجالسهم...

وقال السيد أبو الحسين محمد بن الحسين بن محمد الآملى: سمعت والدى يقول قلت لأبى الحسين ابن الراوندى المتكلّم: أنت أحذق الناس بالكلام، غير أنك تَلْحَن. فلو اختلفتَ معنا إلى أبى العباس المبرد لكان أحسن. فقال: نِعْمَ ما قلت. نبهتَنى لما أحتاج إليه. قال: فكان مِنْ بَعْدُ يختلف إلى أبى العباس المبرّد. قال: فسمعت المبرّد يقول لنا: أبو الحسين ابن الراوندى يختلف إلىَّ منذ شهر، ولو اختلف سنةً احتجتُ أن أقوم من مجلسى هذا وأُقْعِدِه فيه".

ومن بين اعتراضات ابن الراوندى على القرآن تساؤله التهكمى عن قوله تعالى: "إن كيد الشيطان كان ضعيفا": أَىُّ ضعفٍ له، وقد أخرج آدمَ وأَزَلَّ خَلْقًا؟ وقد رد ابن الجوزى قائلا: هذا تغفُّلٌ منه لأن كيد إبليس تسويلٌ بلا حجة، والحجج تردُّه، ولهذا كان ضعيفا، فلما مالت الطباع إليه أثر وفعل. هذا ما قاله ابن الجوزى، ويمكن أن نضيف إليه أن الشيطان ضعيف بالنسبة إلى الله تعالى، الذى خلقه، وأقدره على إثارة شهوات البشر، فيستجيب له الضعفاء الخائرو العزيمة، ويصده وينتصر عليه المؤمنون ذوو الهمم العالية. وكل المخلوقات بما فيها الشيطان هم فى الحقيقة لاشىء إلا بما أقدرهم عليه ربهم. والإنسان قادر على أن يغلب الشيطان بوعيه وإيمانه وخشيته من ربه وحرصه على كرامته وسمعته، فيكون الشيطان أمامه ضعيفا عاجزا عن فعل شىء. وهناك حديث يتكلم فيه النبى عن النساء وقدرتهن على الذهاب بلب الحليم مع ما هن عليه فى الحقيقة من ضعف. كما حذر عليه الصلاة والسلام من فتنتهن رغم تسميته لهن فى ذات الوقت بـ"القوارير"، أى الكائنات الهشة. وكم من ضعيف غلب قويا، وكم هزمت المرأة الرجل بدموع عينيها، التى هى عنوان الضعف والانكسار والمذلة! وكم تغلبت عليه بنظراتها الذابلة الواهنة مما أفاض فيه الشعراء وفضحوا أنفسهم به متلذذين بتلك الفضائح مستعذبين لها! وما أكثر ما تخسر فرق الكرة العملاقة أمام فريق ضعيف لا

يساويها فى شىء، لكنه أمامها يستبسل ويستقتل، فى الوقت الذى تغتر هى وتستهين به متصورة أنها تستطيع فى أية لحظة من المباراة أن تسحقه كما تريد، إلى أن يمر الوقت ويفلت منها الزمام دون أن تشعر، فيفوز الفريق الضعيف أو يخرج على الأقل متعادلا معها بينما تنهار الفرق القوية أمامها بسهولة شديدة.

كذلك لا يصح أن ننسى أن الله سبحانه يقف مع عباده المؤمنين يطمئنهم ويبشرهم أنه غفور رحيم وأنهم مهما اقترفوا من السيئات يمكنهم محوها من صحائف أعمالهم إذا ما ندموا ورجعوا عن غيهم ولم ييأسوا فيُسْلِموا للشيطان مقادتهم. فهم إذن أقوياء بغفران ربهم لهم. كما أن انتصار الشيطان على العبد ليس ضربة لازب، إذ هو مجرد موسوِس: والعبد هو الذى يقرر أينصاع له أم لا. وحتى لو تصادف أن كان العبد، عند وسوسة الشيطان له، فى لحظة سهو أو غفلة أو ضعف فلم يستطع الصمود أمامه لأن الإغراء كان عنيفا، والحمل باهظا، فإن الله سبحانه برحمته لا يعاقبه لأن الأمر كان فوق استطاعته، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها. وكل هذا يجعل الشيطان ضعيفا إزاء المؤمن. وهذا معنى أن كيد الشيطان كان ضعيفا. كذلك كان هناك من يعبد الشيطان متصورا أنه إلهٌ مَثَلُه مَثَلُ الله سبحانه وتعالى سواء بسواء، وأن الأمر هو أمر صراع بين إلهين. فأراد الله سبحانه أن يبين أبعاد طبيعة الشيطان، وأنه ضعيف: "وقال الله: لا تتخِذوا إلهين اثنين. إنما هو إلهٌ واحدٌ. فإياى فارهبون"، وأنه مجرد مخلوق كالإنسان حسبما أقر هو بنفسه إذ قال مخاطبا ربه مقارنا بين نفسه وبين آدم: "خلقتَنى من نار، وخلقتَه من طين".

ومن بين ما قاله ابن الراوندى أيضا وردَّ عليه ابن الجوزى تعليقه على قوله عز شأنه لآدم عند خلقه وإسكانه الجنة الأولى: "إن لك ألا تجوعَ فيها ولا تَعْرَى"، إذ عقّب على ذلك

ساخرا: "وقد جاع وعَرِىَ"، متهما الله سبحانه بأنه لم يحفظ وعده لآدم، فقال ابن الجوزى: وهذا المغفل الملعون ما فَهِمَ أن الأمر مشروط بالوفاء بما عُوهِد عليه من قوله: "ولا تَقْرَبا هذه الشجرةَ فتكونا من الظالمين". ويمكن أن نفصِّل الكلام أكثر فنقول إن الله قد وعده ألا يجوع أو يعرى وألا يظمأ أو يَضْحَى ما دام باقيا فى تلك الجنة. ولم يتخلف هذا الوعد قط، إذ لم يجع آدم وحواء أو يَعْرَيَا أو يظمآ أو يَضْحَيَا فيها. إنما حدث كل ذلك لهما بعد خروجهما من الجنة ونزولهما إلى الأرض أُمِّ الأحزان والمتاعب عندما فشلا فى الامتحان واستطاع الشيطان تضليلهما فى غمرة من نسيان أبينا آدم وضياع عزيمته.

ومما غلَّط فيه ابن الراوندى القرآنَ كذلك قولُه سبحانه: "يا أيها الذين آمنوا، لا تسألوا عن أشياءَ إن تُبْدَ لكم تَسُؤْكم"، إذ قال مستنكِرا متهِما: وإنما يكره السؤالَ ردىءُ السلعة لئلا تقع عليها عين التاجر فيفتضح. فكان جواب ابن الجوزى على ذلك: فانظروا إلى عامية هذا الأحمق الملعون وجهله. أتراه قال: لا تسألوا عن الدليل على صحة قولى؟ إنما كانوا يسألون فيقول قائلهم: مَنْ أَبِى؟ فقال: "لا تسألوا عن أشياء"، يعنى: من هذا الجنس، فربما قيل للرجل: "أبوك فلان"، وهو غير أبيه الذى يعرف فيفتضح. يقصد ابن الجوزى أن هناك أولادا جاؤوا من الزنا، وبخاصة فى الجاهلية، والناس لا تعرف هذا، والطبق مستور لا داعى لإزاحة الغطاء عنه وكشف ما فيه. لكن بعضهم أراد أن يعرف من الرسول عن طريق الوحى: مَنْ أبوه؟ فنهاهم القرآن عن ذلك. ونحن نعرف أن جدران البيوت تخفى وراءها أسرارا كثيرة وخطيرة. والله أمر بالستر، ولا داعى لإثارة الفضائح. ويجرى هذا المجرى ما حدث من أحد المسلمين حين أتى الرسولَ عليه السلام ينبئه بأنه قد رأى فلانا وفلانة وهما يزنيان، وظن أن الرسول سوف يفرح بانكشاف أمر هذين الخاطئين الخارجين على تعاليم العفة والطهارة. فما كان من

الرسول الكريم إلا أن قال له على غير ما يتوقع منه: هلا سترتَهما بثوبك؟ لكن ابن الراوندى لم يفهم الكلام، أو قل: إنه فهم، لكنه أراد أن يشغب على القرآن بغير حق، بالضبط كما يفعل محمد على عبد الجليل. فهم ذريةٌ بعضها من بعض، والله سميعٌ عليمٌ.

وبعدما رأينا مستوى ذوق ابن الراوندى المنحط فى فهم الآيات القرآنية الكريمة كيف يريدنا محمد على عبد الجليل السائر على دربه والمتبع خطاه أن نأخذ بكلامه ونترك فطاحل الأدب شعره ونثره، وكبار العلماء اللغويين والنقاد والبلاغيين ومفسرى القرآن؟ ومن ذلك مثلا قول المعرى فى "رسالة الغفران" يحقر من شأنه ويتهكم به وبكتابه: "الدامغ"، الذى ألفه فى الحط من مكانة القرآن: "فما أخاله دَمَغَ إلاّ مَنْ أَلَّفَه، وبسوء الخلافة خلفه... إن هذا الكتاب الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم كتابٌ بَهَرَ بالإعجاز، ولَقِيَ عدوَّه بالإرجاز، ما حُذِىَ على مثال، ولا أشبه غريب الأمثال، ما هو من القصيد الموزون ولا الرجز من سهلٍ أو حُزُون، ولا شاكل خطابة العرب ولا سجع الكَهَنة ذوى الأَرَب، وجاء كالشمس اللائحة للمسرّة والبائحة. لو فهمه الهضب الرّاكد لتصدَّع، أو الوعول المعْصِمة لراق الفادرة والصدّع. وتلك الأمثال نضربها للنّاس لعلهم يتفكرون. وإنّ الآية منه أو بعض الآية لتعترض فى أفصح كلم يقدر عليه المخلوقون، فتكون فيه كالشَّهاب المتلألئ فى جنح غَسَق، والزّهرة البادية فى جُدُوبٍ ذات نَسَق. فتبارك الله أحسن الخالقين". ثم أين ذائقتنا نحن الأدبية التى تؤكد تأكيدا تاما أن أسلوب القرآن أسلوب فحل جليل وليس كأساليب البشر، بالإضافة إلى الروح السارية فيه من "الفاتحة" إلى "المعوّذتين"، تلك الروح الجليلة السامقة الشاهقة التى لا تشبه الروح البشرية بأية حال؟

وكيف يزعم محمد على عبد الجليل أن القرآن فى بداية أمره كان محصورا فى نطاق ضيق؟ أوقد جاء الرسول بدعوته لزوجته وأصدقائه ليس إلا؟ نعم لقد كان يخص بها القريبين منه فى البداية الأولى، وتلك طبيعة الأشياء، فكل شىء يبدأ صغيرا ثم يكبر ويتسع. لكن هذا الوضع لم يستمر طويلا، وصار عليه السلام بعد ذلك يغادى بقرآنه القرشيين ويماسيهم، وكثيرا ما تحداهم أن يأتوا بمثله، ولم يحدث أن خَطَّأَ أحدهم القرآن رغم هذا، وإنما كان أقصى ما قالوه ردا على هذا التحدى المخزى لهم هو: "لو نشاء لقلنا مثل هذا". وإذا كانوا صادقين فلماذا لم يبدعوا مثل القرآن حتى يُسْكِتوا محمدا فلا يعود إلى إيلامهم بهذا التحدى الفاضح؟

ثم إن الكاتب المتهافت الفكر يشير إلى سامى الديب النصرانى الفلسطينى السطحى الفكر وكأنه عالم نحرير لا يشق له غبار. وأنا حين أقول هذا فمن معرفتى به منذ أكثر من عقد من الزمان من خلال منتديات "واتا". كما درست ترجمته لسورة "مريم" كمثال لترجمته التافهة للقرآن كله، وبينت ما فيها من خلل شديد وسطحية مضحكة وأخطاء تدل على أن صاحبها جاهل فى هذا الميدان. ولغته العربية فوق هذا لغة ركيكة لا تخول لصاحبها الاقتراب من كتاب الله، بله تخطئته والتشنيع عليه، علاوة على لسانه الذَّفِر فى الحديث عن القرآن والنبى الكريم، ذلك اللسان الذى يستحق أن يقطع بسكينٍ ذَفِرٍ مثله، فما بالنا باللغة الفرنسية التى تَرْجَم إليها القرآن؟

وكالعادة يتناقض كاتبنا الأهوج فيقول إن عثمان قد أحرقَ جميعَ المصاحف الأخرى وأسكَتَ بالعنف جميعَ الأصوات المعارِضة، ووظَّفَ مؤيدوه أساليبَ بلاغيةً وفقهيةً لتبرير أخطاءِ القرآن وتناقضاتِه، مع أنه قد أشار من قبل إلى تكفير طائفة من المسلمين لعثمان وقتلهم إياه ورفضهم دفنه فى مقابر المسلمين؟ فكيف كان عثمان مستبدا مع خصومه،

وموقفُهم هذا منه يدل أقوى دلالة على أنه لم يكن هناك استبداد ولا يحزنون؟ كذلك يعد الكاتب المختل أسلوب "الالتفات" و"التقديم والتأخير" و"الاعتراض" و"الحذف والتقدير" من أعراض الضعف اللغوى والأسلوبى فى القرآن، مع أن كل آداب العالم تعرف تلك الأساليب البلاغية وتتفنن فيها، وتعد ذلك من سمات الروعة البيانية.

وأخيرا فدعواه بأن المعترضين على أسلوب القرآن ما كان يمكنهم توصيل أصواتهم إلينا لأن المسلمين لم يكونوا ليرووا هذه التخطئات التى تمس كتابهم، تبرهن أنه كذاب كبير، إذ المسلمون لا يعرفون طمس الآراء المخالفة لدينهم. وكتب التاريخ والأدب والسيرة والحديث تعج بأقوال المنافقين والملاحدة والشكاك فى القرآن دون أية مبالاة بأى شىء. بل إن القرآن العظيم ليحتوى على كل ما وجه إليه من تهكمات من قِبَل المشركين والمنافقين واليهود. فإذا كان صفحات القرآن ذاته قد اتسعت لتقييد تهجمات أعدائه عليه فكيف يدور فى خَلَدنا أن المسلمين يمكن أن يمحوا ما قاله مخطئو القرآن ولا يأتوا على سيرته أبدا؟ وسوف نرى أن كتب ابن الراوندى قد بقيت بضعة قرون على الأقل، كما بقيت آراؤه متاحة لنا حتى الآن من خلال من ردوا عليه، إذ كانوا يوردون نص أقاويله ثم يكرّون عليها تفنيدا وتفتيتا. ولا أستبعد أن تظهر هذه الكتب كلها أو بعضها فى يوم من الأيام، فما زالت هناك آثار فكرية إسلامية كثيرة جدا مختفية، ثم تفاجئنا الأيام والليالى بين الحين والحين بطفو بعضها على السطح بعدما كنا يائسين من العثور عليها- إبراهيم عوض).

(إنَّ أهمَّ أهدافِ التفاسير وكتب النحو ليس شرْحَ آياتِ القرآن فحسْبُ بل تبريرُ تناقضاتِه وأخطائه وتغطية عيوبه. فكانت التفاسيرُ تقوم بعملياتِ تجميلٍ لهذا الكِتابِ- الهُوِيّة. وقد أكملَتْ ترجماتُ القرآن ما بدأَتْه التفاسيرُ فصلَّحَت ما أَمْكَنَ تصليحُه من

عيوبٍ ورمَّمَتْ ما أمْكَنَ ترميمُه من فجواتٍ وتفكُّكٍ وتناقضات. ويحاولُ عبثًا مروِّجو سرابِ الإعجاز العلمى أنْ يَلْوُوا عُنُقَ النص القرآنى ليبدوَ منسجمًا مع العِلْم ويحاولون بغبار التوفيقية concordisme أنْ يردموا البحرَ المحيطَ الفاصلَ بين النص الذى يقدِّسونه وبين العِلم.

إنَّ كثيرًا من الأخطاء التى حصلَتْ عند جمعِ القرآن وكذلك عند تنقيطه لا علاقةَ لها بفصاحة العرب المسلمين بل بعدمِ معرفتهم بسياق القرآن وبخفايا وَضْعِه وبمصادره أولا، وبكونهم يعتبرون القرآنَ مقدَّسًا ثانيًا، مما جَعَلَهم لا يجرؤون على مجرَّد التفكير بكشف أخطائه ولا على تصحيحها فيما لو كشفوها. فإذا كان بعضُ معاصرى القرآن من المقرَّبين لمحمَّد وربما لمؤلفى القرآن وممن لا يُشَكُّ فى معرفتِهم الواسعة بالعربية وببيئة القرآن (كعُمَرَ وأبى بكر وابن عباس) لم يفهموا معانى بعضِ الكلمات فيه (كمعنى "الأَبّ" [عبسَ، ٣١] و"الغِسْلين" [الحاقَّة، ٣٦] و"حنانًا" [مريم، ١٣] و"أَوَّاه" [التوبة، ١١٤] و"الرَّقِيم" [الكهف، ٩]) بحسب السيوطى فكيف بالمتأخرين؟ (راجع "الألفاظ الأعجمية فى القرآن ودلالتها والتحدِّى ومعناه"، http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=342785)– محمد عبد الجليل).

(من يقرأ هذا الكلام ولا يعرف القرآن سوف يظن أن كتب التفسير مملوءة بالمحاولات العابثة لتغطية عيوب القرآن وأغاليطه اللغوية والأسلوبية. وهو تصور مضحك. ولو كان فى القرآن تلك الأغاليط التى يبدئ ذلك السخيف فيها ويعيد لما سكت المشركون ولا اليهود ولا النصارى ولا المنافقون. وإذا كان المنافقون قد وصفوا النبى عليه السلام بأنه "أُذُن"، أى ساذج غُفْل ينضحك عليه بسهولة ويُصَدِّق كل ما يقال له دون تحقيق أو

تمييز ثم لم يفعل الرسول لهم شيئا أيّ شيء، بل سجل القرآن تلك الشتيمة فى صفحاته بحيث صارت قراءتها مع سائر النص الكريم عبادة يؤجر صاحبها عليها، إذا كان الأمر كذلك فكيف نصدق أن أحدا لم يكن يجرؤ على الإشارة إلى أغلاط القرآن اللغوية؟ لقد قال المشركون فى مكة ما هو أدهى من ذلك، إذ قالوا إن بعض البشر هم الذين علموا محمدا القرآن. فما الذى فى الكلام عن أخطاء اللغة فى القرآن من خطورة تخيف القائلين بها وتمنعهم من إعلانها؟ وعلى كل فإن المفسرين إنما يتعلمون من القرآن لسد النقص والثغرات فى لغتهم وعلمهم لا العكس كما يقول هذا التافه. وفى القرآن كنوز لغوية لا توجد فى أى نص آخر شعرى أو نثرى، وتقوم كتب التفسير باستخراج الجواهر النفيسة من تلك الكنوز العظيمة. ونحن جميعا مدينون بغنى لغتنا للقرآن الكريم، الذى دلتنا على جواهره كتب التفسير. وقد حللت أسلوب طه حسين، فألفيته متأثرا تأثرا واسعا وعميقا بأسلوب القرآن المجيد رغم ما اشتهر به الدكتور طه من تمرد على كتاب الله فى أوليات حياته التأليفية. يجد القارئ هذا فى كتابى: "دراسات فى النثر العربى الحديث" فى الفصل الخاص بمجموعة "المعذبون فى الأرض". وإذا كان القرآن قد غلب د. طه رغم تمرده عليه فما بالنا بغير د.طه؟

أما كلام سخيفنا السورى عن ترجمات القرآن الكريم ودورها فى التغطية على عيوبه وطمسها فهو كلام فى الهجايص. ذلك أن ترجمة القرآن إلى اللغات الأخرى لا يقوم بها المسلمون وحدهم بل يَشْرَكهم فيها بل سبقهم إليها المستشرقون وأعداء الإسلام كما هو معروف. كذلك فكلام هذا المدلس يوهم الجهلاء بأن القرآن قد تغير كثيرا بسبب ترجماته. ومعنى هذا أن القرآن يتغير كل يوم مبتعدا عن أصله الأول. فكيف هذا يا ترى؟ ولماذا لم يتقدم مدلسنا أو أى مدلس آخر فيشير إلى ما صححته الترجمات القرآنية

من أغلاط لغوية فيه؟ قالوا: الجمل صعد النخلة. قلنا: هذا الجمل، وهذه النخلة، فأَرُونا كيف صعدها.

وبعكس ما يزعم الكاتب المتساخف نرى المترجمين المستشرقين للقرآن يقعون فى أخطاء رهيبة تدل على جهل مبين. وأضرب على هذا بعض الشواهد السريعة من ترجمة المستشرق الفرنسى المعروف سافارى التى صدرت طبعتها الأولى سنة ١٧٨٢م بباريس، إذ نجده مثلا يترجم قوله تعالى فى الآية ٢٨٢ من سورة "البقرة": "فإن كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا" بما معناه: "مريضا أو جاهلا"، ويترجم قوله عز شأنه عن عيسى عليه السلام فى الآية ٤٥ من "آل عمران" إنه "من المقربين" بـ" le confident du Très- Haut"، وكأن الله ملك من ملوك البشر الذين يُفْضُون إلى بعض وزرائهم بما عندهم من الأسرار، ويجعلونهم موضع ثقتهم، فضلا عما تشير إليه العبارة الفرنسية من أن عيسى عليه السلام هو وحده الذى يتمتع بهذا الامتياز مع أن الآية الكريمة تقول: "من المقربين" بما يدل على أنه سيكون واحدا منهم وليس المقرب الوحيد. وعند أمره تعالى للملائكة بالسجود لآدم يترجم سافارى الكلام إلى ما معناه: "اعبدوا آدم"، أستغفر الله. ولدن قوله تعالى فى آخر سورة "التوبة": "لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيزٌ عليه ما عَنِتُّم..." نراه يترجمه بما يفيد أنه عليه السلام يحمل عنهم أوزارهم: "chargé de vos fautes"، وهو ما يصادم العقيدة الإسلامية مصادمة شديدة. أما عبارة "وغرابيب سود" من قوله جل شأنه فى الآية ٢٧ من سورة "فاطر": "ومن الجبال جُدَدٌ بِيضٌ وحُمْرٌ مختلفٌ ألوانها وغرابيبُ سُودٌ" فيترجمها بـ" le corbeau est noir"، أى أن "الغراب أسود". يا للعبقرية!

بل إنه لا يستطيع نطق الكلمات العربية أصلا: ومن ذلك أن كلمة "الفاتحة"، وهى اسم السورة الأولى فى المصحف، تتحول على يديه المباركتين إلى "Fatahat". أما "اللات والعزى ومناة" فهى عنده: "Lat, Aza, Menat"، و"الزمخشرى" يصبح "زَمْسَشْكَر"، و"ذو الكِفْل" يصير "ذو الكَفِل"، و"العِشَاء" تتحول إلى "Aché"، و"أبو بكر" إلى "أبو بِكْر"، أى أبو العذراء... إى والله! وهذه مجرد عينة من أخطاء واحد فقط من المستشرقين ليس إلا. ومع هذا فلا تسأل عن دعاوى سافارى العريضة بشأن القرآن والجرأة الجاهلة الحمقاء عنده على المسارعة إلى تخطئته ومهاجمة عقائده التوحيدية الكريمة.

أما عدم معرفة بعض الصحابة المعنى الدقيق لهذه اللفظة أو تلك فما المشكلة فى هذا إذا صحت الرواية؟ إننا جميعا نجهل أشياء غزيرة فى لغتنا، وما من إنسان يمكنه الزعم بأنه قد أحاط باللغة مهما يكن علمه وتدقيقه وحفظه. بل إنه سيكون أسعد السعداء وأحظّ المحظوظين لو كان ما يعرفه من لغة قومه عشرة على الألف منها. وقد أدخل القرآن الكريم صيغا وألفاظا وعبارات وصورا وتراكيب جديدة فى لغة العرب. فمن الطبيعى أن يجهل بعض الصحابة بعض هذه الألفاظ. وعلى كل حال إذا كان هذا الصحابى أو ذاك يجهل لفظة هنا أو لفظة هناك، إذا صحت الرواية، فغيره من الصحابة يعرفونهما. وقلما يوجد نص يخلو من ألفاظ لا يعرفها فلان أو علان. وهذا أمر طبيعى تماما. وفى كثير من القصائد الشعرية نرى النقاد والعلماء يقفون أمام بعض ألفاظها أو تراكيبها أو عباراتها أو صورها ويتجادلون ويتخاصمون بل قد يتعاركون حول المعنى الصحيح أو الأصح لها. هذا أمر معروف لكل من درس الأدب شعرا أو نثرا. وأذكر أننى، وأنا طالب بالتوجيهية، قد سألت أستاذى الكبير سيد أحمد أبو رية عن معنى قول نزار قبانى فى قصيدته التى كانت نجاة تغنيها له تلك الأيام:

ماذا أقول إذا راحت أصابعه * تلملم الليل عن شَعْرِى وترعاه؟

فأجاب: "تلملم شعرى الذى هو كالليل"، ومع هذا ظللت حائرا أمام هذا البيت. وأحيانا ما أقول لنفسى: "ألا يمكن أن يكون معنى الكلام أن يد حبيبها تنشر النور فى حياتها وتضىء شعرها الأسود كالليل؟". ومع هذا فلست مطمئنا حتى الآن رغم كل تلك السنين إلى ذلك التفسير مع أن شعر نزار شعر عصرى بلغ الغاية فى السهولة والسلاسة. وقد ظللت أعواما طوالا من حياتى أتصور أن "القيثارة" هى الصفارة مع أننى من القارئين المكثرين والمستعملين للمعاجم منذ وقت مبكر. كما لاحظت أن طه حسين مثلا يستعمل كلمتى "النَّحْل والانتحال" بمعنى واحد فى كتابه: "فى الشعر الجاهلى". وبالمثل وجدته يستخدم كثيرا فى كتبه صيغة "آوَى" فى محل "أَوَى". ولا أدرى حتى الآن السر فى هذين الخطأين الأبلقين.

ورغم كل ما سبق فمن يرجع إلى السيوطى فى"الإتقان" سوف يجده قد أورد عن ابن عباس مثلا قائمة طويلة عريضة بهذه الكلمات كلها تقريبا ضمن عشرات الكلمات القرآنية مع تفسير ابن عباس لكل كلمة منها تحت العنوان التالى: "النوع السادس والثلاثون في معرفة غريبه". وعلى أية حال من يا ترى فسر لنا غريب القرآن؟ أليسوا هم الصحابة؟ لقد فسروها ونقلها عنهم التابعون لينقلها عن التابعين تابعو التابعين... وهلم جرا حتى وصلت إلينا. فلا يصح إذن أن يأتى متنطع جهول ليعمل من تلك الحبة قبة. الأمر أهون من ذلك، لكن هذا القرد يظن أنه، بتنطعه الممقوت، قادر على الإساءة إلى كتاب الله الكريم. وهيات، فرؤيته حلمة أذنه أسهل عليه وأهون.

ويتبقى كلام صاحبنا النزق عن رعب الناس من تخطئة القرآن مع أن هناك كتبا تعالج الشبهات الخاصة بتخطئة القرآن وترد عليها ككتاب ابن قتيبة مثلا: "تأويل مشكل

القرآن"، وهو ما يعنى أنه لم يكن هناك هذا الرعب الذى يبدئ فيه ويعيد. ثم منذ متى منع الاستبداد أن يكون هناك أشخاص وجماعات تضحى براحة بالها ومالها وحريتها بل بحياتها متحدية الطغاة ومؤثرة القتل على الحياة الساكنة الذليلة؟ والتراث الإسلامى مملوء بالكتابات المتمردة على كل شىء شعرا ونثرا، ولم يتعرض لأصحابها أحد إلا فى الندرة.

وحتى لو غلب عليهم الخوف فإنهم فى هذه الحالة يكتبون ما يدور فى نفوسهم ويكتمونه فلا يخرجونه عن الدائرة التى يتحركون فيها معتمدين على أن المستقبل كفيل بإخراج ما كتبوه إلى النور يوما ما. كما أن بلاد الله مفتوحة لمن يشاء، فيستطيع من يخطئون القرآن أن يهربوا من بلاد الإسلام ويلتحقوا بأعدائه ويعلنوا هناك ما يريدون. ولسوف يجدون هناك الصدر الواسع الرحيب والملجأ الدافئ الحنون كما هو حال محمد على عبد الجليل وغيره، وإن كان المهاجمون للقرآن والإسلام فى بلاد الإسلام ذاتها أكثر من الهم على القلب. وكثيرا ما يُصْدِر المستشرقون ومقلدوهم من المسلمين تقليد القردة خارج بلاد الإسلام كتبا تهاجم القرآن وتخطئه، ونقرأ نحن تلك الكتب حين تصل إلينا ونرد عليها. أى أن هناك مندوحة واسعة جدا لمن يريد تخطئة القرآن ولا يستطيع أن ينشر كلامه داخل المجتمعات المسلمة. ومنذ بضع عشرة سنة وقع فى يدى كتاب بعنوان "هل القرآن معصوم" ألفه شخص يسمى نفسه على الغلاف: عبد الفادى، وهو مطبوع وصادر فى النمسا، ومملوء بالتخطئات اللغوية والتاريخية والعلمية للقرآن المجيد، وكثير منه موجود فى كتبنا القديمة ورَدَّ عليه العلماء. وقد كنت من الذين ردوا على كتاب عبد الفادى هذا ردا مفصلا فى كتابى: "عصمة القرآن الكريم وجهالات المبشرين".

أما بالنسبة لما قاله متساخفنا عن التفسير العلمى للقرآن الكريم فهو كلام سطحى وتافه وليس وراءه شىء من العلم، إذ العلماء والمفسرون عندنا مثلا لا يتفقون فى هذه القضية

على عكس ما زعم من أنهم جميعا ينهجون هذا النهج لإنقاذ القرآن: فبعضهم يحبّذه ويرحّب به، وبعضهم يضيق به صدرًا ويدعو إلى الابتعاد عنه خشية توريط القرآن فيما لا تحمد عقباه حين يعمل المفسر العلمى على إنطاق النص القرآنى عَنْوَةً وكَرْهًا بما يعضّد نظرية من النظريات ثم يثبت بطلانها فيما بعد، مما ينسحب على القرآن ذاته ويوقع فى رُوع القراء أن الخطأ إنما يكمن فى النص نفسه لا فى المفسر. ومن الذين وافقوا من علمائنا القدامى على هذا اللون من التفسير الإمام الغزالى والإمام السيوطى. أما المعارضون فمنهم الشاطبى، الذى كان يعارض بمنتهى القوة أى اتجاه لتفسير القرآن فى ضوء المعارف العلمية التى لم يكن العرب، وهم الذين نزل عليهم القرآن واتجه بخطابه إليهم، يعرفون عنها شيئا كما جاء فى كتاب "الموافقات".

نعم إن القرآن كتاب هداية كما يقول المعترضون على الربط بين القرآن والعلوم الطبيعية والرياضية، لكن لم ينبغى أن نقصر هذه الهداية على هداية العقيدة والخلق والسلوك فحسب، والهداية أوسع من ذلك وأعم وأشمل: فهناك هداية فكرية، وهداية سياسية، وهداية اجتماعية، وهداية اقتصادية، وهداية ذوقية، وهداية صحية، وهداية إدارية... وهلم جرا؟ ومن هداية الفكر ما يلفتنا إليه القرآن من ظواهر الكون وحقائق العلم. والقرآن مفعم بالآيات التى تدعو إلى تشغيل العقول والنظر فى الآفاق والاستزادة من المعرفة واتباع المنهج العلمى الصحيح فى التفكير والاستدلال، فليس كل كتاب الله إذن مخصصا للهداية العقيدية والأخلاقية والسلوكية دون غيرها من الهدايات. ثم إن فى القرآن آيات كثيرة تتعلق بالمعارف العلمية الطبيعية والرياضية والإنسانية، فماذا نصنع إزاءها؟ وكيف يستطيع المفسر التقليدى الذى ليس له من بضاعة إلا بضاعة اللغة والفقه والبلاغة وما إلى ذلك أن يتناولها تناولا يشفى ويريح العقل المعاصر؟ وما معنى التخصص إذن؟ أم ترى القرآن كتابا ساذجا لا يستحق أن نستعين فى فهمه بألوان العلوم والفنون

المختلفة؟ أفلا نخصص إذن لهذا الجانب العلمى فى القرآن بعض جهدنا فى الفهم والتفسير؟ ثم هل يمكن أن تتم هداية المسلم، وهو ضعيف علميا؟ فماذا نصنع بقوله تعالى: "قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون"؟

ونفس الشيء يقال عن العصر الحديث، إذ هناك من يوافق على التفسير العلمى لآيات القرآن، وهناك من يرفض ذلك. وممن رحب بهذا وتحمس له من المصريين فقط عبد الله (باشا) فكرى وزير المعارف فى القرن التاسع عشر، ومصطفى صادق الرافعى وعبد العزيز (باشا) إسماعيل ود. توفيق صدقى ود. محمد أحمد الغمراوى والأستاذ حنفى أحمد والأستاذ عبد الرازق نوفل والأستاذ عبد العزيز سيد الأهل والأستاذ على عبد العظيم ود. السيد الجميلى ود. مصطفى محمود ود. محمد أحمد الشهاوى ود. منصور حسب النبى ود. زغلول النجار. ولكل واحد من هؤلاء تقريبا مساهمة فى هذا المجال. وهناك مواقع متعددة خاصة بتفسير الآيات التى تتصل بالعلوم الطبيعية والرياضية والنفسية وما إلى هذا منشورة على المِشْبَاك، وفيها بحوث ودراسات يعمل أصحابها على أن يتناولوا كل شيء من ذلك فى كتاب الله بالبحث والدرس.

ومن المعارضين الشيخ محمود شلتوت رحمه الله، الذي أنكر في مقدمة تفسيره على طائفة من المثقفين أخذوا بطرف من العلم الحديث وانتقَوْا أو تلقفوا شيئا من النظريات العلمية والفلسفية وغيرها، وأخذوا يستندون إلى ثقافتهم الحديثة ويفسرون آيات القرآن على مقتضاها. ورأيه أن الله لم يُنْزِل القرآن ليكون كتابًا يتحدث فيه إلى الناس عن نظريات العلوم ودقائق الفنون وأنواع المعارف، فالعلوم لا تعرف الثبات ولا القرار ولا الرأي الأخير، فقد يصح اليوم في نظر العالم ما يصبح غدًا من الخرافات. فلو طبقنا القرآن على هذه المسائل العلمية المتقلبة لعرّضناه للتقلب معها وتَحَمّل تبعات الخطأ فيها،

ولأوقفنا أنفسنا بذلك موقفا حرجا في الدفاع عنه. أما ما تضمنه من الإشارة إلى أسرار الخلق وظواهر الطبيعة فإنما هو لقصد الحث على التأمل والبحث والنظر ليزداد الناس إيمانا مع إيمانهم. وحسبنا أن القرآن لم يصادم الفطرة، ولم يصادم ولن يصادم حقيقة من حقائق العلوم تطمئن إليها العقول... إلى آخر ما قال.

ومن المعارضين أيضا الشيخ أمين الخولى في بحثه: "التفسير: معالم حياته، منهجه اليوم"، الذى نقل فيه رأي الشاطبي واعتراضه على الذين أرادوا أن يخرجوا بالقرآن عن نهجه في مخاطبة العرب بما يفهمون وفي إطار ما يعهدون من علوم ومعارف، وردّ على الذين زعموا أن في القرآن علوم الأولين والآخرين: دينية ودنيوية، شرعية وعقلية. وهو رأي الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الأزهر الأسبق أيضا، قاله في تقديمه لكتاب عبد العزيز (باشا) إسماعيل: "الإسلام والطب الحديث". ومثله د.عبد الحليم محمود والشيخ عبد الله المشد والشيخ أبو بكر ذكري، وقد أعلنوه في مقدمة تفسيرهم الموجز للقرآن، الذي كان ينشر في مجلة "نور الإسلام".

أما كاتب هذه السطور فليس مع الرافضين للتفسير العلمى مع شدة احترامه لهم وإكباره لما كتبوه. وما دام التفسير العلمى لا يصادم الآية فى لغتها ولا يلويها عن سياقها أو عن معناها الذى يحكم به العقل السليم فأهلا به وسهلا ومرحبا. أما القول بأن القرآن إنما نزل يخاطب العرب المعاصرين للرسول وحدهم فهذا غير صحيح، إذ هو يخاطب من خلالهم البشرية كلها منذ عصرهم إلى أبد الآبدين. وما دام العلم يتقدم كل يوم ويقفز بخطاه الجبارة فلا بد أن نستعين به فى فهم هذا النص الإلهى المعجز. والله سبحانه وتعالى ليس عربيا ولا هو ينتمى إلى عصر المبعث، بل هو سبحانه فوق الزمان والمكان والأجناس والأعراق والثقافات، وكلامه أزلى أبدى. والذى أومن به أن النص القرآنى قد

صيغ صياغة تسمح بفهمه فهما متجددا وسليما فى كل عصر. ونحن نعرف أن للحقيقة وجوها مختلفة، وإذا لم يكن فى كلام الله تلك الشمولية ففى أى كلام يا ترى تكون؟ ولقد سبق أن ضربت أمثلة على ضرورة الاستعانة بالعلوم الطبيعية والفلسفية والرياضية فى فهم نصوص قرآنية لا يمكن فهمها من قِبَل العقل الحديث بدونها. كما أن المُحْدَثين والمعاصرين قد استحدثوا من الدراسات القرآنية ما لم يكن يخطر على بال أحد. وبالنسبة لى لن يحجزنى أنى مؤلف كتاب "القرآن والحديث- مقارنة أسلوبية" عن التنبيه إلى ما فيه من لون جديد من الدراسات القرآنية فأسكت عن القول بأن هذه أول مرة يفصَّل القول أسلوبيا وإحصائيا وتحليليا فى المقارنة بين لغة القرآن ولغة الرسول عليه السلام. ولا ريب فى أن هذا الإنجاز ما كان ليتم فى العصور السابقة لأنه ابن عصره. كما استطعت أيضا فى كتبى عن سور "المائدة" و"يوسف" و"الرعد" و"طه" و"النجم" و"الرحمن" رَصْد عشرات الفروق الأسلوبية بين النصوص المكية والمدنية فى كتاب الله مما يعد جديدا تمام الجدة، إذ لم يتوصل القدماء طوال الأربعة عشر قرنا الماضية إلا إلى بضعة فروق قليلة من هذا اللون يجدها القارئ مكررة فى كتب علوم القرآن هنا وهناك دون زيادة أو نقصان. ومن المؤكد أن هناك دراسات أخرى ظهرت فى عصرنا هذا، فكيف يهوَّن من شأن هذا العصر والجهود التى تُبْذَل فيه لخدمة كتاب الله بحجة أن القدماء كانوا أفصح منا وأبلغ، وأقدر على فهم القرآن من كل نواحيه فهما لا يمكننا نحن المُحْدَثين بلوغ شيء منه؟

والمهم، كما سبق القول، ألا يفتئت المفسر العلمى على كتاب الله فيلويه عن وجهه، أو يقوّله ما لم يقل، أو يهجم على ما ليس واضحا له ولا عقله مطمئن إليه، أو يعجل بشرحه على ما لم يتأكد بعد من أقوال العلماء واجتهاداتهم التى لا تزال فى طور التحقق والتمحيص رغبة منه فى الإتيان بشيء جديد لإبهار الناس وطلبا للشهرة وحسن

السمعة. وأيا ما يكن الأمر فما زال هذان الموقفان المتعارضان قائمين حتى الآن. وقد كتب الدكتور زغلول النجار مقالا فى هذا الموضوع (فى "أهرام" الاثنين ١٨/ ٩/ ٢٠٠٦م) بعنوان "ضوابط التفسير العلمى للقرآن الكريم" نبه فيه إلى عدة احتياطات ينبغى أن يلتزم بها من يتصدى لتفسير القرآن تفسيرا علميا، إذ لا بد له أن يتعمق فى اللغة والبلاغة وعلوم القرآن، وألا يجرى وراء النظريات العلمية التى لم تتحول إلى حقائق بعد. كما ينبغى أن يبتعد بوجه عام عن التفاصيل العلمية الدقيقة التى لا تخدم غرض التفسير العلمى كالمعادلات الرياضية المعقدة والرموز الكيميائية الدقيقة مثلا. كذلك لا يصحّ له القول بأن هذا الذى توصل له هو معنى الآية، بل عليه التأكيد بأن هذا ليس سوى فهمه هو الذى يمكن أن يخطئ، ويمكن أن يصيب. وبالمثل عليه الابتعاد تماما عن الغيبيات التى لا تدخل فى إطار العلم البشرى كذات الله والروح والملائكة والجن والبرزخ وما إلى ذلك.

وهذا كلام معقول جد معقول، وكل جهد بشرى عرضة لمغامسة الخطإ مهما اتخذ صاحبه من الاحتياطات ووجوه الحذر، فلا يصح اتخاذ احتمال وقوع المفسر العلمى فى الخطإ تكأة لإغلاق بابه تماما، وإلا فلن تتقدم البشرية خطوة، لأنها معرضة فى كل خطوة تخطوها إلى السقوط فى الغلط كما قلنا، بل لا بد من التقدم والمغامرة ما دام السائر قد اتخذ كل ما يستطيع من احتياطات. وعلى الله قصد السبيل. أقول هذا رغم ما لاحظته من أن الدكتور النجار أحيانا ما يغلو ويحمّل النص القرآنى فوق طاقته ويسبغ عليه من المعنى ما لا تتقبله اللغة التى صِيغَ بها ولا السياق الذى ورد فيه. والمعروف أن كلّ متخصص فى علم أو فن أو صنعة فإنه يتحمس لها تحمسا شديدا ويكاد يراها فى كل شىء. وهذا أمر يوشك أن يكون فطريا يجرى فى العروق، ولولاه لهمدت القرائح وتبلدت، فإن التمركز حول الذات وما يتصل بها هو أحد الدوافع التى تبعث البشر على

النشاط والعمل والإبداع، والمهم ألا تتجاوز تلك الحماسة حدودها المقبولة، وأن يقيم الإنسان من نفسه رقيبا على تجاوزاته، وإلا فهناك عين المجتمع التى لا تكف عن المراقبة والمراجعة والانتقاد شئنا أم أبينا. كذلك فكل بنى آدم خطاء كما يقول الرسول، فلا خوف إذن من العمل والتقدم إلى الأمام، فلن يكون ذلك نهاية العالم. وعلينا التحرك والعمل والإبداع، أما الوسوسة الزائدة قبل الإقدام على عمل أى شىء والانتهاء إلى ألا يتخذ الإنسان أية خطوة فى اتجاه الهدف خشية الخيبة والفشل فهو الشلل القاتل، والعياذ بالله"- إبراهيم عوض).

(لِيتخيَّلِ المسلمون أنَّ حاكمًا عربيًّا طاغيةً نشرَ كِتابًا يتضمَّنُ أقوالَه، وكان هذا الكِتابُ يحتوى على أخطاءٍ مطبعيةٍ errata وأخطاءٍ أسلوبيةٍ ولغويةٍ سببُها ضَعْفُ جامعى الكِتاب ومؤلِّفى هذه الأقوال، فهل سيجرؤ أحدٌ داخلَ مملكة الطاغية أنْ يخرجَ على الملأ ويُعلِنَ عن أخطاءِ كِتاب الطاغية؟ وإنْ حدثَ مثلُ هذا، وقد يحدُث، فهل سيُبْقِى حاشيةُ الطاغية وزبانيتُه ومؤيِّدوه أى أثرٍ لذلك المنتقِد ولأفكاره؟ وإنْ نجَتْ بعضُ الأفكار النقدية القليلة وبَقِيَتْ بعدَ زوالِ حُكْم الطاغية فسيقول أتباعُه فيما بعدُ إنَّ هذه الآثارَ النقدية لا يُعْتَدُّ بها لقلَّتِها ولن يعترِفوا بأنَّ السببَ فى قلَّتها هو عدمُ قبولِهم للنقد وعنفُهم فى مكافحته وضعفُهم أمام الردِّ العقلانى عليه. إنَّ العصور الإسلامية (الراشدى والأموى والعباسى) كانت أكثرَ دكتاتوريةً من العصر الحديث بما لا يقارَن. كان العنفُ هو ما يميِّز عصورَ الإسلام حيثُ بلغَ بين المسلمين الـ"رُحَماء فيما بينهم" (بحسب وصف القرآن لهم فى سورة الفتح، ٢٩) حدًّا أدَّى إلى اقتتالهم فيما بينَهم اقتتالا شديدًا ما زلنا نرى آثارَه إلى الآن بين سُنَّةٍ وشيعةٍ أو بين التيارات الإسلامية الرسمية (الأرثوذكسية: سُنَّة وشيعة) والتيارات المخالفة [غير الرسمية] (من دُرْزية ونُصَيْرية وإسماعيلية وأحمدية وبهائية وغيرها)- محمد عبد الجليل).

(نعم لن تخلو الساحة فى بلد الطاغية من ناس ينتقدونه شفويا سرا، ويتناقل الباقون هذه الانتقادات فيما بينهم، وقد يطبعونها كتابة ويتداولونها فى الخفاء، بالإضافة إلى تسريبها خارج الحدود. ثم إن الطاغية لن يعيش إلى الأبد بل لا بد أن يموت يوما، فينتهى الرعب منه وتنطلق الألسن والأيدى التى لا يوافقه أصحابها على ما يقول. ثم إن فى البلاد الأخرى من يستطيعون أن ينتقدوه ويخسفوا به الأرض فى حياته وعز سلطانه دون خوف أو محاسبة، وبخاصة إذا كان بين حكام تلك الدول وبينه تنافسات وصراعات، وهو أمر طبيعى جدا فى مثل تلك الأحوال. وهذا كله ينطبق على كتاب "الميثاق"، الذى يقال زورا إن مؤلفه هو عبد الناصر، فقد كان الميثاق يملأ أرجاء مصر بدويّه وسلطانه، ولكن ما إن انهزم عبد الناصر فى ١٩٦٧م حتى نسى الناس الميثاق. ثم ما إن مات حتى هبت الأقلام التى كانت ترتعب منه فانتقدته وانتقدت كتابه بل انتقدت حكمه كله. وما "عودة الوعى" لتوفيق الحكيم وحكايته بالتى يجهلها أحد. والحكيم مجرد مثال.

كذلك رأينا القذافى يفاخر بـ"الكتاب الأخضر"، وفَرَضَه على الليبيين فرضا وامتلأت وسائل الإعلام التى يغرقها بأمواله خارج ليبيا بالطنطنة حول الكتاب وعبقرية صاحبه إن كان القذافى فعلا هو مؤلفه. لكن من ناحية ثانية كانت التهكمات والتحقيرات من شأن الكتاب جارية على قدم وساق فى البلاد العربية الأخرى. وما أكثر ما نشرته الصحف المصرية مثلا من رسوم كاريكاتيرية ومقالات تهزأ بالرجل وكتابه الأخضر وتسخر منه سخرية رهيبة وتجعل منهما مسخة ومضغة فى الأفواه. وهو نفس ما حدث أيضا لمجموعته القصصية: "الأرض الأرض". ومن بين من هاجمها وهاجمه ومسح بكرامتهما الأرض الزميل د. جابر قميحة رحمه الله. هذا، ولا أظن القراء الكرام قد فاتهم

مغزى استعمال كلمة "الطاغية" مرارا فى كلام الكاتب النزق. إنه يقصد بها الإيماء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

ويتبقى قوله: "كان العنفُ هو ما يميِّز عصورَ الإسلام حيثُ بلغَ بين المسلمين الـ"رُحماء فيما بينهم" (بحسب وصف القرآن لهم في سورة الفتح، ٢٩) حدا أدَّى إلى اقتتالهم فيما بينَهم اقتتالا شديدًا ما زلنا نرى آثارَه إلى الآن بين سُنَّةٍ وشيعةٍ أو بين التيارات الإسلامية الرسمية (الأرثوذكسية: سُنَّة وشيعة) والتيارات المخالفة [غير الرسمية] (من دُرْزيّة ونُصَيْرية وإسماعيلية وأحمدية وبهائية وغيرها)".

والرد على ذلك الفهم الساذج هو أن العنف لا يميز عصور الإسلام عن غيرها بل يصبغ تواريخ الأمم والأديان والمذاهب والفلسفات جميعا. والمسلمون بشر فى نهاية المطاف. كما أن الآية التاسعة والعشرين من سورة "الفتح" التى يشير إليها ساخرا شامتا تقول: "محمد رسولُ الله والذين معه أشِدّاء على الكفار رحماء بينهم"، فالكلام فى الآية الكريمة عن الذين "مع" الرسول عليه السلام لا عن المسلمين فى كل العصور، إذ لا أحد يبقى على حاله طوال الوقت، ولا أمة تبقى على نفس الوضع فى كل أدوار تاريخها. هذا ضد طبيعة الأشياء. وقد كان الرسول صمام الأمن بالنسبة للمسلمين، أما بعده فقد أخذت الأوضاع تتغير وتزداد الشقة بينها وبين ما كان آنذاك اتساعا حتى انتهى الأمر بالمسلمين إلى ما نرى. وكل الأمم تخضع لهذا التغير والتطور لا يشذ منها أحد. وفى القرآن نفسه نقرأ قول الحق تبارك وتعالى: "ألم يَأْنِ للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتابَ من قبل فطال عليهم الأمد، فقَسَتْ قلوبهم، وكثير منهم فاسقون؟". وفى القرآن أيضا: "وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خَلَتْ من قبلِه الرسل. أفإن مات أو قُتِلَ انقلبتم على أعقابكم؟ ومن ينقلبْ على عقبيه فلن يضرَّ اللهَ شيئا".

وفى "سنن أبى داود" يطالعنا الحديث التالى: "افترَقَتِ اليهودُ على إحدى أو ثِنْتَيْنِ وسبعينَ فِرْقةً، وتفرَّقَتِ النَّصارى على إحدى أو ثِنْتَيْنِ وسبعينَ فِرْقةً، وتفترِقُ أُمَّتى على ثلاثٍ وسبعينَ فِرْقةً". وعن جرير بن عبد الله: "قال لى النبى صلى الله عليه وسلم فى حَجَّةِ الوداعِ: اسْتَنْصِتِ الناسَ! لا ترجعوا بعدى كفارًا يَضرِبْ بعضُكم رقابَ بعضٍ" .فحذرهم التنابذ والتفرق والخلاف الذى يصل لحد الاقتتال، وسمى ذلك كفرا، أى كفرا بنعمة الإسلام وقيمة الأخوة الإيمانية والتعاون على الخير والبر والتقوى. وهو تعبير استفزازى يكبح جماح نوازع الفتنة فى قلوبهم، ويستحث طاقاتهم ويدفعهم إلى بذل أقصى جهودهم فى سبيل التعاون والتحاب ونبذ الشقاق والخصام.

وعن عمر بن الخطاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إنى مُمْسِكٌ بحُجَزِكم عن النَّارِ: هَلُمَّ عن النارِ، وتغلبونَنى تَقَاحَمون فيه تقاحُمَ الفراشِ أو الجنادِبِ، فأُوشِك أن أُرْسِلَ بحُجَزِكم. وأنا فَرَطُكُم على الحوضِ، فترِدُون علىَّ معًا وأشتاتًا، فأعرفُكم بسِيماكم وأسمائِكم كما يَعرِف الرجلُ الغريبةَ من الإبلِ في إبلِه، ويُذْهَبُ بكم ذاتَ الشِّمالِ، وأناشدُ فيكم ربَّ العالمين فأقول: أى ربِّ، أُمَّتى! فيقول: يا محمدُ، إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدَك. إنهم كانوا يمشون بعدَك القَهْقَرى على أعقابهم. فلا أعرفنَّ أحدَكم يومَ القيامةِ يحمل شاةً لها ثُغاءٌ فينادى: يا محمدُ، يا محمدُ! فأقول: لا أملِكُ لك شيئًا. قد بلَّغتُك. فلا أعرفنَّ أحدَكم يأتى يومَ القيامةِ يحمل بعيرًا له رُغَاءٌ فينادى: يا محمدُ، يا محمدُ! فأقول: لا أملِك لك شيئًا. قد بلَّغتُك. فلا أعرفنَّ أحدَكم يأتى يومَ القيامةِ يحمل فرسًا له حَمْحَمَةٌ فينادى: يا محمدُ، يا محمدُ! فأقول: لا أملكُ لك شيئًا. قد بلَّغْتُك. فلا أعرفنَّ أحدَكم يومَ القيامةِ يحمل سِقَاءً من أَدَمٍ ينادى: يا محمدُ، يا محمدُ! فأقول: لا أملِكُ لك شيئًا. قد بلَّغتُكَ". بالله أهذا نبى كذاب؟ أهذا كلام الكذابين يا محمد على

عبد الجليل؟ خيبة الله عليك وعلى من وظَّفوك هذه الوظيفة، وظيفة إثارة الشبهات والهجوم على دين هذا الرجل العظيم الكريم النبيل الصادق الأمين.

والسذج وحدهم من يظنون أن البشر يمكن أن يتحولوا إلى ملائكة لا يخطئون ولا تفتر طاقاتهم وحماساتهم ويظلون طول الحياة يمشون على العجين لا يلخبطونه دون شعور بالضيق أو الاضطراب أو الملل أو الرغبة فى التغيير. كما أن من سنن الحياة أن كل كيان لا بد من انشقاقه مع الأيام إلى كيانات صغيرة سواء فى حياة المجتمعات أو فى حياة الجمادات والأفكار والمذاهب. ومن ثم فانقسام المسلمين الأوائل بعد وفاة النبى صمام الأمن بين سنة وشيعة وخوارج ومعتزلة ومتصوفة وباطنية وما إلى هذه هو أمر طبيعى. وقد حدث هذا لليهويدة والنصرانية، فكان عندنا مذاهب وفرق فى الديانتين كل منها تحسب أنها هى الفرقة الناجية، والباقى ذاهب فى ستين داهية.

وفى عصرنا هذا وجدنا الشيوعية تنقسم على نفسها فيكون عندنا شيوعية روسية وشيوعية صينية وشيوعية يوغسلافية وشيوعية ألبانية وشيوعية كورية. وانقسم البعثيون إلى بعث سورى وبعث عراقى، وكان بينهما ما طرق الحداد رغم أن كلا منهما يزعم أنه يعمل من أجل الحرية والوحدة والاشتراكية. وبالمثل فالديمقراطيات أنواع وأشكال. كما أن الأسر التى تظل متماسكة كيانا واحدا فى حياة مؤسسها سرعان ما تنشق وتصير عدة أسر، كل أسرة تسكن بيتا مستقلا بعدما كانوا جميعا يقطنون مسكنا واحدا يضمهم كلهم. ثم تنقسم مع الأيام كل أسرة من هذه الأسر بدورها لتصير عدة أسر... وهكذا دواليك.

فملاحظة صاحبنا، كما نرى، ملاحظة ساذجة تدل على عدم فهمه للحياة وطبيعتها. وليست هذه دعوة إلى الرضا بالتمزق والتشتت، بل فهما لطبيعة الأمور. والمهم أن

يكون هناك تفاهم بين هذه الكيانات المنشقة واتفاق وحرص على التمسك بالجوهر والأساسيات، والتعاون على الخير والبر والتقوى، ثم فلتختلف تلك الكيانات بعد هذا فى التفاصيل والصغائر وكل ما هو غير أساسى. وبهذا نكون قد جمعنا فى نظرتنا وموقفنا بين المثالية والواقعية. على ألا ننسى أبدا أن البشر هم البشر فى كل الأحوال، وأن لهم سقفا فى الاستطاعة والإنجاز لا يمكنهم أن يتجاوزوه ويعلوا عليه مهما حاولوا واجتهدوا وأرهقوا أنفسهم- إبراهيم عوض).

(يمكن التمييز بين ثلاثة أنواع رئيسية من الأخطاء فى القرآن:

١- النوع الأول: الأخطاء الإملائية غير المقصودة أو أخطاء السهو أو الجهل من الناسخ. وهذه الأخطاء على قسمين بحسب تاريخ حدوثها: القسم الأول: أخطاء حَصَلَتْ فى وقت تدوين القرآن وتبدو قليلةً فى القرآن، ومنها الأخطاء الواضحة (اللحن) التى سُئِلت عنها عائشةُ بحسبِ عدة مصادرَ مِنها تفسيرُ الطبرى: ("حدثنا ابن حميد قال: حدثنا أبو معاوية عن هشام بن عروة عن أبيه أنه سأل عائشة عن قوله: "إنَّ هذانِ لساحران" [طه، ٦٣]، فقالت: يا ابن أختى، هذا عمل الكُتَّاب أخطأوا فى الكِتاب" (عِلْمًا أنَّ قراءةَ الجمهور كنافع وحمزة والكسائى وأبو جعفر هى: "إنَّ هذانِ" وقراءةَ حفصٍ هى: "إنْ هذانِ"). إنَّ مجرَّد ذِكْرِ مثلِ هذه الأحاديث فى كتاب معتبَر كالطبرى يوحى بأنَّ فكرة خطأ الناسخ فى القرآن لم تكنْ مستهجَنة- محمد عبد الجليل).

(من فمك أدينك أيها المدلس. لقد صدعتَ أدمغتنا بسخف مزاعمك أن العرب والمسلمين فى ذلك الزمان لم يكونوا يهتمون بأمر القرآن ولا بما فيه من أخطاء لغوية. كما أزعجتنا بتفاهة قولك إن المسلمين لم يكونوا يجرؤون على تخطئة القرآن. ولكن ها

أنت ذا تقول إنهم كانوا يهتمون بأمر القرآن وما فيه من ملاحظات لغوية، وإنهم كانوا لا يتحرجون ولا يَخْشَوْن أحدا أو شيئا من التعبير عما يرونه فى القرآن من ثغرات. أى أن كل دعاواك هى دعاوى فارغة.

ومع هذا فمن المستحيل أن تقول عائشة ما هو منسوب إليها من أن نُسَّاخ القرآن قد أخطأوا فيه، وإلا لسمعناها تُقَرِّع النساخَ وتدعو المسلمين إلى العودة إلى أصل النص. ولا ينبغى قبل ذلك أن ننسى ولو للحظة واحدة أن عائشة رضى الله عنها كانت زوجة النبى، ولا يمكن أن تنسى أن القرآن محفوظ من العبث والخطإ، فكيف يصدر عنها هذا الكلام الذى من شأنه تكذيب الوحى الذى تقوم عليه نبوة زوجها؟ بل إننا لو افترضنا المستحيل وقلنا إنها لم تكن فى أعماقها تؤمن بزوجها نبيا لقد كانت مصلحتها تقتضى اقتضاء ألا تظهر شيئا من ذلك عن القرآن، وإلا لاتُّهِمَتْ بأنها كانت ترافئ زوجها على الكذب والتزوير والادعاء بأن الكلام الذى يؤلفه ويلفقه هو وحى من السماء. بل لقد كان ينبغى أن يعبر عروة فى الحال عن استغرابه الحاد من هذا الرد الغريب. ولكن لو أن عائشة كانت لا تعتقد فى نبوة زوجها فلم نزلت مثلا على حكم القرآن الذى حرَّم عليها إلى الأبد، وهى فى عز شبابها ونضارتها وإقبالها على الحياة، أن تتزوج بعد موت ذلك الزوج؟ لقد كان المنطقى أن تهرب من بلاد المسلمين وتلجأ إلى الروم مثلا وتعيش على ما تحب وتهوى وما يطلبه شبابها. خيبة الله على السخفاء المتنطعين. على أن ورود هذه الرواية فى تفسير الطبرى، إن كانت قد وردت، لا تعنى أنه يصدِّق بها، فهو يورد كل ما سمعه ثم يبدى رأيه فيه بالموافقة أو بالاعتراض فى غالب الأحيان. وهو ما لم يحدث هنا لأنه لم يورد هذه الرواية أصلا فى تفسيره. فالكاتب إذن يكذب ويخترع وينسب ما يخترعه إلى من لم يقولوه. ليس ذلك فحسب، بل إن الطبرى لا يجد فى إعراب "هذان" بالألف بعد "إنَّ" شيئا حتى يبحث لها عن مبرر، إذ كان من العرب

القدماء، كما هو معروف لكل مَنْ دَرَس النحو العربى بشىء من التفصيل، من يلتزمون الألف فى المثنى فى كل حالاته الإعرابية: رفعا ونصبا وخفضا كما فى الأبيات التالية:

إنَّ أباها وأبا أباها * قد بلغا فى المجد غايتاها

* * *

فأَطْرَقَ إطْرَاقَ الشُّجَاعِ، وَلَوْ رَأىَ * مَسَاغًا لِنَابَاهُ الشُّجَاعُ لَصَمَّما

* * *

تزوَّد منا بين أذناه ضربةً * دَعَتْه إلى هابى الترابِ عقيم

وأرجو أن ألفت النظر إلى أن فى العرب القدماء من كانوا يعربون الأسماء الستة أيضا بالألف فى كل الأحوال. ويجد القارئ فى البيت الأول من هذه الأبيات الثلاثة مثالا على ذلك- إبراهيم عوض).

(ومن هذه الأخطاء الإملائية التى حَصَلَتْ أثناء التدوين يمكنُ أيضًا ذِكرُ الخطأ الوارد فى الآية ٥٥ من سورة الحج ("أو يأتيَهم عذابُ يومٍ عقيم"). والصوابُ الذى أقترحُه هو أنْ يقال: ("أو يأتيَهم عذابُ يوم عظيم")، وذلك لأنَّ القرآن يستخدم دائمًا صفةَ "عظيم" لوصف "يوم"، كما فى الآية ٣٧ من سورة مريم ("فويلٌ للَّذينَ كَفروا من مَشْهدِ يومٍ عظيم") والآية ١٣٥ من سورة الشعراء ("إنِّ أخافُ عليكم عذابَ يومٍ عظيم") والآية ١٣ من سورة الزُّمَر ("قلْ إنِّ أخافُ إنْ عصيتُ ربِّى عذابَ يومٍ عظيم"). إنَّ وصف اليوم بـ"العظيم" منطقى أكثر من وصفه بـ"العقيم"، وينسجم أكثر مع منطق القرآن. وربما كان استخدام كلمة "عقيم" (بدلا من "عظيم") فى الآية ٥٥ من سورة الحج يعود

إلى خطأ أو سهو من الناسخ لأنَّ الفرق الإملائى بين كلمة "عظيم" وكلمة "عقيم" فرق بسيط جدا– محمد عبد الجليل.

(كعادة هذا الثخين الجلد يضع نفسه فى مآزق ليس على مستواها. سنفترض أن الأمر كان نتيجة غلطة نسخية، فأين جماهير المسلمين الذين يحفظون القرآن ويعرفون أنها "يوم عظيم" لا "يوم عقيم"؟ أمن المعقول أن يخطئ أحد النساخ فينزل المسلمون جميعا على خطئه ويهجروا الصواب على الفور دون أن نسمع منهم نأمة استغراب أو اعتراض، بل دون أن تقوم خصومات ونزاعات، بل يمضى الأمر فى هدوء وسكينة، ويتغير النص القرآنى فى الحال دون أية مشاكل؟ خيبة الله على عقلك! إن هذا لهو المستحيل بعينه. ثم أَنَّى له بخطإ وصف اليوم بالعقم؟ إن وصف اليوم بالعقيم معناه أنه لا ينجلى عن أى خير ولا يخفَّف فيه العذاب أبدا. فما وجه الاعتراض على ذلك؟ وهل يحرم أن ينوع القرآن فى أساليبه؟ كثيرا ما يقع هذا فى كتاب الله، وهو أمر معروف للمحتكِّين بالكتاب المجيد. ولدينا فى هذا السياق أوصاف أخرى ليوم العذاب، وهى: "عذاب يومٍ كبيرٍ" (هود/ ٣)، "عذاب يوم أليم" (هود/ ٢٦)، "عذاب يومٍ مُحِيطٍ" (هود/ ٨٤). وهناك أيضا "يومٌ عصيبٌ"، وهو الوصف الذى وصف به لوط اليوم الذى زارته فيه الملائكة وخرج قومه يحاولون الاعتداء عليهم مثلما يفعلون مع الغلمان (هود/ ٧٧). فهل نلغيها هى أيضا، ونستبدل بكل منها شيئا آخر؟ وهل مثل تلك الأمور تعالج بالافتراضات الوهمية التى لا تدور إلا فى عقول المهووسين؟ هل كلما طَقَّتْ فى دماغ أى جهول فكرة سخيفة طرحها علينا بوصفها إبداعا ليس له نظير؟ وهناك أيضا "يومٌ مجموعٌ له الناس" و"يومٌ مشهودٌ" و"يوم معلوم"، وهو يوم مواجهة موسى بالسحرة فى مصر أيام فرعون، و"يوم عاصف"، و"يومٌ عَسِرٌ"، و"يومٌ عسيرٌ"، و"يومٍ ذى مَسْغَبَة"، و"يوم لا بيعٌ فيه ولا

خِلالٌ"، و"يومٌ لا مردَّ له من الله"، و"يوم كان مقداره ألف سنة"، و"يوم كان مقداره خمسين الف سنة".

وبالمناسبة فهناك تنويع فى وصف العذاب أيضا ما بين "عذاب أليم" و"عذاب شديد" و"عذاب غليظ" و"عذاب عظيم" و"عذاب مهين" و"عذاب واصب" و"عذاب مقيم" و"عذاب مستقرّ". كما يتنوع العذاب الأخروى أيضا من خلال تنوع المضاف إليه، فهناك "عذاب السعير"، و"عذاب النار"، و"عذاب الجحيم"، و"عذاب الآخرة"، و"عذاب جهنم"، و"عذاب الهُون"، و"عذاب السَّمُوم"، و"عذاب الحريق". ثم لماذا لم يتنبه النساخ إلى خطإ "يوم عقيم"، وهم أدرى بالقرآن من أى حمار جهول؟- إبراهيم عوض).

(القسم الثانى: أخطاء حصلَت بعدَ تدوين القرآن وذلك أثناء تنقيطه فأخطأوا فى وضع النقاط على بعض الحروف. وقد أشار كريستوف لوكسنبرغ إلى بعضِها من خلال قراءته للقرآن على ضوء الآرامية. فمثلا، الآية ٦٤ من سورة الإسراء ("واستفزِزْ مَنِ استطَعْتَ منهم بصوتِكَ وأَجْلِبْ عليهم بِخَيْلكَ ورَجِلِكَ وشارِكْهم فى الأموالِ والأولادِ وعِدْهُم وما يَعِدُهُمُ الشيطانُ إلا غُرُورًا") قرأها لُكْسنبرغ هكذا: ("واستفززْ مَنِ استطَعْتَ منهم بصوتِكَ وأَخْلِبْ عليهم [اخدعهم] بِحِيَلِك ودجَلِكَ وشَرِّكْهم [أوقعهم فى الشِّراك: أغْرِهِم] الأموالِ والأولادِ وعِدْهُم وما يَعِدُهُمُ الشيطانُ إلاَّ غُرورًا"). مثالٌ آخر على أخطاء التنقيط هو الآية: "وهو الذى أَنشأَ جَنَّاتٍ مَعْروشاتٍ وغَيْرَ مَعْروشاتٍ" (الأنعام، ١٤١) حيثُ أوردَ القرطبى فى تفسيره أنَّ عليًّا قرأها بِالْغَيْنِ المعْجَمة والسين المهْمَلة هكذا: ("مغروسات وغير مغروسات"). مثال ثالث على الخطأ الإملائى فى التنقيط ما اقترحَه (أحمد الجابرى) أحدُ المشارِكين فى صفحة "أخطاء القرآن اللغوية والإنشائية"، إذِ

اقترحَ قراءةَ كلمةِ "المِصَلِّين" بالضاد المعجَمة هكذا:"المِضِلِّين"، لينسجمَ معنى الآية التالية مع المنطق القرآنى: ("فويل "للمُضِلِّينَ" الَّذينَ هُم عن صلاتهم ساهون" [الماعون، ٤ و٥])، ذلك لأنَّ المِصَلِّين لا يمكنهم أنْ يسهوا عن صلاتِهم، وإلا لما كانوا مُصَلِّين- محمد عبد الجليل).

(أولا الفعل: "أَخْلَبَ" هو فعلٌ لازمٌ لا مُتَعَدٍّ كما يستعمله الغبى الجاهل. و"أَخْلَبَ الماءُ: كان ذا حمأة، وهى القطعة من الطين الأسود المنتن"، ولا علاقة له بالخداع كما ترى. كما أن كلمة "أجلب"، أى أحدث الجلبة والضجة، تتسق مع "الصوت" فى قوله تعالى: "واستفزِزْ من استطعتَ منهم بصوتك" لأن الجلبة صوت من الأصوات. فانظر إلى رقاعة الكاتب الجهول وتعجب كما يحلو لك. وبالمثل فالفعل: "شَرَّكَ" لا علاقة له بإيقاع أحد فى الشَّرَك بتاتا، بل يقال: "شَرَّك بين القوم" أى جعلهم شركاء، و"شَرَّكَ النعلَ" أى ركَّب لها سيورا (على ظاهر القدم) كما فى بعض الصنادل والشباشب الآن. ثم إن كلمة "الدَّجَل" كلمة غير قرآنية، بل لم ترد فى كلام الرسول أيضا رغم ورود كلمة "الدجال" فى بعض الأحاديث.

وقائل هذا الكلام هو المدعو: كرستوفر لوكسنبرج، ذلك الذى لا يعرف أحد اسمه أو هويته على وجه التحقيق، وإن كان هناك من يقول إنه سورى. وهو صاحب القول بسريانية كثير من آيات القرآن إذ يزعم عن غير علم أو منطق أو برهان أن فى القرآن أشياء كثيرة لا يمكن فهمها بدون الرجوع إلى اللغة السريانية لأنها مأخوذة من تلك اللغة لفظا ومضمونا، فقد كان لمحمد معاونون سريان يساعدونه على تأليف القرآن وشَحْنه بالكنوز الدينية السريانية كما يقول، مع أنه لم يكن هناك أى سريان فى مكة، ولا كان

حوله عليه السلام سريان فى أى مكان أو زمان أو كان يعرف سريانا، وإلا فمن هم أولئك السريان؟ ومتى وأين كان يلتقيهم؟ ومن ذا الذى رآهم أو سمع بهم يا ترى؟

والغريب أن لوكسنبرج نفسه قد قال إن السريانية آنذاك كانت موجودة فقط فى الشام والعراق. فإذا كان موطن السريانية على هذا البعد الشاسع من مكة حيث ظهر محمد والقرآن فكيف يا ترى تأثر القرآن بها؟ وأين الدليل على ذلك التأثر؟ ومن كان الوسيط أو الوسطاء الذين أخذ محمد السريانية عنهم وأدخلها قرآنه؟ وفى أية ظروف كان ذلك؟ ولماذا سكت معلموه أو معاونوه عن ذكر دورهم، وبخاصة حين خدعهم وجعل من نفسه نبيا وتركهم يقشِّرون بصلا وفاز هو بالغنيمة وصار اسمه يدوى كالطبل: أولا فى بلاد العرب، ثم فى بلاد الدنيا كلها بعد ذلك، فى الوقت الذى لا يذكرهم ولا يبالى بهم ولا يعرفهم أحد، وقبعوا فى الظلام والخفاء ونسجت عليهم العنكبوت بيتها إلى الأبد؟ بل لماذا خرس سائر سريان الشام كلهم طوال تلك القرون فلم يحاولوا فضح هذه اللعبة المحمدية؟

ثم إن القرآن يكرر فى كل المناسبات أنه قرآن عربى نزل بلسان عربى. فلو كان القرآن سريانيا لهب أهل مكة والعرب جميعا، وعلى رأسهم اليهود والنصارى والمنافقون، يصرخون فى وجه النبى عليه السلام متهميه بالكذب الصراح قائلين: كيف تجرؤ على أن تنكر الحقائق الساطعة سطوع الشمس فى وضح النهار وتقول إن القرآن الذى أتيتنا به قرآن عربى فى حين أنه سريانىّ؟ ثم هل تظن أننا نائمون على صماخ آذاننا فلا نعرف أن فلانا وفلانا وفلانا من السريان يعينونك فى تأليف قرآنك؟ ألا إنها لجرأة بلغت المدى فى السماجة وجمود الوجه! الحق أن لوكسنبرج لا يستعمل هنا عقله بل حوافره، فالأبعد حمار عريق فى الحمارية!

وحتى يتيقن القارئ من أن لوكسنبرج مزيف كبير نسوق إليه مثالا مما قاله فى تفسير القرآن بالاستعانة بالسريانية، التى يكذب مدعيا أن نصوصا من القرآن قد نزلت بها. فقد ورد فى تصديه لتفسير سورة النجم تحت عنوان "تحليل فيلولوجى لكلّ آية على حدة": "وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى:... إنّ ما يصفه نولدكه بخصوص النّحو السريانى، والذى كثيرا ما يُحَيِّر المختصّين فى العربيّة، نجده أيضا جليّا فى الجملة التى تأتى فى مقدّمة السورة التى نحن بصددها. فوحدة الجملة، التى انكسرت بفعل إدخال الفاصلة الخاطئة (بعد "هَوَى")، لم يهْتدِ إليها المفسِّرون والمترجمون. فى الحقيقة تحتوى الآيتان الافتتاحيتان على جملة مركَّبة من شرط (آية ١) وجواب شرط (آية ٢). وهكذا فإنّ التركيب النحوى للجملة يكون كالتّالى: الكلمة الأولى: "والنَّجْمِ" ليست الفاعل فى الآية ١ بل هى قَسَمٌ لا دور آخر له سوى تقديم الجملة التى تأتى لاحقا. وبناء على هذا فإنّ الجملة (الآية) كلّها تكون: "وَالنَّجْمِ"، وليس "وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى"... زمن الجملة التى تأتى بعدها "إِذَا هَوَى" زمن شرطى، والفاعل هو الشخص المذكور فى جواب الشرط فى الآية ٢: "صَاحِبُكُمْ". يجب إذن أن نفهم الجملة على النحو التالى: "إِذَا هُوَ (صَاحِبُكُم) هَوَى". جواب الشّرط (جواب القسم) يأتى منطِقيًّا فى الآية ٢: "مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى". عندما يُترجِم بل (Bell) هذه الآية هكذا: " Your comrade has not gone astray, nor has he erred "، فهو لا يرى بوضوحٍ كافٍ ما تشير إليه، أى المِسّ الشيطانى الذى يُعْتَقَد أنّ الذى يُصَاب به يخرج عن الطريق المستقيم وينتابه الهذيان. فلهذا السّبب إذن يؤكِّد القرآن أنّ النَّبى (صَاحِبكُمْ) لم يَحِدْ عن الحقّ ولا زال عنه، ولم يُصَب بالهذيان. فتصبح ترجمة الآية الأقرب إلى الصواب كالتّالى: " Your companion has not gone astray, nor has he become delirious".

وأول شيء ألفت الانتباه إليه هو قول المستشرق إن القرآن ينسب المرض المقدس (أى الجنون) إلى الأنبياء الآخرين. وهذا كذب وافتراء، فلم يحدث قط أن نسب القرآن الجنون إلى أى نبى أو رسول كائنا من كان، وإلا كان هذا منه تكذيبا لهم. كل ما فعل هو ذِكْرُ اتهامَ أقوام النبيين والمرسلين لهم بالجنون مفندا اتهاماتهم ومسخفا عقولهم ومتوعدا إياهم بأسوإ مصير. وشتان هذا وذاك. كذلك فزعم المستشرق أن الآيات الأولى من سورة "النجم" إنما تتحدث عن اتهام المشركين له صلى الله عليه وسلم بالجنون والهذيان هو زعم جاهل. فالآيات تذكر الضلال والهوى والغواية، وهذه أمور أخلاقية. ولو كانت تريد أن تنفى عنه الجنون لذكرت الهذيان لأنه أمر عصبى يرتبط بالجنون. وهذا من الوضوح بمكان مكين، ومن ثم فكل ما قاله الرجل فى هذا الموضوع سخف فى سخف.

أما قوله إن المفسرين، ومن ثم المترجمون، قد أخطأوا فهم التركيب الموجود فى الآيات الثلاث الأولى من السورة بسبب جريها على النحو السريانى فلا أدرى أى جنون سول له هذا الهذيان. أىّ نحو سريانى؟ وأى بطيخ؟ إن معنى الآيتين واضح تماما، وهو القَسَم بالنجم عند هُوِيِّه بأن الرسول لم يضلَّ ولم يَغْو ولم ينطق عن الهوى. فما المشكلة فى ذلك؟ أهى فى الفصل بين القسم وجوابه ووجود هذا فى آية، وذاك فى آية أخرى؟ لكن ذلك يتكرر كثيرا فى القرآن. وحتى لو سرنا على دربه الملتوى الخبيث وقلنا: إن المعنى هو "والنجم إن صاحبكم إذا هوى ما كان ضالا ولا غاويا ولا ناطقا عن الهوى" لظل الفصل قائما بين الشرط وجوابه كما هو واضح، إذ إن فعل الشرط موجود فى الآية الأولى، وجوابه موجود فى الآية الثانية. وهذا يعنى أن اعتراضه لا يخرج عن أن يكون زوبعة فى كستبان. أما الطنطنة بالنحو السريانى وإنجاده لنا فى فهم هذه الآية التى يزعم أبو جهل غموضها، وما هى بغامضة إلا على لسان الكذاب الدجال، فهى طنطنة لا

معنى لها ولا محصَّل من ورائها لأنه لا يوجد هنا نحو سريانى البتة. إن هى إلا شعوذة يحاول لوكسنبرج التأثير بها على السطحيين من أمثاله.

والآن أحب أن أنبه القراء إلى أننا لو فصلنا "والنجم" عن "إذا هوى" وجعلنا "إذا" شرطية (وليست ظرفية بمعنى "حين يهوى") لوجدنا أنفسنا إزاء تركيب لا وجود له فى القرآن قط. فالقرآن، حين يستخدم واو القسم مع شيء كالنجم، يرفد المقْسَم به إما بـ"إذا" الظرفية وإما بنعت أو عطف مثلا، أو يفعل الأمرين جميعا: "والقرآن ذى الذِّكْر * بل الذين كفروا فى عِزّةٍ وشقاق"، "والكتابِ المبِين * إنا جعلناه قرآنًا عربيًّا لعلكم تعقلون"، "والكتابِ المبِين * إنا أنزلناه فى ليلةٍ مباركةٍ. إنا كنا منذِرين"، "والقرآنِ المجيد * بل عجبوا أنْ جاءهم منذرٌ منهم، فقال الكافرون: هذا شيء عجيب"، و"الذاريات ذَرْوا * فالحاملات وِقْرا * فالجاريات يُسْرا * فالمقسِّمات أمرا * إن ما تُوعَدون لَصَادِق"، "والطُّور * وكتابٍ مسطور * فى رَقٍّ منشور * والبيت المعمور * والسقف المرفوع * والبحر المسجور * إن عذاب ربك لواقع"، "والسماءِ ذات البروج * واليوم الموعود * وشاهِدٍ ومشهود * قُتِل أصحابُ الأخدود"، "والسماء والطارق * وما أدراك ما الطارق؟ * النَّجْمُ الثاقب * إنْ كلُّ نفسٍ لمَّا عليها حافظ"، "والشمسِ وضُحاها * والقمر إذا تلاها * والنهار إذا جَلاها * والليل إذا يغشاها *... ونفسٍ وما سوّاها * فألهمها فجورَها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دسّاها"، "والليلِ إذا يَغْشَى * والنهار إذا تجلَّى * وما خَلَقَ الذَّكَرَ والأنثى * إنّ سَعْيَكم لَشَتَّى"، "والضُّحَى * والليل إذا سَجَا * ما ودَّعك ربك وما قَلَى"، "والتينِ والزيتون * وطُورِ سِينِين * وهذا البلدِ الأمين * لقد خلقنا الإنسانَ فى أحسن تقويم"...

وبالمثل سوف يكون عندنا تركيب لا يعرفه القرآن بل ولا تعرفه اللغة العربية. ذلك أن تركيب الآيتين الأُولَيَيْنْ طبقا لتوجيه ذلك الغبى سوف يكون كالآتى: "والنجم: إذا هوى لم يضل صاحبكم" بمعنى أن صاحبكم إذا هوى لم يضل. أى أنه إذا كان قد هوى من الصَّرْع فإنه لم يضل. والآن هل لاحظتم أن فاعل "هوى" ضمير يعود على متأخر لفظا ورتبة، وهو "صاحبكم" (فاعل فعل جواب الشرط)؟ ومعروف أن جواب الشرط يلى فعل الشرط قاعدةً وحكمًا، وهو يليه هنا واقعًا متحققا. وهذا لا تعرفه اللغة العربية ولا يعرفه القرآن. ثم متى يقول العربى: "إن فلانا قد هوى" هكذا بإطلاق دون أى تحديد أو توضيح، ويكون المقصود أنه قد سقط مصروعا؟

بل من قال أصلا إن محمدا كان يصيبه الصَّرْع؟ إن ذلك الشيطان يحاول بخبث، لكنه مفضوح، أن يمرر فى هدوءٍ الزعمَ بأن النبى عليه الصلاة والسلام كان مصابا بالصَّرْع، وكان يسقط دائما أمام المشركين فى الشارع كلما جاءته نوبة الوحى. يريد أن يقول إن وحى القرآن لم يكن وحيا سماويا بل أثرا من آثار الصَّرْع. ولكن منذ متى كان الصَّرْع يثمر شيئا مثل القرآن أو يثمر أى فكر أصلا؟ إن الصَّرْع حالة يفقد معها الإنسان حسه وشعوره وعقله وتفكيره. فكيف يتسق هذا وذاك؟ وكيف، عندما ينهض محمد من نوبة الصَّرْع، يكون جاهزا بنص قرآنى بلغ القمة فى روعة الأسلوب وفى رقى مضمونه العقيدى والأخلاقى والاجتماعى والاقتصادى والنفسى والسياسى والعسكرى حسب النص الموحى به، خصوصا أن الوحى فى كثير من الحالات كان ردا فوريا على سؤال من هذا الشخص أو ذاك بما يدل على أنه لم يكن أمام الرسول فرصة للتفكير فى الجواب؟ ولقد سبق أن تناولت تلك التهمة الغبية فى الفصل الثالث من الباب الأول فى كتابى: "مصدر القرآن"، وبينت من خلال ما كتبه الأطباء عن أعراض الصَّرْع أن أعراض الوحى شىء آخر مختلف تماما عن هذا المرض وعن أى مرض غيره. ثم لو كان محمد مريضا

بالصَّرْع ويسقط فى شوارع مكة دائما أكان المشركون يؤمنون به حتى لو انطبقت السماء على الأرض؟ وهل المصروع يمكن أن يكون قائدا سياسيا وعسكريا ومشرِّعا وزوجا وصديقا وأبا وحَمًا وقاضيا يبعث على الإجلال والتبجيل بين أتباعه، بل وبين الخصوم الكارهين له؟ وقبل ذلك كله هل حدث أن اتهمه قومه بأنه مصروع؟ الواقع أن ذلك لم يحدث قط. ألا إن ما يقوله كرستوف لوكسنبرج لكلام ساذج مفضوح.

كذلك يقول الكاتب إن "الهوى" فى الآية الثالثة هى الصَّرْع. فهل يمكن أن يقول العربى إن فلانا لم ينطق ما نطقه عن الصرع؟ يمكننا أن نقول إن فلانا ينطق عن علم أو عن جهل أو عن كبر أو عن فرط سذاجة مثلا، أما أن يقول إنه ينطق (بمعنى "يأتى بأفكار ومبادئ وعقائد وأخلاق") عن صرع فلا. ذلك أن الصرع غياب عن الوعى والإدراك والتفكير والتقدير، وليس حالة يمكن أن يصدر عنها أى شىء من هذا القبيل. أما استشهاده بقوله تعالى عن خمر الجنة: "لا يُصَدَّعون عنها ولا يُنْزِفون" فهو استشهاد فى غير محله، إذ التصديع (أى الإصابة بالصداع) هو نتيجة لشرب الخمر، أما التفكير والتقدير فليسا نتيجة للصرع. وهذا يريك كيف يخبط الرجل خبط عشواء! ألم نقل إنه حمار عريق فى الحمارية؟

وهنا أود اهتبال الفرصة السانحة لسَوْق بعضٍ من كلامه فى تحليل الألفاظ العربية وانتقالها المزعوم من السريانية إلى العربية كى يلمس القارئ بنفسه أنه أمام كلام غير مفهوم. يقول ذلك الأعجمى المتساخف مخطِّئا القرآن بعد أربعة عشر قرنا لم يستطع أن يدرك خطأه خلالها عمالقة الشعراء والخطباء والبلغاء من مشركين ويهود ونصارى معاصرين للنبى ولا متعصبة اليهودية والنصرانية الذين كانوا يعملون طوال الوقت على تصيد العورات للإسلام فلم يفلحوا حتى هل هلال لوكسنبرج فالتقطت عيناه فى الحال تلك الأخطاء:

"القراءة التقليديّة: "يُنْزِفُونَ" قراءة خاطئة. والتعديل المقْتَرَح هنا يُبَرِّره الفعل السّريانى "اتْرَفِّ" ("استرخى")، وما الصيغة القرآنيّة إلا ترجمة له. أنظر:

R. Smith, Thesaurus Syriacus, vol. I, Oxford 1879, .vol. 2, 1901

مثلا: "رَفِّيُوتا" و "مرَفِّيُوتا" وما يقابلهما بالعربيّة، حسب بار على وبار بهلول: "رَخَاوَة"، "ارْتِخَاء"، اسْتِرْخَاء". أن يكون الجذر السريانى "رْ فَ ا" هو نفسه صيغة مُشتقَّة من "رْ/فَ/ح" بحذف الحاء فذلك ما تبرهن عليه دلالة هذا اللّفظ الذى يقابِله منّا (Manna) فى العربيّة بكلمة "رَخَفَ" (وهو تبادل صوتى لكلمة "رَفَحَ"، فالحرف العربى "خَ" هو صوتم آرامى منبثق عن حرف "حَ"، ويؤكّد هذا عديد اللّهجات الآراميّة البابليّة بما فيها اللّهجات الآراميّة الجديدة التى تُعْرَف بالآشوريّة فى بلاد ما بين النهرين) ثمّ "اسْتَرْخى" بالمعنى المادّى للكلمة (مثل العجين بالنّظر إلى طبيعته غير المتماسكة).

إن هذا الاستشهاد الأخير يُظهر لنا أنّ الجذر العربى "رَ/خَ/ا" هو اشتقاق تطوّر من حذف حرف النهاية: "ف" للفظة "رَخَفَ" (مثلا فى اللّهجة الحلبيّة المعاصرة فإنّ لفظة "ب-أَعْرِفْ" تُنْطَق "ب-أَعْرَا). وهذه الأخيرة هى بدورها نطق مشتق من الجذر السريانى الآرامى "ر ح ى ف" الذى يُنْطَق بدوره من خلال تخفيف الحرف الوسطى "ح"، والفعل العربى المشتق "رَأَفَ/رَؤُفَ"، ومنه اللّفظ السريانى "رَاحُوفَا" الذى يعطى اللّفظ العربى "رَئِيف". وهذا يمكن مقارنته بالجذر "رْ/حِ/ي/مْ"، بالعربيّة "رَ/حِ/ي/مْ". أخيرا، نلاحظ أنّ "لسان العرب" يستشهد عند تعرّضه للجذر "رَ/فَ/حَ" بحديث عمر لما تزوّج أمّ كلثوم بنت على، إذ قال: "رَفِّحُونِى". أى قولوا لى ما يُقال للمُتزوِّج، بمعنى "تَفْرَحُ" (وهذه العبارة ما زالت تُقال إلى يومنا هذا قبل أو عند الزّواج)، وكذلك فإنّ

عبارة "فَرَحْ" تُطلق على حفلة الزفاف فى مصر مثلا، (وكذلك فى تونس). وهذا يُفسِّر لنا أن الصيغة المشتقّة من الفعل العربى "فَرِحَ" هى تبادل صوتى للجذر السريانى الآرامى "ر/ف/ح" (أمّا الصيغة العربية الأخرى "رَ/قَ/حَ" التى ذكرها "لسان العرب" على أنّها تؤدّى نفس المعنى هى بوضوح نتيجة للتّنقيط الخاطئ الذى أفرز "ق" عوضا عن "ف"). نودّ أيضا أن نجلب الانتباه إلى صيغة أخرى للإشتقاق العربى لنفس الجذر التى هى نتيجة لقلب "الحاء" إلى "هاء" لكى تعطى: "رَفَهَ/رَفُهَ"، تَرَفَّهَ، والأسماء المشتقّة مثل "رَفَاهَة" و"رَفَاهِيَّة"... إلخ.

أما "شديد القوى" فإن لوكسنبرج يرى أنه هو الله وأن معنى "ذو مِرَّة": "الذى هو مارا"، أى الرب. وأما جملة "وهو بالأفق الأعلى" فالواو فيها استئنافية لا حالية، وتعنى أن الله يسكن فى الأعالى، أى أن مسكنه فى السماء، وأن "دنا فتدلى" معناها أنه سبحانه قد تواضع فنزل من عليائه ليكون فى مستوى عبده تحببا إليه وتنازلا حتى لا يكسر خاطره. أما من أين أتى التواضع هذا فمن كلمة "استوى"، التى أوصلها لوكسنبرج ببهلوانياته وشقلباظاته إلى أن معناها: "تواضَعَ". أى أن الله قد نزل من عليائه نزولا ماديا.

والآن إلى التفاصيل. فهو، بكل وضوح، لا يتصور أو لا يريدنا أن نتصور، أن صفة "القوة" لا يمكن أن يوصف بها أحد سوى الله، مع أن هذه الصفة قد تكررت فى القرآن كثيرا نعتا للمخلوقين كما فى قوله تعالى: "إنى عليه لقوى أمين"، "إنّ خَيْرَ مَنِ استأجرتَ القويُّ الأمين"، "اللهُ الذى خلقكم من ضعفٍ ثم جعل من بعد ضعفٍ قوة"، "مَنْ أشدُّ منا قوةً وأكثرُ جمعا؟"، "كانوا أشدَّ منهم قوة". بل إن قوله تعالى فى سورة "النجم": "شديد القوى" قد وُصِف به جبريل فى سورة "التكوير" فى الحديث عن نفس الموقف: "وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِنْدَ

ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَآَهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ". ف"شديد القُوَى" فى "النجم" هو ذاته الموصوف هنا بـ"ذى قوة عند ذى العرش مكين". وهناك رأى محمد جبريل "بالأفق الأعلى"، وهنا رآه "بالأفق المبين". وأرجو أن يتنبه معى القارئ إلى أننا هنا، كما هو الحال مع سورة "النجم" أيضا، إزاء قَسَمٍ متلوٍّ بـ"إذا" الظرفية، مع فصل القسم عن جوابه أيضا.

ومعروف فى الإسلام وفى العقل وفى المنطق أن الله لا يُرَى لنا، على الأقل: فى الدنيا وفى ظل إمكاناتنا الإدراكية الحالية. وقد سبق موسى أنْ طلب من الله رؤيته، فكان جوابه سبحانه عليه: "لن ترانى. ولكن انظر إلى الجبل. فإن استقرَّ مكانَه فسوف ترانى". ثم إنه سبحانه تجلَّى للجبل فاندكّ، وخَرَّ موسى صَعِقًا، واعتذر حين أفاق قائلا: "سبحانك! تبتُ إليك، وأنا أول المؤمنين". وقد نفت عائشة أن يكون الرسول رأى ربه البتة. والإسلام لا يعرف التجسيد كالنصرانية، ومن ثم فرؤية الله مستحيلة فى دنيانا هذه إلى أن ننتقل إلى الآخرة، فيصير لكل حادث حديث لا نريد استباقه قبل الأوان.

وهذا هو الحديث الخاص بكلام عائشة فى إنكار رؤية النبى ربه، فعن مسروق أنها رضى الله عنها قالت له: "يا أبا عائشةَ، ثلاثٌ مَنْ تَكَلَّمَ بواحِدةٍ منهنَّ فقد أعظمَ على اللهِ الفِرْيةَ: مَنْ زَعمَ أنَّ محمَّدًا رأى ربَّهُ فقَد أعظمَ الفِرْيةَ على الله. والله يقول: "لا تُدْرِكُهُ الأبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ"، "وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلا وَحْيًا أوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ"... فقلتُ: يا أمَّ المؤمنينَ، أَنْظِرينى ولا تُعْجِلِينى. أليسَ اللهُ تَعالى يقول: "وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى"، "وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ"؟ قالَت: أنا واللهِ أوَّلُ مَن سألَ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ عَن هذا. قالَ: "إنَّما ذلك جبريلُ. وما رأيتُهُ فى الصُّورةِ التى خُلِقَ فيها غيرَ هاتينِ المرَّتينِ. رأيتُهُ منهبِطًا منَ السَّماءِ سادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ ما

بينَ السَّماءِ والأرضِ". ومن زعمَ أنَّ محمَّدًا كَتَمَ شيئًا مِمَّا أنزلَ الله عليهِ فقَد أعظمَ الفِرْيةَ على اللهِ. يقولُ الله: "يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ". ومَنْ زعمَ أنَّهُ يعلَمُ ما فى غدٍ فقد أعظمَ الفريةَ على اللَّهِ، واللَّهُ يقولُ: لا يَعْلَمُ مَنْ فِى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إلا اللَّهُ".

ومن ثم فكل ما قاله لوكسنبرج هو من ثمار التفكير بالحوافر لا مَعْدَى لنا عن وصفه بذلك. والعجيب أن لوكسنبرج يحسب نفسه خفيف الدم فيقول إن "ذو" فى "ذو مِرّة"، ليس معناها "ذو قوة" بل معناها "الذى هو الرب" لأن "مِرّة" هى فى السريانية "مارا"، أى الرب. وعلى ذلك فمعنى الكلام هو "علّمه شديد القوى الذى هو الرب". وهو يستعين بما يقال فى كتب النحو من أن بعض القبائل العربية تستخدم "ذو" لا بمعنى "صاحب" بل بمعنى "الذى/ التى" كما فى قول الشاعر: "وبئرى ذو حفرْتُ وذو طويتُ"، أى "بئرى التى حفرتها والتى بطَّنتها بالحجارة". لكن فاته أن "ذو" (عندما تكون اسما موصولا) تحتاج إلى جملة صلة. وهنا لا توجد جملة صلة. فهل يمكن أن يقول العرب: "شديد القوى الذى الله"؟ هذا ليس كلاما عربيا بل خواجاتيا سخيفا تافها. والعجيب أنه يحاول استغفالنا فى الزحمة فيقول فى عجلة ولهوجة إن "ذو" معناها: "الذى هو"، أى "الذى هو مِرَّة" أى مارا، بمعنى "الذى هو الرب"، وذلك حتى تستقيم له الجملة. وشتان! فـ"ذو" معناها "الذى" فقط دون "هو". ورؤيته حلمة أذنه أقرب إليه من بلوغ غايته من خلال هذه البهلوانية. أما كيف تحولت، على يديه الخفيفتين كأيدى اللصوص، كلمة "مِرَّة" إلى "مارا"، أى الرب فى السريانية كما يقول، فمن خلال الزعم بأن هناك خطأ فى قراءة كلمة "مارا" أدى إلى نطقها وكتابتها: "مِرَّة".

إن صنيع هذا المدلس ونظرائه إنما يستهدف وضع المسلمين دائما تحت ضغط التشكيك فى دينهم وكتابهم ونبيهم وإرباك ذهنهم وعقولهم وإشعارهم أن كل شىء فى القرآن مؤلف تأليفا وليس نازلا من السماء وأنه لا فرق بينه وبين الكتاب المقدس، الذى انهار تحت معاول البحث والتحقيق بعدما ثبت أنه من صنع بشر. وبهذا لا يكون أحد أحسن من أحد. ذلك أنهم يعرفون جيدا أن الإسلام هو الحصن الحصين المتين للمسلمين. به فتحوا العالم وسادوا الدنيا، وظل الغرب يرهبه ويرهب أتباعه قرونا. وهم موقنون أن المسلمين بدون الإسلام لا شىء: فبه قوتهم، ومنه عزتهم وكرامتهم، وبمبادئه وقيمه العظيمة يمكنهم أن يستعيدوا مجدهم الدابر الغابر وتصبح لهم مكانة عظيمة. فالذى يفعله المستشرقون وصبيانهم هو ضربات استباقية حتى لا يفيق المسلمون من سكرتهم وخُمَارهم ويظلوا فى رقدة الوخم والوهن بل رقدة العدم التى هم فيها. واستدامة تلك الرقدة القاتلة إنما تكون بالتشكيك فى مصدر القرآن، والإلحاح على أنه إنجاز محمدى. وما دام القرآن صناعة بشرية فلن يعود له ذلك السحر الآسر الذى يستولى به على العقول والقلوب. وبالمناسبة فقول لوكسنبرج إن قوله جل جلاله: "وأجلب عليهم بخيلك ورجلك" هو فى الحقيقة "بحيلك ودجلك" يذكرنا بالنكتة التى تقول إن أحد العوام الجهلاء قد رأى لافتة مكتوبة بخط متداخل كما يفعل الخطاطون أحيانا لبعض الأسباب الفنية والزخرفية فقرأها على أنها اسم شخص يُدْعَى: "سُنْقُرْ بِكْ فلانْس"، ولم يفهم لأنه جاهل وعامى أنها قوله تعالى من سورة "الأعلى": "سنُقْرِئُكَ فلا تَنْسَى".

أما الخطأ الإملائى المزعوم الذى ذكر محمد على عبد الجليل أن المحروس أحمد الجابرى قد اكتشفه فى قوله تعالى: "فويل للمصلين" واقترح تحويله إلى "فويل للمُضِلِّين" لينسجمَ، حسب كلامه، معنى الآية التالية مع المنطق القرآنى: "فويل "للمُضِلِّينَ" * الَّذينَ هُم عن صلاتهم ساهون" لأنَّ المِصَلِّين لا يمكنهم أنْ يسهوا عن صلاتِهم، وإلا لما كانوا مُصَلِّين،

أما ذلك الخطأ الإملائى المزعوم فيدل على جهل القائل به وغبائه الغليظ، إذ المقصود وصف صنف من المصلين يؤدون الصلاة أمام الناس لكنهم بينهم وبين أنفسهم ساهون عما يصنعون لأنهم لا يصلون من قلوبهم بل يؤدون الصلاة رياءً يخفون حقيقة حالهم بها، فهم يقومون ويركعون ويسجدون ويجلسون دون أن يعوا شيئا مما يفعلونه ودون أن يعتقدوا شيئا مما يرددونه. ومعروف أن المصلين أصناف: فمُصَلُّون مركِّزون، ومصلون غافلون، ومصلون عابثون، ومصلون منافقون، ومصلون يضيعون وقتهم، ومصلون غير طاهرين، ومصلون غير مسلمين أصلا... وهكذا. والمصلون المقصودون فى السورة هم الذين عن صلاتهم ساهون. فهم يصلون رياء ونفاقا، ولهذا قال عنهم القرآن عقب ذلك: "الذين هم يراؤون". ولأن صلاتهم ليست نابعة عن إيمان فتراهم يمنعون الماعون ولا يساعدون أحدا. أى أن الصلاة لم تؤثر فيهم، وبقيت قلوبهم جاسية لا تلين- إبراهيم عوض).

(النوع الثانى: الأخطاء اللغوية أو الإنشائية المقصودة لحاجة ترجمية أو موسيقية: وهى عيوب أكثر منها أخطاء. وبعض هذه الأخطاء فى الألفاظ أو فى ترتيب الكلمات داخل الجملة ناتجٌ على الأرجح عن تأثير النصوص غير العربية التى كانت مَصْدَرَ القرآن. ومن هذه الأخطاء تغييرُ التذكير والتأنيث للكلمة كاستخدام الكلمة المؤنَّثة بصيغة المذكَّر لإضفاء معنى إضافى عليها يؤدِّى معنى الكلمة الأصلية فى اللغات الأجنبية (الآرامية أو العِبرية أو غيرها) التى نُقِلَ منها القرآنُ بتصرُّف شديد. مثلا، استخدمَ القرآنُ ٢٤ مرةً بصيغة المذكَّر كلمةَ "عاقبة" المؤنثةَ (مثال: "فانْظُرْ كَيفَ كانَ عاقِبةُ المنْذَرِين" [الصافات، ٧٣])، وهذا خطأ. ويبدو أنه خطأ مقصود لحاجة ترجمية لأنه من المستبعَد أنْ يُخطِئَ سهوًا واضعو القرآنِ أو جامعوه أربعًا وعشرين مرةً فى تذكير كلمة مؤنثة. وأُرَجِّح أنَّ الكلمةَ العربية المؤنثة "عاقبة" هى ترجمة لكلمة عِبْرية مذكَّرة ربما هى

الكلمة العِبْرية المذكَّرة עקב[eqev] التى تعنى: عَقِب القَدَم، مآل، نتيجة، تتمَّة، جزاء. ويبدو أنَّ واضعى القرآنِ استخدموا كلمةَ "عاقبة" بصيغة المذكَّر لكى يضيفوا بُعدًا دلاليًا آخر غيرَ موجودٍ وقتَئذٍ فى الحقل الدلالى للكلمة العربية. ويُرَجَّح أنَّ كلمة "عاقبة" المؤنَّثة كانت فى وقت كتابة القرآن تعنى: الذُّرِّيَّة والولد. ["وكُلُّ من خَلَفَ بَعدَ شىء فهو عاقِبَةٌ" (تاج العروس)." والعاقِبةُ ولَدُ الرجلِ ووَلَدُ ولَدِه الباقونَ بعده" (لسان العرب)]. وبالتالى فقد كان استخدامُ هذه الكلمة العربية المؤنثة بصيغة المذكَّر فى القرآن (طِبقًا للكلمة العِبرية الأصل فى النص العِبرى المنقول عنه كالتوراة والتلمود وغيرهما) يهدف ربما إلى إعطاء معنى الجزاء والعِقاب.

نلاحظ مثلا فى هاتين الآيتين فى المزامير (לָמָּה אִירָא, בִּימֵי רָע--עֲוֺן עֲקֵבַי יְסוּבֵּנִי.) ["لماذا أخافُ فى أيَّامَ الشرِّ عندما يُحيطُ بى إثْمُ مُتَعَقِّبى"] (مزمور، ٤٩: ٥) و(ז יָגוּרוּ, יצפינו (יִצְפּוֹנוּ—הֵמָּה, עֲקֵבַי יִשְׁמֹרוּ: כַּאֲשֶׁר, קִוּוּ נַפְשִׁי.) ["يجتمعون يختفون يلاحظون خطواتى عندما ترصَّدوا نفسي."] (مزمور ٥٦: ٧) أنَّ الكلمة العِبرية (עֲקֵבַי) ("آثارى" أو "تعقُّباتى")، التى تشترك فى الجذر مع الكلمة العربية المؤنثة "عاقبة"، هى كلمة مذكَّرة فى صيغة الجمع مع لاحقة الملكية العائدة على المتكلِّم المفرد- محمد عبد الجليل).

(الواقع أنه يكفى فى نسف هذا الكلام العفن كلمة واحدة: أين يا ترى تلك الغاية الترجمية أو الموسيقية التى سولت للرسول أو للمسلمين من بعده استخدام الفعل: "كان" لـ"عاقبة" عوضا عن "كانت"؟ لا يوجد، لأن كلمة "كان" موجودة فى أول الجملة بكل الشواهد، وليست هى الفاصلة. ثم فلتكن فى العبرية ما تكون فما دخل ذلك بتذكير الفعل المستخدم معها فى العربية؟ وهل كان الرسول أو مساعدوه أو العابثون فى القرآن

يعرفون العبرية وقواعدها النحوية والصرفية؟ نحن لم نكد ننتهى من أمر السريانية حتى طلعت علينا العبرية أيضا! لكأنهم قد تخرجوا من جميع أقسام اللغات السامية بكلية الألسن. أليس هذا بالله عليكم هو التنطع بحَوْبَرِه وزَوْبَرِه؟ ثم إن النصوص القرآنية الكذا والعشرين التى وردت فيها كلمة "عاقبة" مذكَّرةً تنتمى كلها، خلا ثلاثة منها فقط (هى ١٣٧ آل عمران، و١٠ محمد، و٩ الطلاق، إلى الفترة المكية وليس فى المدينة حيث اصطبح الرسول والمسلمون هناك بوجه اليهود الحليسى أصحاب اللغة العبرية كى يقال مثلا إنهم قد استعاروها منهم أو راعَوْا أن يكلموهم بلغتهم ولو على سبيل التظاهر بمعرفة اللغات الأجنبية كما يصنع الشاعرون بالنقص من بيننا الآن حين يطعِّمون حديثهم دون أى داع ببعض الألفاظ الأجنبية التى لا يعرفون سواها بغية لفت النظر وإيهام المخاطَب بأنهم ذوو ثقافة واسعة ومعرفة بلغات المتحضرين. ومن ثم فكل ما قاله ذلك المتنطع ثقيل الظل هو هباء فى هباء.

كذلك فهذا الجاهل لا يعرف أن العربية تجيز تذكير الأفعال المسندة إلى المؤنث المجازى، أى المؤنث الذى ليس له فَرْج. ومن شواهد هذا فى القرآن: "ولا يُقْبَل منها شفاعةٌ" بدل "ولا تُقْبَل منها شفاعة"، "لئلا يكون للناس عليكم حُجَّة" بدل "لئلا تكون للناس عليكم حجة"، "قد كان لكم آيةٌ فى فئتين" بدل "قد كانت لكم آية"، "فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسُنا إلا أن قالوا: إنا كنا ظالمين"، "وقالوا: لولا نُزِّل عليه آيةٌ من ربه" بدل "نُزِّلَتْ عليه آية"، "وما كان صلاتُهم عند البيتِ إلا مُكَاءً وتَصْدِيَةً" بدل "وما كانت صلاتهم"، "لقد كان لسبإٍ فى مسكنهم آيةٌ" بدل "كانت لسبإ فى مسكنهم آية"، "تدارَكَه نعمةٌ من ربه" بدل "تداركته نعمةٌ من ربه"، "حَقَّ عليه كلمةُ العذاب" بدل "حقَّتْ عليه كلمةُ العذاب"، "حَقَّ عليهم الضلالةُ" بدل "حَقَّتْ عليهم الضلالةُ". بل إن العربية لتجيز تأنيث الفعل المسند إلى مؤنث حقيقى التأنيث متى فُصِل بينه وبين

ذلك المؤنث كقولنا مثلا: "تخصَّص فى الطب سميرةُ". ومع هذا كله فقد أُنِّثَ الفعل المسند إلى "عاقبة" فى قوله سبحانه: "فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ"، "ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبةُ الدار". وهناك توجيه آخر مقبول جدا، وهو أن "عاقبة" معناها أيضا "الولد والنسل"، فرُوعِيَ فى تذكيرها ذلك، إذ كل من الولد والنسل مذكر. وعلى هذا يكون معنى "فكان عاقبة أمرها خسرا" مثلا أنها نسلت نسلا خاسرا ضارا.

وثالثا كيف يتصور هذا المعتوه أن العبث بالقرآن يمكن أن يتم دون أن تشتعل الدنيا وتقوم المعارك وتؤلف الكتب وتُتَبَادَل التكفيرات؟ هذا رجل أحمق يظن أن ذلك الكلام الأخطل سوف يجوز على العقول. إن هذا الملعون يريد أن يوهمنا بأنه كان بين جامعى القرآن من يعرفون العبرية والسريانية وغيرهما معرفة واسعة عميقة بدقائقهما النحوية والصرفية والمعجمية، وأنهم كانوا يعقدون اجتماعات يتبادلون فيها الآراء ويطرحون الاقتراحات إلى أن يستقروا على "عبث معقول" فيأخذوا به ثم يذهبوا فيجمعوا المصاحف ويحرقوها ويوزعوا بدلا منها مصاحف ملعوبا فيها مع بعض الحلوى لإسكات المتحرجين المعارضين على أساس من قاعدة "أطعم الفم تستح العين". وأخيرا فكيف سكت أصحاب تلك اللغات فلم يفضحوا الملعوب المضحك، ويجعلوا من المسلمين وقرآنهم ضُحْكَة كل ضاحك، ويضربوا دين محمد فى مقتل؟ هل من المعقول أن يوجد ناس على هذه الشاكلة من الخطل والهطل؟ صحيح: من يَعِشْ يَشُفْ.

وبالمناسبة كنت صغيرا أخطِّئ من يقول: "البنات تلعبن" متصورا أن الصواب هو "يلعبن" فقط، لكن لما كبرت عرفت أن الصورتين جائزتان، وإن كانت الثانية هى الأشيع. كذلك قرأت أنه يمكنك أن تقول مثلا: "البنتان يأكلان"، وإن كانت صيغة

"تأكلان" هى الأصل. وهناك باب واسع لتذكير الفعل وتأنيثه من يطالعه، وبخاصة فى الكتب المبسوطة، يجد العجب. فالمفروض ألا يسارع الواحد منا إلى التخطئة اعتمادا على معلوماته القليلة أو اعتدادا بجهله الفادح الغليظ، بل عليه مراجعة الكتب الموسعة حتى لا يَضِلّ ويُضِلّ. ومنذ عشرين عاما تقريبا كنت أهاتف أحد الصحفيين الشبان، فعَرَّج الكلام إلى قول البعض: "جاء ترتيب الطالب الفلانى الواحد والعشرين على فرقته"، فأنكر الصحفى ذلك إنكارا شديدا قائلا: الصواب هو "جاء ترتيبه الحادى والعشرين". فقلت له إن "الواحد" هى الأصل، و"الحادى" منقلبة عنها. فأصر على كلامه، فأردت التحقق من الأمر ونظرت فى بعض كتب القواعد القديمة الموسعة فوجدت أن هذا صحيح، بل صحيح أيضا أن تقول: "جاء ترتيبه الواحد عشر"، وأن تقول أيضا: "عندى واحدَ عشرَ كتابا" بدلا من "أحد عشر كتابا". فعرفت أن علمنا قليل جدا بجانب ما نجهله.

إن كثيرا من الجهلة المتسرعين يحاكمون لغة القرآن إلى كتب القواعد التى يدرسها التلاميذ الآن فى المرحلة الإعدادية والثانوية، جاهلين أن هذه القواعد، وإن ناسبت عقول الصبيان المعاصرين، أضيق كثيرا وأخصر وأفقر وأبسط من كتب النحو فى العصور القديمة. صحيح أن من يجرى على قواعدنا الحالية يسلم، لكن ينبغى أن يعرف أن الميدان أوسع مما يظن، وأن النصوص القديمة لها وضع آخر. وكثيرا ما يقول عباس حسن فى كتابه: "النحو الوافى" إن الاستعمال الفلانى صواب، لكنه لا ينصح باستخدامه فى عصرنا، بل يذكره فقط للمساعدة فى فهم النصوص القديمة. ونقوله نحن أيضا لطلابنا قبل وبعد اطلاعنا على ما قاله النحوى الكبير- إبراهيم عوض).

(وهناك خطأ لحاجة موسيقية سجعية (من أجل الفاصلة القرآنية أو القافية) كحذف ياء المتكلِّم فى نهاية الآية (فى أحدَ عشرَ كلمةً، مثل: "فكيفَ كان نَكيرِ [الأصل: نكيري]" [الحج، ٤٤] و"لكم دِينُكم ولِى دِينِ [الأصل: ديني]" [الكافرون، ٦]) وكاستخدام الفعل الناقص "كان" فى بعض المواضع، مثل: "إنَّ اللهَ كان على كُلِّ شىء شهيدًا" (الأحزاب، ٥٥، والنساء، ٣٣). والخطأ هو استخدام الفعل "كان" فهو زائد لا يضيف على المعنى شيئًا بدليل أنَّ القرآن استخدمَ الجملةَ نفسَها وبالمعنى نفسِه مِن دُونِ الفعل "كان"، وذلك فى سورة الحج: "إنَّ اللهَ على كُلِّ شىء شهِيد" (الحج، ١٧). وهذا الخطأ يبدو مقصودًا للحصول على كلمة منصوبة تتماشى مع نهايات الآيات (الفواصل) فى السورة. فهو خطأ دلالى للحصول على تأثير موسيقى. ونظرًا لكون القرآن كتابًا ترتيليًّا تجويديًّا تعبُّديًّا ليتورجيًّا فإنه من الطبيعى أنْ يُعْطِى أهميةً كبيرة للفاصلة، أى للكلمة التى تقع فى نهاية الآية (السجع). فالفواصلُ فى القرآن هى بمنزلة القوافى فى الشعر. فالقرآنُ كلام مسجوع (كلام منثور مُقَفًّى له فواصِلُ)- محمد عبد الجليل).

(المشكلة بل الطامة أن هذا الجاهل الحقود يتصدى لما لا يحسن. هذا الجاهل الحقود لا يعرف ولا يفهم أن فى اللغة إمكانات كثيرة، وإنْ جَهِلها هو، فجهله لها إذن لا يقدم ولا يؤخر، لكنه يدينه ويجعل منه هُزْءَة لكل هازئ. وقد بحثت هذا الموضوع الذى يتصدى له هذا الجاهل الحقود فى كتابى: "السجع فى القرآن"، الذى ترجمتُ فيه عن الإنجليزية بحث ديفين ستيوارت المعنون بهذا العنوان، وأعقبت الترجمة ببحث طويل ناقشت فيه آراء المؤلف وفندت بعض أوهامه. ومن بين ما رددت عليه وَخْزَته السخيفة فى قوله: ألم يكن الله قادرا على الجمع بين السجع واحترام القاعدة؟ ذلك أنه كان يظن، كما يظن كاتبنا الحالى، وإن لم يكن بهذه الحماقة التى يتمتع بها كاتبنا، أن السجع القرآنى يكون فى بعض الأحيان على حساب القاعدة النحوية والصرفية فلا يتحقق إلا

بكسر هذه القاعدة. وبينت بالشواهد المتعددة أن الفاصلة القرآنية لا تخرج على القاعدة إلا فى نظر السطحيين غير الملمين بالعربية إلماما جيدا.

إن جاهلنا الحقود لا يعرف أن حذف هذه الياء قد وقع فى عدد من الآيات فى درج الكلام لا فى نهايته، ومن ثم لا يمكن الزعم بأن السجعة قد أجبرت الآية على هذا الحذف. إنه استعمال عربى صميم وسليم مائة فى المائة، فمن العرب من كان يحذف ياء الاسم المنقوص حتى بعد تعريفه بـ"أل"، ويحذف ياء المتكلم مع الاكتفاء بالكسرة التى قبلها. وهو ما نجده فى كثير من آيات القرآن العظيم: "فإنى قريبٌ أجيبُ دعوة الداعِ إذا دعانِ"، "يا قومِ، لقد أبلغتكم رسالة ربى"،، "لإِنْ أَخَّرْتَنِ إلى يوم القيامة لأَحْتَنِكَنَّ ذريته إلا قليلا"، "وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ"، "وقل: عسى أن يَهْدِيَنِ ربى لأَقْرَبَ من هذا رَشَدًا"، "إنْ تَرَنِ أنا أقلَّ منك مالا وولدًا * فعسى ربى أن يُؤْتِيَنِ خيرا من جنتك"، "قال: ذلك ما كنا نَبْغِ. فارتدّا على آثارهما قَصَصًا"، "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِى جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ"، "قال: ربِّ، إن هؤلاء قومٌ مجرمون"، "يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ"، "ومن آياته الجَوَارِ فى البحر كالأعلام"، "يَا عِبَادِ، فَاتَّقُونِ"، "يا عبادِ، لا خوفٌ عليكم اليوم"، "واسْتَمِعْ يوم ينادى المنَادِ من مكانٍ قريبٍ"، "يومَ يدعو الداعِ إلى شىءٍ نُكُرٍ"، "مُهْطِعِين إلى الداعِ يقول الكافرون: هذا يومٌ عَسِرٌ".

بل إن هناك من يقف على آخر المنقوص النكرة المرفوع أو المخفوض بإثبات يائه، فيقول مثلا: "جاء قاضى، ومررت بقاضى..."، وهكذا. ليس ذلك فحسب، إذ هناك

شواهد شعرية متعددة على إثبات الضمة والكسرة على ياء الاسم المنقوص والفعل الناقص كما فى الأمثلة التالية:

وَيَوْمًا يُوافِينَ الهوَى غَيرَ ماضِيٍ * ويَوْمًا تَرَى منهنَّ غُولا تَغَوَّلُ

* * *

كَذَبْتُمْ وَبيتِ اللهِ نُبْزَى محمَّدًا * وَلَمْ تُخْتَضَبْ سُمْرُ العَوالِيِ بالدَّمِ

* * *

ما إنْ رأيتُ ولا أرى فى مُدَّتى *كَجَوارِيٍ يَلْعَبْنَ بالصَّحْرَاءِ

* * *

فَلَوْ كنتَ حُرًّا ذَا وَفاءٍ جَعَلْتَنا * لعينيكَ من دُون الغَوَانِيِ مَقْنَعا

* * *

لا باركَ اللهُ فى الغوانِيِ هَلْ * يُصْبِحْنَ إلاَّ لهنَّ مُطَّلَبُ

* * *

لعَمْرُكَ ما تَدْرِي متى أنتَ جائِيٌ * ولكنَّ أقصى مُدَّةِ العُمْرِ عاجِلُ

* * *

تَرَاهُ، وقد فاتَ الرُّماةَ، كأنَّهُ، * أمامَ الكلابِ، مُصْغِيُ الخَدِّ أَصْلَمُ

* * *

وكأنَّ بُلْقَ الخيلِ فى حافَاتِهِ * تُرْمَى بهنَّ دَوَالِىُ الزُّرَّاعِ

* * *

وعِرْقُ الفَرَزْدَقِ شَرُّ العُرُوقِ * خبيثُ الثَّرَى كابِىُ الأَزْنُدِ

* * *

إذا قُلْتُ عَلَّ القَلْبَ يَسْلُوُ قُيِّضَتْ

* * *

تُسَاوِىُ عِندى غيرَ خمسِ دَّراهِمِ

وقد كان هذا كله وغيره حريا أن يكفّ من غَرْب الكاتب الجهول المتغطرس بحمق وضلال. لكن متى كان الجاهل يفهم ويعقل ويراعى حدوده ويلتزم الأدب والذوق؟ إنه لو صنع ذلك ما كان جاهلا. فما بالنا لو كان جاهلا جهولا مجهالا جَهِلا جَهِيلا جُهَلَة؟- إبراهيم عوض)

(نلاحظ أنَّ الفاصلة الغالبة فى سورة "الأحزاب" هى كلمة منصوبة، بينما الفاصلة الغالبة فى سورة "الحج" هى كلمة مرفوعة أو مجرورة. وبالتالى نستنتج من ذلك أنَّ القرآن استخدمَ "كان" فى تلك الآية من سورة الأحزاب ("إنَّ اللهَ كان على كُلِّ شىء شهيدًا") فقط للحصول على كلمة منصوبة ("شهيدًا") ليتوافقَ سجعُ الآية مع سجع باقى الآيات فى السورة، بينما لم يكنْ بحاجة إلى قافية منصوبة فى سورة "الحج" فلم يستخدم الفعل "كان" فى الجملة نفسها: ("إنَّ اللهَ على كُلِّ شىء شهِيد").

وهناك أمثلة أخرى كثيرة تؤكِّد على أنَّ الهدف من استخدام القرآن للفعل "كان" فى كثير من الجُمَل ذات القافية المنصوبة هو الحصول على الفاصلة المناسبة للآية، مقابل استخدامه للجُمَل نفسِها مِن دون الفعل "كان" فى سُوَر أخرى قافيتُها مرفوعة أو مجرورة. ومن هذه الأمثلة:

١- "إنَّ اللهَ كان علِيًّا كبيرًا" (النساء، ٣٤)؛ مقابل: "وأنَّ اللهَ هو العَلِى الكبير" (الحج، ٦٢).

٢- "فإنَّ اللهَ كان غفورًا رحيمًا" (النساء، ١٢٩)، "إنَّ اللهَ كان غفورًا رحيمًا" (الأحزاب، ٢٤)؛ مقابل: "إنَّ اللهَ غفورٌ رحيم" (المائدة، ٣٩، والأنفال، ٦٩).

٣- "وكان اللهُ غفورًا رحيمًا" (الأحزاب، ٥ و٥٠ و٥٩ و٧٣)؛ مقابل: "واللهُ غفورٌ رحيم" (المائدة، ٧٤، والتوبة، ٢٧).

٤- "وكان اللهُ غنيًّا حميدًا" (النساء، ١٣١)؛ مقابل: "فإنَّ اللهَ غنى حميد" (لقمان، ١٢).

٥- "وكان اللهُ على كلِّ شىء قديرًا" (الأحزاب، ٢٧، والفتح، ٢١) مقابل: "إنَّ اللهَ على كُلِّ شىءٍ قدير" (البقرة، ٢٠ و ١٠٩ و١٤٨، وآل عمران، ١٦٥، وفاطر، ١، والعنكبوت، ٢٠، والنحل، ٧٧، والنور، ٤٥).

٦- "وكان اللهُ سميعًا بصيرًا" (النساء، ١٣٤) مقابل: "إنَّ اللهَ سميعٌ بصير" (الحج، ٧٥، ولقمان ٢٨، والمجادلة، ١).

٧- "وكان ذلك على الله يسيرًا" (النساء، ١٦٩) مقابل: "إنَّ ذلك على الله يسير" (الحج، ٧٠).

٨- "إنَّ اللهَ كان عليمًا حكيمًا" (الأحزاب، ١)؛ مقابل: "إنَّ اللهَ عليمٌ حكيم" (التوبة، ٢٩).

٩- "إنَّ اللهَ كان بما تَعْمَلون خبيرًا" (الأحزاب، ٢) مقابل: "واللهُ بما تَعْمَلون خبير" (آل عمران، ١٨٠)، "وأنَّ اللهَ بما تَعْمَلون خبير" (لقمان، ٢٩).

١٠- "وكان اللهُ قويًّا عزيزًا" (الأحزاب، ٢٥) مقابل "إنَّ اللهَ قوى عزيز" (المجادلة، ٢١، والحديد ٢٥)، "إنَّ اللهَ لَقوى عزيز" (الحج، ٧٤).

١١- "إنَّ اللهَ كان لطيفًا خبيرًا" (الأحزاب، ٣٤) مقابل: "إنَّ اللهَ لطيفٌ خبير" (الحج، ٦٣، ولقمان ١٦).

١٢- "وكان اللهُ بكُلِّ شىء عليمًا" (الأحزاب، ٤٠، والفتح، ٢٦)، "فإنَّ اللهَ كان بكُلِّ شىء عليمًا" (الأحزاب، ٥٩) مقابل: "إنَّ اللهَ بكُلِّ شىء عليم" (العنكبوت، ٦٢، والتوبة، ١١٥، والأنفال، ٧٥، والمجادلة، ٧)، "واللهُ بكُلِّ شىء عليم" (الحُجُرات، ١٦، والتغابن، ١١، والنور، ٣٥).

ولكنَّ النحويين اخترعوا معنى جديدًا للفعل "كان"، وهو معنى "الأزل والأبد"، لتبرير استخدام القرآن لهذا الفعل. ولكن لو أرادَ حقا مؤلِّفو القرآنِ تسليطَ الضوء على معنى "الأزل والأبد" لاستخدموا الجملةَ من دُونِ الفعل "كان" أو مع الحرف المشبَّه بالفعل "إنَّ" أو مع أية كلمة تُعَبِّر عن الديمومة. كما أنَّ الشواهدَ الشعرية التبريرية التى قدَّمَها بعضُ النُّحاة للفعل "كان" لا تفيد معنى "الأزل والأبد" إذا ما دقَّقنا فيها جيدًا، بل تفيد معنى الحال أو ربما العادة الماضية. ومن هذه الشواهد قولُ المتَلَمِّس:

وكُنَّا إذا الجَبَّارُ صَعَّرَ خَدَّه * أقَمْنا له مِن ميلِه فتَقَوَّما

وقولُ قيس بن الخطيم:

وكُنتُ امرءًا لا أسمع الدهرَ سَبَّةً * أُسَبُّ بها إلا كشفتُ غطاءها

وقولُ أبى جندب الهذلى:

وكنتُ إذا جارى دعا لمضوفةٍ * أُشَمِّرُ حتى يُنْصِفَ الساق مِئْزَرى

– محمد عبد الجليل).

(فات هذا الجهول أن لكل من الاستعمالين مغزاه: فاستعمال "إنّ" للتأكيد، واستعمال "كان" للإشارة إلى الأزلية والديمومة. وقد يجمع القرآن الكريم بين الاستعمالين كما فى الشواهد التالية التى أوردها الجاهل، لكن لأنه جاهل لم يلتفت إليها: "إنَّ اللهَ كان عليمًا حكيمًا"، "إنَّ اللهَ كان بما تَعْمَلون خبيرًا"، "إنَّ اللهَ كان لطيفًا خبيرًا". وفى القرآن مثلها كثير جدا: "إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا، إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا، إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا، إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا، إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىء عَلِيمًا، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَىء شَهِيدًا، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَىء حَسِيبًا، فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا، إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا، إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا...". ولو كان الأمر كما يقول جاهلنا لاستخدم القرآن كل تركيب من التركيبين وحده فى موضعه ولما جمع بينهما أبدا.

كذلك يجهل هذا الأحمق أن القرآن الكريم دائما ما ينوّع الفواصل ولا يلتزم فاصلة واحدة طوال أية سورة اللهم إلا فى بعض السور القصيرة كـ"العصر والكوثر والإخلاص والناس والقمر". ولنأخذ مثلا سورة "القارعة"، التى رغم صغرها تحتوى على عدة

فواصل: "الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (٥) فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ (١١)". فما بالنا بطوال السور؟ أريد أن أقول إن القرآن لم يكن مضطرا إلى مراعاة الفاصلة، ومن ثم لم يكن مجبرا على استخدام "هذا" الاستعمال فى السورة ذات الفاصلة المطلقة الألف، و"ذاك" فى السورة التى ليست كذلك.

والآن إلى مثال قرآنى تطبيقى على ورود جملة "إن الله..." منتهية بفاصلة مختلفة عن الفواصل التى حولها، وذلك فى قوله تعالى من أوائل سورة "البقرة": "أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦) مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ (١٨) أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىْء قَدِيرٌ (٢٠) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)". وإذن لقد كان هناك مندوحة فى استعمال تركيب "إن الله..." بدلا من "وكان الله..." لو كان هذا التركيب الأخير خاطئا فى العربية كما يزعم صاحبنا. لكنه جاهل لا يفقه الموضوع الذى زج بنفسه فيه على غير بصيرة ولا ذوق، بل اندفع ينفذ ما أمروه به أمرا حتى تحظى بضاعته عندهم بالنَّفَاق.

أما دعوى الجهول بأن الشواهد التالية:

وكُنَّا إذا الجَبَّارُ صَعَّرَ خَدَّه * أقَمْنا له مِنْ مَيْلِه فتَقَوَّما

وقول قيس بن الخطيم:

وكُنتُ امرءًا لا أسمع الدهرَ سَبَّةً * أُسَبُّ بها إلا كشفتُ غطاءها

وقول أبى جندب الهذلى:

وكنتُ إذا جارِى دعا لمضوفةٍ * أُشَمِّرُ حتى يُنْصِفَ الساقَ مِئزري

لا تفيد أزلية فقد غاب عنه، لأنه جاهل، أنها بالنسبة للبشر لن تفيد أزلية لأن البشر مخلوقون، فلا علاقة لهم بالأزل، لكنها بالنسبة إلى الله تفيد ذلك. والمهم أنها تفيد الاستدامة والاتصال ولا تعرف الانقطاع رغم أن لها بداية ونهاية بالنسبة للبشر، أما الاستدامة والاتصال بغير بداية ولا انتهاء فمعناها الأزلية الأبدية. ومعلوم أن الصفات المشتركة بين الله وعباده تدل فى حالة كل من الطرفين على ما يناسبه ويليق به: ففلان رحيم، والله رحيم، لكن شتان بين رحمة العبد ورحمة الرب. وفلان كريم، والله كريم، ولكن هل الكرم المطلق الشامل العميم مثل الكرم الموهوب المحدود الناقص؟ وهناك كذلك علم الله وعلم البشر، لكن أهذا مثل ذاك؟ هل علم البشر القليل النسبى الذى كان بعد أن لم يكن، وتراكم شيئا فشيئا، ويظل دائما ناقصا، كعلم الله الذى لا يند عنه شىء فى الأرض ولا فى السماء، والذى هو هكذا منذ الأزل إلى الأبد؟

وعلى هذا الأساس ينبغى أن ننظر فى الأمثلة التالية التى يستخدم فيها الماضى فى موضع الحاضر المستمر، وكلها من الشعر الجاهلى تجنبا لتنطع صاحبنا الجهول، الذى أتصور أنه

سوف يقول عن شواهد ما بعد الإسلام لو كنا قد استعنا بها إن أصحابها إنما أرادوا تعضيد كلام النحاة عن "كان" حين تنسب إلى الله. قال الأسعر الجعفى:

وَسِرُّكَ ما كانَ فى واحِدٍ وَسِرُّ الثَلاثَةِ غَيْرُ الخَفي

وقال البَرّاق:

أَأَنْزِلُ بَينَهُم إِن كانَ يُسْرٌ * وَأَرْحَلُ إِنْ أَلَمَّ بِهِم عَسيرُ؟

وقال الحارث المِذْحِجِيّ:

بَنِيَّ، اهْتَدُوا فيما اهْتَدَيتُ سَبيلَهُ فَأَكْرَمُ هذا الناس مَنْ كانَ هادِيا

وقال المتلمس الضبعى:

وَمَن كانَ ذا عِرْضٍ كَريمٍ فَلَمْ يَصُنْ * لَهُ حَسَبًا كانَ اللئيمَ المذَمَّما

وقال ذو الإصبع العداونى:

وَلِى ابنُ عَمٍّ عَلَى ما كانَ من خُلُقٍ * مُخْتَلِفانِ، فَأَقْلِيهِ وَيَقْلِيني

وقال زهير:

إِنَّ البَخِيلَ مَلُومٌ حَيثُ كانَ، وَلَـــــكِنَّ الجَوَادَ عَلَى عِلاتِهِ هَرِمُ

وقال عدىّ بن زيد:

وفى الخَلْقِ إذلالٌ لِمَنْ كانَ باخِلا * ضَنِينًا. وَمَن يَبْخَلْ يَذِلَّ وَيُزْهَدِ

وقال عروة بن الورد:

فَيَلحَقُ بِالخَيْراتِ مَنْ كانَ أَهلَها * وَتَعْلَمُ عَبسٌ رأس مَنْ يَتَصَوَّب

وقال عمرو بن قميئة:

يا راكِبًا، بَلِّغ ذَوِى حِلْفِنا * مَنْ كانَ من كِنْدَةَ أو وائِلِ

وقال عمرو بن كلثوم:

نَؤُمُّ بِها بِلادَ بَنِى أَبِينا * عَلَى ما كانَ مِن نَسَبٍ وَصِهْرِ

وقال أمية بن أبى الصلت:

أَلا كُلّ شَىء هالِكٌ غَيْرَ رَبِّنا * وَلِلَّهِ مِيراثُ الذى كان فانِيا

وأخيرا لقد كان بإمكان القرآن أن يستعمل "إنّ" فى سياق الآيات ذات الفواصل المنتهية بألف فيقول: "إن الله غفورا رحيما"، "إن الله سميعا عليما"، "إن الله عزيزا حكيما"... وبهذا يتجنب استخدام "كان"، ويسلم من لسان جاهلنا. ذلك أنه كان من العرب آنئذ من ينصبون اسم "إن وأخواتها" وخبرها جميعا. وهذا لو كان اعتراض أحمقنا على"كان" وزعمه دون أهل العلم جميعا أنها لا تكون للأزلية صحيحا.

ومن الشواهد على مجىء اسم "إن" وخبرها منصوبين الحديث الشريف الذى يقول: "إن قعر جهنم سبعين خريفا"، وقول عبد الله بن مسلم بن جندب:

كأنه شاقَهُ أنْ قيل: ذا رجبٌ * يا ليت عِدَّةَ حولٍ كله رَجَبَا

وقول العجاج:

يا ليت أيام الصبا رواجعا

وقول عمر بن أبى ربيعة:

إذا اسودَّ جنْح الليل فَلْتَأْتِ، ولتكن * خُطَاك خِفَافًا. إنّ أصحابَنا أُسْدَا

وقول بشار:

حتام تُجْشِمنى الصبا وتشقّنى؟ * بل ليت غيرَك يا فؤاد فؤادَا

وقول ابن المعتزّ:

مَرَّتْ بنا سَحَرًا طيرٌ، فقلت لها: * طُوبَاكِ، يا ليتنى إياك، طوباكِ

ثم الشواهد التالية، وهى من "همع الهوامع" للسيوطى:

إنَّ العجوز خِبّةً جَرُوزَا

* * *

كأنَّ أُذْنَيْه إذا تشَوَّفا

قادمةً

أوْ قَلَمًا مُحرَّفَا

* * *

ألا يا لَيْتني حجرًا بوَادٍ

* * *

وسُمِع: "لعل زيدا أخانا"

وفى باب "اللام مع الياء" فى "المستقصى من أمثال العرب" للزمخشرى "ليت القِسِيَّ كلها أرجلا". كما تكرر فى "الرسالة" للشافعى هذا الاستعمال عدة مرات.

وقد تحدث عن هذه النقطة على سبيل المثال ابن سلام فى مقدمة كتابه: "طبقات الشعراء"، إذ قال إنها لغة لقوم العجاج الراجز المشهور، مضيفا: "سمعت أبا عون الحرمازى يقول: "ليت أباك منطلقا، وليت زيدا قاعدا". وأخبرنى أبو يعلى أن منشأها بلاد العجاج، فأخذها عنهم". وذكرها أيضا ابن هشام فى "مغنى اللبيب" فى الباب الذى خصصه لـ"إنّ"، والشيخ شاكر عند تعليقه على هذا الاستعمال لدى الشافعى فى "الرسالة"، وعباس حسن فى "النحو الوافى" فى باب "إن وأخواتها". وفى "الجَنَىَ الدانى فى حروف المعانى" لابن أم قاسم لدن الكلام عن "إنّ": "وأجاز بعض الكوفيين نصب الاسم والخبر معا بـ"إنّ وأخواتها"، وأجازه الفراء فى "ليت" خاصة. ونقل ابن أصبغ عنه أنه أجازه فى "لعل" أيضا. قال ابن عصفور: وممن ذهب إلى جواز ذلك فى "إن" وأخواتها" ابن سلام فى طبقات الشعراء، وزَعَمَ أنها لغة رؤبة وقومه. وقال ابن السيد: نصب خبر "إن" وأخواتها لغة قوم من العرب. وإلى ذلك ذهب ابن الطراوة"– إبراهيم عوض).

(النوع الثالث: الأخطاء الإنشائية المتعلِّقة بترتيب الكلمات داخل الآيات أو بترتيب الآيات داخل السور (البلبلة والاضطراب والاختلال فى ترتيب الآيات): وهذه الأخطاء منها ما هو مقصود لإضاعة الخيط الموجِّه للمعنى الكلى للنص بحيث لا يتمكَّن من إدراكه العوامُّ فتوجِّهُهم السلطةُ الزمنية بحسب مصالحها. ومنها ما هو غيرُ مقصودٍ مردُّه إلى السهو أو إلى جهل جامعى القرآن بمصادر القرآن وسياقه وباللغات السامية السائدة

وقتَ ظهورِ القرآن. فلو أَعطَينا شخصًا مُـنَضِّدًا لا يعرِف الفرنسيةَ ولا الفلسفةَ مَقاطِعَ أو فقراتٍ أو جُمَلا متفرِّقةً مترجمةً (من الفرنسية إلى العربية) ومخطوطةً بخط اليد مأخوذةً من عدة كتب للفيلسوفة الفرنسية سيمون فايل Simone Weil فمن الطبيعى أنْ يحتوى النصُّ الرقميُّ المنضَّدُ على أخطاء تنضيدية ليست بالقليلة. فكيف سيكون حجمُ الأخطاءِ إذا كان النصُّ المخطوطُ لا يحتوى على تنقيط، وإذا كان قد جُمِعَ بعد سنوات من تأليفه وطُبِعَ بعد مئات السنوات، وإذا لم يكنْ فى حوزتنا أى مخطوط أصلى للنص؟ وهو ما ينطبق على القرآن– محمد عبد الجليل).

(المتنطع يتحدث عن القرآن على أساس أن النبى محمدا كانت عنده مكتبة فيها معاجم لغات العالم، وبخاصة لغات المنطقة التى تحيط ببلاد العرب، وكُتُب قواعدها ونصوصها وأهم مصادرها ومراجعها، وكان يقضى سحابة يومه وليله فيها يقلب الكتب ويتتبع النصوص التى يمكن أن تنفعه فى تلفيق الإسلام وتأليف القرآن، وكان حوله طائفة من المساعدين ينسخون له ما يعينه لهم ويبيضون مسوداته ويراجعون ما يقع فيه من سهو وخطإ. ثم إن الصحابة الكرام ما إن انتقل عليه السلام إلى الرفيق الأعلى حتى تركوا ما فى أيديهم وفرَّغوا أنفسهم لمزيد من التلفيق فى القرآن، فكانوا إذا وجدوا شيئا مفهوما أعادوا صياغته وأشاعوا الاضطراب فيه حتى لا يخرج منه المسلمون العاديون بشىء نافع. وهو ما يعنى أن القرآن كان كتابا نافعا، أى أن محمدا قد جاء بدين طيب، لكن منهم لله الصحابة، فهم الذين أفسدوا كل شىء. وتتساءل: من أين لهذا الأفاق كل تلك الحكايات؟ فلا تجد جوابا لأنها كلها من بنيات عقله المختل. وهل على المجنون حرج أو تبعة؟ إن كل مَنْ كتب من النصارى المعاصرين لبدايات الإسلام عن النبى والدين الذى أتى به لم يقولوا شيئا من هذا، أما محمد على عبد الجليل ففاجر تركبه السمادير الشيطانية فيريد أن يقنعنا بأنها هى حق اليقين، دون أن يطرف له جفن أو يرتبك له

ضمير. ذلك لأنه فاجر كما قلت. وهل الفاجر لديه ضمير أو إحساس؟ لو كان لديه هذا أو ذاك ما كان فاجرا. إن ذلك المتنطع يحسب أن كل الناس مثله، وأنه لا أحد شريف فى هذه الدنيا، وأن النبى الكريم العظيم وأصحابه يشبهونه هو ومن على شاكلته ممن تجندهم مؤسسات التخابر فى الدول الأجنبية التى تعادى الإسلام والمسلمين ليقوموا لها بوظيفة الكبش الذى يكسر بيبان القلاع المطلوب اقتحامها.

وتعالوا ننظر فى المثال الذى أورده للتشكيك فى القرآن والادعاء بأن نصه قد خضع لإفساد كبير. قال خيبه الله: "لو أَعطَينا شخصًا مُنَضِّدًا لا يعرِف الفرنسيةَ ولا الفلسفةَ مَقاطِعَ أو فقراتٍ أو جُمَلا متفرِّقةً مترجمةً (من الفرنسية إلى العربية) ومخطوطةً بخط اليد مأخوذةً من عدة كتب للفيلسوفة الفرنسية سيمون فايل Simone Weil فمن الطبيعى أنْ يحتوى النصُّ الرقمى المنضَّدُ على أخطاء تنضيدية ليست بالقليلة. فكيف سيكون حجمُ الأخطاءِ إذا كان النصُّ المخطوطُ لا يحتوى على تنقيط، وإذا كان قد جُمِعَ بعد سنوات من تأليفه وطُبِعَ بعد مئات السنوات، وإذا لم يكنْ فى حوزتنا أى مخطوط أصلى للنص؟ وهو ما ينطبق على القرآن".

فهو هنا يتخيل بمخيلته المريضة أن القرآن مترجم عن اللغات الأجنبية، وأن مَنْ نسخوه وراجعوه يشبهون رجلا يكتب على الكاتوب كتابا لا يعرف فيه شيئا لا عن موضوعه ولا عن لغته ولا حتى عن حروف تلك اللغة. فهل من راجعوا القرآن كانوا كذلك؟ وهل كان القرآن مترجما كله أو بعضه عن لغة أجنبية غير معروفة عند العرب لا فى مكة ولا فى خارج مكة؟ ترى لو كان الأمر كذلك فكيف انفرد محمد وحده بمعرفة تلك اللغة التى ترجم منها الألفاظ والعبارات المشار إليها؟ إن المستشرقين عادة ما يصفون النبى عليه السلام، على سبيل الاتهام لا المدح، بالدهاء وعمق فهم الحياة وبالمقدرة على التخطيط

المذهل. ومثل هذا الشخص لا يمكن أن يرتكب تلك الغلطة البلقاء الحمقاء. نعم لم يا ترى يترجم محمد كلاما من لغة أجنبية ويضمنها قرآنه، وهو لا يعرفها؟ فإذا كان هو لا يعرف لغة أجنبية، وكان أتباعه كما يصورهم هذا النص لا يعرفون تلك اللغة ولا الأفكار التى استمدها محمد زعمًا من كتب تلك اللغة، فلم قام فى ذهنه أن يجترح هذا العمل العبثى؟ وأين تلك الألفاظ التى مثلت مشكلة لجامعى القرآن؟

ولقد فات هذا الأحمق الكذاب الذى يزايد على اتهام الرسول والقرآن بكل تهمة سخيفة لا منطقية حتى يظل رائجا عند أسياده الذين فتحوا بلادهم وخزائنهم له ولأمثاله، لقد فاته أن القرآن لم يكن مكتوبا بلغة يجهلها جامعوه، بل كان مكتوبا بالعربية من أوله لآخره. ثم إنهم لم يكونوا يراجعون نصا مجهولا لديهم، بل نصا يقرأونه صباح مساء ويعرفونه كما يعرفون ظهور أكفهم حسب التعبير الإنجليزى، أو كما يعرفون أبناءهم كما جاء فى القرآن المجيد: يقرأونه فى الصلوات، ويقرأونه تعبدا لربهم من صدورهم مباشرة أو مستعينين مع ذاكرتهم بالمصاحف التى كانت تحت أيدى الكتبة منهم، ويقرأونه لكيلا يتفلت من ذاكرتهم بعد أن حفظوه قربى إلى الله سبحانه وتبركا به وسعيا وراء الاطمئنان الروحى. ثم هل كان القرآن بالنسبة للمسلمين فى ذلك الحين، وهو الذى يعالج قضاياهم الحية وينزل أمامهم من السماء على رسولهم جوابا على أسئلتهم أو حلا لمشاكلهم أو حكما فى الوقائع التى شهدوها وكانوا جزءا من مشهدها، هل كان القرآن يشبه كتب الفيلسوفة الفرنسية سيمون فايل بالنسبة للرجل الأجنبى عن الفرنسية والفلسفة جميعا، تلك الكاتبة التى أظن أن الرجل قد أورد اسمها هنا على سبيل التفاخر بأنه "فلفوس" كبير يقرأ كتب الفلسفة ويفهمها، وأنه بعدما انتهى من قراءة ديكارت وفولتير وروسو وأضرابهم من الفلاسفة الكبار تحول إلى فايل ومن يشبهها من فلاسفة وفيلسوفات آخر زمن؟

فانظر إلى ما قاله ذلك الأفاك وما نقوله نحن أيها القارئ الكريم، وهو الصدق الذى نعرفه من أخبار التاريخ ومن واقعنا الآن أيضا إذ نحن نحفظ القرآن فى صغرنا على أيدى فقيه الكتاب عن ظهر قلب، ونظل نتلوه حتى لا ننساه: نتلوه سردا من الذاكرة أو مطالعة فى المصحف. ورغم أن الشيخ الذى نحفظ القرآن على يديه يكون فى كثير من الأحيان أعمى أو أميا فإن عملية التحفيظ تتم بكل دقة وحساسية بحيث لا ينطق الحافظ أو يحفظ حرفا واحدا على غير ما ينبغى. ولقد بلغ اهتمام المسلمين بالقرآن حتى فى عصرنا هذا الذى نحتل فيه قاع التخلف الحضارى والثقافى مع المتخلفين من أمثالنا أن كثيرا جدا من المسلمين غير العرب فى أفريقيا وآسيا يحفظون القرآن حفظا عجيبا لا يخرمون منه حرفا، بل ويجوّده بعضهم ويتغنى فى ترتيله ككبار القراء فى البلاد العربية، رغم أنهم لا يفهمون منه شيئا. فإذا كان هذا الإعجاز يحدث أمام أعيننا وعلى مسمع منا فما بالنا بالصحابة فى عصر الرسول وعقب موته حين كان الإسلام فى عنفوان حيويته، والتحمس له قد بلغ الغاية التى لا غاية بعدها لمستزيد؟ إن هؤلاء الصحابة قد فتحوا العالم رغم إمكاناتهم الصفرية وكسروا ظهر القوى العالمية الكبرى التى كانت تسيطر على المنطقة آنذاك، وتمثِّل الحضارةَ فى أقوى مظاهرها، فهل يصح أن نظن مع هذا المتنطع ثقيل الظل أنهم يعجزون عن القيام بتلك المهمة الصغيرة؟

ثم هل كان المسلمون يا ترى يعيشون فى قمقم بعيدين عن سمع العالم وبصره وأنفه حتى إنهم ليصنعون كل تلك المصائب فى كتابهم دون أن يعرف بذلك الآخرون المتربصون بهم داخليا وخارجيا من يهود ومجوس ونصارى ومنافقين وشعوبيين وملاحدة وزنادقة والذين بلغ بهم الحقد ضدهم أن يفتروا عليهم الكذب فى كل شىء وألفوا الكتب فى ذلك؟ وهل كان ذلك الصنيع ليتم بهذه البساطة دون أن تشتعل الخصومات وتنشب المعارك بين المسلمين؟ أترون الآن مدى سخف هذ الرجل ووقاحته التى تسول له تخيل أبأس

الأحداث وأسمجها وأبعدها عن المنطق والتاريخ وقوانين المجتمعات، ثم يزيد فيريد منا أن نخر على هذا الذى يقول عميا وبكما وصما؟- إبراهيم عوض).

(مثال على تلك الأخطاء الإنشائية المتعلِّقة بفوضى الترتيب هو الآيات المتفرقة التى تشير إلى مفهوم التقمص (العَوْد للتجسد réincarnation) بحيث أنَّ تَناثُرَها وتَبَعْثُرَها فى القرآن يُضيعُ القارئَ ويُفْقِدُه الخيطَ المنطقى الذى يربط الجُمَلَ ببعضها فينصرِفُ عن التفكير فى إعادة تركيب قِطَعِ البَزْل puzzle القرآنية إلى الترتيل والتجويد والترديد الببغائى للنص. وهذه الوظيفةُ الترتيليةُ التعبُّديةُ الليتورجيةُ هى أهمُّ وظائف القرآن ("ورَتِّلِ القُرآنَ تَرتيلا" [المزَّمِّل، ٤]- محمد عبد الجليل).

(واضح أن الكاتب كان قد ثقّل العيار أزيد من اللازم وهو يحتسى أم الخبائث، فلم يكن يدرى ماذا يقول. ولننظر إلى فجوره فى الزعم بأن القرآن، بعد العبث المتعمد الذى خضع له (ممن؟ ومتى؟ وأين؟ وفى أية ظروف؟ لا أدرى)، أضحى غير قابل للفهم والتدبر، ولم يعد يصلح إلا للقراءة الببغائية التى لا يريد منها صاحبها شيئا غير مجرد القراءة. طيب، إذا كان الأمر كذلك فكيف شذذت أنت يا عبقرى زمانك فى مقدرتك على الفهم بل فى مقدرتك على إعادة الأمر فى هذا العبث إلى نصابه؟ وماذا تقول يا متخلف المتخلفين فى مئات المفسرين من كل شكل ولون وفى كل عصر ومصر الذين تناولوا شرح القرآن كلمة كلمة، وعبارة عبارة، وتركيبا تركيبا، وصورة صورة، وبعضهم تناوله فقهيا، وبعضهم عقيديا، وبعضهم عقليا، وبعضهم ذوقيا، وبعضهم علميا، وبعضهم لغويا وبلاغيا، وبعضهم نفسيا، وبعضهم سياسيا، وبعضهم اقتصاديا، وبعضهم اجتماعيا، وبعضهم فلسفيا، وبعضهم تربويا، وبعضهم تناوله آية آية، وبعضهم تناوله طائفة بعد طائفة من الآيات التى تعالج كل منها موضوعا واحدا فى السورة الواحدة،

وبعضهم تناوله قضية قضية على مدار القرآن كله، وغير ذلك من طرق ومناهج واتجاهات على ما بينت تفصيلا فى كتابى:"مسير التفسير"؟ وأرجو أن يأخذ القارئ باله من كراهيته لكلمة "الآخرة" واستبدال كلمتى "التقمص" و"العود للتجسد" بها. لعل القارئ الآن يدرك جيدا لم وصفت هذا الكاتب بالفجور- إبراهيم عوض)

(وتندرج ضِمْنَ هذه الأخطاءِ الإنشائيةِ النواقصُ والزياداتُ المقصودةُ وغيرُ المقصودة التى تزيد من تعدُّد معانى القرآن polysémie. فالقرآنُ ضاع منه الكثير كما تشير بعضُ المصادر كالإتقان للسيوطى (عن ابن عمر قال: "لا يقولَنَّ أحدُكم: قد أخذْتُ القرآنَ كلَّه. وما يدريه ما كلُّه؟ قد ذَهبَ مِنه قرآنٌ كثير. ولكنْ لِيَقُلْ: قد أخذْتُ منه ما ظَهَرَ"). فالكلمةُ المفقودةُ مثلا فى هذه الآية: "وما جَعلَ عليكم فى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ [...] مِلَّةَ أبيكم إبراهيمَ" (الحج، ٧٨) قد يكونُ تقديرُها "فالزموا" (فرْض: "فاتَّبِعوا") أو "كاف التشبيه" (وصْف وإخبار). والمفعولُ به الناقصُ فى هذه الآية "مَنْ كانَ يَظُنُّ أَنْ لن يَنْصُرَهُ اللهُ فى الدُّنيا والآخِرةِ فَلْيَمْدُدْ بِسببٍ إلى السَّماءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ [...] فَلْيَنْظُرْ هل يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ ما يَغِيظُ" (الحج، ١٥) قد يكونُ تقديرُه: "الحبْل"، أو "أصل الوحى"، أو "النصر"، أو "نصر "النبى" مُحمَّد"، أو "الرزق"، أو "رِزْق "النبى" مُحمَّد"، أو "المنكَرات"، أو "الماضى"، أو غير ذلك- محمد عبد الجليل).

(وهنا يزعم الفاجر أن القرآن قد ضاع منه الكثير كما جاء فى "الإتقان" مثلا، إذ نقرأ فيه: "عن ابن عمر قال: "لا يقولَنَّ أحدُكم: قد أخذْتُ القرآنَ كلَّه. وما يدريه ما كلُّه؟ قد ذَهبَ مِنه قرآنٌ كثير. ولكنْ لِيَقُلْ: قد أخذْتُ منه ما ظَهَرَ". ترى هل ورود هذه العبارة فى السيوطى معناه أنها عبارة صحيحة؟ فلم يا ترى لم يذكر ابن عمر، ما دام يعرف ما لم يعرفه غيره عن ضياع نصوص كثيرة من القرآن، تلك النصوص ويريح

ويستريح؟ إن كل ما يقال عن امحاء شيء من القرآن ينحصر بوجه عام فى أشياء قليلة مثل آية "والشيخ والشيخة"، وما يسمى بسورة "النورين أو الولاية" التى يدعى بعض الشيعة لا كلهم أنها كانت تمثل جزءا من القرآن لكن أعداء عليٍّ حذفوها حتى يطمسوا حقه فى تولى الخلافة بعد الرسول وتولى ذريته لها من بعد على إلى يوم يبعثون، وكذلك النص الذى يقرؤه بعض المصلين بعد التشهد الأخير وقبل التسليم والخروج من الصلاة، ويسميه مُدَّعو قرآنيته: "سورة الخلْع".

ولسوف أقف هنا أمام نص "والشيخ والشيخة" كمثال ليس إلا. وكان د. على جمعة قد ظهر فى برنامج "والله أعلم" التلفازى منذ عدة أشهر وأكد أن أكل الماعز إحدى أوراق المصحف لا ينقص القرآن فى شيء، وذلك خلال تناوله الحديث الذى ورد عن بعض الصحابة بشأن ضياع آية الرجم وإرضاع الكبير جراء أكل الشاة إحدى أوراق المصحف لدن وفاة النبى عليه السلام. ولكن هناك طائفة من الأسئلة لا بد من إثارتها والرد عليها هنا كى ينجلى الموضوع على حقيقته.

ونبدأ فنقول: كيف يقال إن القرآن لم ينقص منه شيء بينما تقول الرواية إنه كان يتضمن آية الرجم وعدد الرضعات التى تحرم زواج الراضعين من ثدى واحد، وهو الآن خال من هذا وذاك؟ كذلك كيف يقال إن النص قد ضاع، وها هو ذا النص بين أيدينا: "الشيخ والشيخة...إلخ"؟ هذا كلام متناقض مضطرب لا يقبله عقل ولا منطق. على كل حال هاتان هما الروايتان اللتان تتناولان هذا الموضوع، والمتحدثة فيهما هى عائشة رضى الله عنها: فعن محمد بن إسحاق: "لَقَدْ أُنْزِلَتْ آيَةُ الرَّجْمِ، وَرَضَعَاتُ الْكَبِيرِ عَشْرٌ، فَكَانَتْ فِي وَرَقَةٍ تَحْتَ سَرِيرٍ فِي بَيْتِي، فَلَمَّا اشْتَكَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَشَاغَلْنَا بِأَمْرِهِ، وَدَخَلَتْ دُوَيْبَةٌ لَنَا فَأَكَلَتْهَا". وروى الإمام أحمد فى "المسند"

(٣٤٣/٤٣) وابن ماجة فى "السنن" (رقم/١٩٤٤)، ولفظه: "فَلَمَّا مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَشَاغَلْنَا بِمَوْتِهِ دَخَلَ دَاجِنٌ فَأَكَلَهَا". ولكن إذا كانت الداجن قد أكلت الورقة فهل أكلت أمخاخ حفاظ القرآن آنذاك أيضا؟ طبعا لا. فلماذا لم يعيدوا كتابتها وتنتهى المشكلة؟ وهذا لو كانت تلك الورقة هى النسخة الوحيدة من ذلك النص القرآنى الكريم؟ ولكن متى كان الرسول يضع أشياءه تحت السرير؟ هذه أول وآخر مرة نسمع فيها بذلك الأمر. وهذا إن كان هناك سرير بالمعنى الذى نعرفه الآن، أى يرتفع عن الأرض بما يسمح للداجن أن تدس رأسها على الأقل تحته وتسحب الورقة وتأكلها. لكن السرير هنا هو مجرد فراش يوضع على الأرض مباشرة، وهو ما لا يسمح للداجن بسحب الورقة. وحتى لا يظن أحد أننا نلوى عنق النص إلى الناحية التى نريد أود أن أقول إن من معانى "السرير": "المضطجَع" بإطلاق كما جاء فى "لسان العرب".

والآن كيف تأكل الداجن شيئا تحت فراش مبسوط على الأرض؟ هل تستطيع الداجن أن ترفع الفراش أولا بيديها كما يفعل الإنسان ثم تمد فمها فتأكل ورق المصحف؟ طبعا لا. ثم هل كان القرآن مكتوبا على ورق مما يمكن أن تأكله الداجن؟ فماذا نصنع بما يقوله علماء القرآن ومؤرخوه عن اللخاف وسعف النخيل وما إلى ذلك مما كان يكتب عليه القرآن أوانذاك؟ ثم إن الرواية تقول على لسان أم المؤمنين إن النبى كان مريضا فانشغلوا عنه فلم يتنبهوا لما صنعته الداجن. فكيف عرفوا إذن أن الداجن هى التى أكلته؟ أما إذا كانوا قد رأوها فلماذا لم يحاولوا استخلاص الورقة منها؟ وإذا كانوا قد حاولوا فلماذا لم تقل عائشة ذلك؟ ثم كيف تدخل الداجن إلى غرفة نوم عائشة بهذه البساطة؟ تقول الرواية إنهم كانوا مشغولين بمرض النبى أو بموته. لكننا نعرف أن عائشة لم يكن لها سوى غرفة واحدة صغيرة مثلها مثل سائر زوجات الرسول، كما نعرف أيضا أنه كان يمرَّض فى غرفتها، فكيف يكون النبى مريضا بما يعنى أنه نائم فى سريره وبجواره

عائشة على الأقل تمرضه وتعنى به فى غرفة صغيرة كهذه، ثم تدخل الداجن وتنتش الورقة من تحت الفراش (رغم صعوبة ذلك بل استحالته كما رأينا) دون أن تتنبه عائشة أو النبى عليه السلام؟

كذلك فإن آية الرجم المزعومة التى تشير إليها الرواية تقول: "الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة". ومعنى هذا أن الرجم خاص بالشيخ والشيخة وحدهما بحيث إذا زنى كهل أو رجل أو شاب فلا رجم عليه. أليس كذلك؟ فكيف يتخذ القائلون برجم الزانى المحصن من هذا النص الخاص بالشيخ والشيخ مستندا لوجوب رجم الزانى من كل الفئات العمرية المكلَّفة: شيخا كان أو كهلا أو رجلا أو شابا؟ ودعونا من حكاية الإحصان التى لم يتطرق إليها النص المزعوم. ثم كيف يضيع من القرآن نص فى حكم خطير كهذا ثم يبقى الحكم؟ حاشا لله سبحانه وتعالى أن يضع عباده فى موقف مربك كهذا.

أيضا ليس من أسلوب القرآن استخدام كلمة "شيخة" للمرأة المتقدمة فى السن بل كلمة "عجوز" رغم أن كلمة "شيخ" تستخدم فيه للرجل: فسارة زوجة الخليل إبراهيم تقول حين بُشِّرَتْ بأنها سوف تلد إسحاق رغم طعنها فى السن: "قالت: يا ويلتا! أألد وأنا عجوز، وهذا بعلى شيخا؟"، والفتاتان اللتان قابلهما موسى فى مدين عند الماء وساعدهما فى سقى مواشيهما: "قالتا: لا نسقى حتى يُصْدِر الرعاء، وأبونا شيخ كبير"، وإخوة يوسف يقولون لعزيز مصر حين قال لهم إنه سوف يستبقى أخاهم الصغير معه: "يا أيها العزيز، إن له أبا شيخا كبيرا، فخذ أحدنا مكانه". فالرجل المتقدم فى العمر يقال له فى القرآن: "شيخ"، أما المرأة المتقدمة فى العمر فـ"عجوز": يقول القرآن عن رد فعل سارة حين بشرتها الملائكة بأنها ستلد إسحاق، وكانت قد طعنت فى السن: "يا

ويلتا! أَأَلِدُ وأنا عجوز، وهذا بَعْلِى شيخا؟ إن هذا لشىء عجيب". وفى موضع آخر: "فصَكَّتْ وجهها وقالت: عجوزٌ عقيمٌ". ويقول الكتاب الكريم عن لوط عليه السلام: "فنجّيناه وأهله أجمعين * إلا عجوزا فى الغابرين"، "إذ نجيناه وأهله أجمعين * إلا عجوزا فى الغابرين".

ليس ذلك فقط بل عندنا هنا كلمة "البتة"، وهى ليست من المعجم القرآنى أبدا. وفوق هذا وذاك فإن تركيب جملة "والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما" (على ما جاء فى بعض الأحاديث) ليس أسلوبا قرآنيا، إذ فى الموضعين اللذين يشبهان هذا الموضع لا نجد أثرا لتعليق إيقاع العقاب على تحقق الشرط: "والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نَكَالا من الله"، "الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة"، ومن ثم فلا وجود لـ"إذا" فى النصين. وإضافة إلى هذا فالنص الأخير هنا لا يحدد عمر الزانيين بل يكتفى بوصفهما بالزنا، وكان الله يحب المحسنين. وهذا من الفروق الأسلوبية بين النص المزعوم بقرآنيته وسقوطه من القرآن وبين النص الموجود فى القرآن عن الزانيين.

ثم إن الرجم فى القرآن لا يُهَدَّد به من البشر إلا الناس الصالحون: فقوم شعيب عليه السلام يهددونه قائلين: "ولولا رَهْطُك لرجمناك"، وفتية الكهف يخشَوْن، إن اطَّلَع على أمرهم قومهم، أن يرجموهم أو يُعِيدوهم إلى وثنيتهم: "إنهم إنْ يَظْهَروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى مِلَّتهم"، وأبو إبراهيم يهدده بأنه إذا لم يكفَّ عن مهاجمة أوثانه فلسوف يرجمه: "قال: أراغبٌ أنت عن آلهتى يا إبراهيم؟ لإنْ لم تنتهِ لأرجمنَّك"، وموسى عليه السلام يقول لقوم فرعون: "وإنى عُذْتُ بربِّى وربِّكم أن تَرْجُمونِ"، وأصحاب القرية يهددون المرسلين الثلاثة إليهم بأنهم ينبغى أن يسكتوا فلا ينتقدوا عبادتهم لغير الله، وإلا فإنهم راجموهم: "قالوا: لإنْ لم تنتهوا لنرجمنَّكم ولَيَمَسَّنَّكم منا عذاب أليم".

ثم هل تظن، عزيزى القارئ، أن مثل هذا الأمر الجلل يمكن أن يقع دون أن يثير ما يستحقه من ضجة هائلة بين المسلمين فى ذلك الوقت؟ هل يعقل أن تكون غيرة المسلمين تجاه كتاب ربهم وقت نزل الوحى معدومة على هذا النحو بحيث لا يهتم أحد بما جرى ولو بتساؤل بسيط أو استغراب عابر؟ وهناك رواية يقول فيها عمر قبل مقتله بفترة وجيزة: "قد رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجمنا بعده. ولولا أن يقولوا: كتب عمر ما ليس فى كتاب الله لكتبته. قد قرأنا فى كتاب الله: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة نكالا من الله والله عزيز حكيم". ولكن هل يعقل أن عمر لو كان مقتنعا بأن هذا النص آية قرآنية أكان يحجم عن إثباتها فى كتاب الله؟ ليس هذا هو عمر الذى نعرفه أبدا. بل أين كانت ذاكرة عمر طوال حياته فلم يتذكر ويهتم بهذا الموضوع إلا فى آخرها؟ على أن هناك رواية أخرى فى هذا الموضوع تقول عن عمر ذاته أيضا: " كان ابنُ العاصِ وزيدُ بنُ ثابتٍ يكتُبانِ المصاحفَ فمرَّا على هذه الآيةِ، فقال زيدٌ: سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ: الشَّيْخُ وَالشَّيخَةُ فارجُمُوهُما الْبَتَّةَ. فقال عمرُ: لما أُنْزِلَتْ أتيتُ النبى صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقلتُ: أَكْتِبْنيها. فكأنه كره ذلك. قال: فقال عمرُ: ألا ترى أنَّ الشيخَ إذا زنى وقد أُحْصِنَ جُلِدَ ورُجِمَ، وإذا لم يُحْصَنْ جُلِدَ، وأنَّ الشابَّ إذا زنى وقد أُحْصِنَ رُجِمَ؟". لكن هل يمكن أن ينزل قرآن ويرفض النبى عليه السلام كتابته؟ لعل تفسير الأمر أن النبى عليه السلام كان يرجم فى البداية دون نص قرآنى، ثم نزلت آية "النور" بعقوبة الجلد فقط. وعلى الناحية الأخرى هل كان المنافقون وأهل الكتاب ليسكتوا فلا يتخذوا من هذه الواقعة مادة للسخرية من الإسلام والقرآن والتشكيك فى حفظ كتاب الله من العبث والضياع والنسيان؟

وهكذا نرى معا أن ما جاء فى الروايات الخاصة بذلك الموضوع لا يثبت على محك العقل والمنطق. أما قول الشيخ على جمعة فى حديثه المشار إليه: "وفيها إيه لما تأكل

المعزة ورقة من المصحف؟ كانت جعانة وأكلته" فهو كلام عجيب جدا. أما دراستى عن سورة "الخلع" وعن سورة "النورين أو الولاية" فهو طويل وشديد التفصيل وكثير التشعبات ومملوء بالتحليلات المضمونية والسياقية والأسلوبية الكثيرة المرهقة، ويستطيع القارئ أن يقرأ ما كتبته عن سورة "الخلع" فى كتابى: "مسير التفسير"، وما كتبته عن سورة "الولاية أو النورين" فى كتاب خاص بذلك الموضوع عنوانه: "سورة النورين التى يزعم فريق من الشيعة أنها من القرآن- دراسة تحليلية".

أما كلمة "مِلَّة" فى قوله عز من قائل: "مِلَّةَ أبيكم إبراهيم" فليست فيها أية مشكلة، إذ هى تمييز منصوب. ويمكنك أن ترى فيها إغراء بالتزام ملة إبراهيم عليه السلام، كقولنا مثلا حين نكون فى انتظار الطعام ثم نراه محمولا على الصوانى فوق رؤوس الخدم، فنقول فى لهفة وفرحة: "الطعامَ"، أو "الطعام الطعام" بمعنى "هيا إلى الطعام لنأكل ونسكت عصافير بطوننا". وكونه جاهلا لا يعرف هذا ليس حجة على الآية، بل خزيا له وهوانا وإرغاما لأنفه فى التراب. وبالنسبة لكلمة "ليقطعْ" وعدم وجود مفعول لها ظاهر أفلا نقول: "عندك على المائدة لحم وخضار وتفاح وعصائر فكل واشرب براحتك" بدلا من "فكل اللحم والخضار والتفاح، واشرب العصائر"؟ وهذا إن كان الفعل: "يقطع" هنا متعديا، إذ يمكن أن يكون معناه: "ثم ليختنقْ" فيكون فعلا لازما لا يستدعى مفعولا به- إبراهيم عوض).

(وهناك على الأرجح خطآنِ فى هذه الآية (خطأُ زيادةٍ، وخطأُ نُقصان): "كُلَّما أرادوا أنْ يَخْرُجوا مِنها [مِنْ غَمٍّ] أُعِيدوا فيها و[...] ذُوقوا عَذابَ الحَريق" (الحج، ٢٢). على الأرجح، هناك زيادةُ "مِن غَمٍّ" ونُقصانُ "قيلَ لهم" قبل الفعل "ذوقوا". حيثُ يبدو أنَّ الجارَّ والمجرورَ "مِنْ غَمٍّ" زائدان. إذْ إنَّ عبارة "مِنْ غَمٍّ" لا تنسجم مع ما قبلَها ولا تُعَبِّر

عن شدَّة التعذيب ولا تضيف شيئًا للمعنى، بل تزيد العبارةَ ركاكةً. فالغَمُّ، لغةً، هو الحزنُ والكرب وليس صَهْرَ الأجسادِ فى النار. فليس مِن الغَمِّ أنْ تُقَطَّعَ للذين كفروا ثيابٌ من نارٍ ولا أنْ يُصَبَّ فوقَ رؤوسِهم الحميمُ الذى يَصْهَر جلودَهم وما فى بطونهم ولا أنْ يكونَ لهم مقامعُ من حديد. إنَّ القرآن يستخدمُ كلمةَ "غَمّ" بمعنى الحزن لا بمعنى التعذيب الشديد بالنار: "فاستَجَبْنا له ونَجَّيْناهُ مِنَ الغَمِّ وكذلكَ نُنْجِى المؤْمِنِين" (الأنبياء، ٨٨) "ثُمَّ أَنْزَلَ عليكم مِنْ بَعْدِ الغَمِّ أَمَنَةً" (آل عمران، ١٥٤) "وقَتَلْتَ نَفْسًا فنَجَّيناكَ مِن الغَمِّ وفَتَنَّاكَ فُتُونًا" (طه، ٤٠). ربما كان الأَولى إذًا أنْ يقالَ: "كُلَّما أرادوا أنْ يَخْرُجوا مِنها أُعِيدوا فيها وقيلَ لهم: ذُوقوا عَذابَ الحريق"، وذلك طبقًا لاستخدام القرآن لجملة مشابهة فى الآية ٢٠ من سورة السجدة (والتكرارُ من مميزات القرآن): "وأمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فمأْواهم النَّارُ كُلَّما أَرادوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها أُعِيدوا فيها وقِيلَ لهم ذُوقوا عذابَ النَّارِ الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُون".

هذه الأخطاءُ، مقصودةً كانت أم غيرَ مقصودةٍ، لها دلالاتٌ: إمَّا دلاليةٌ sémantiques (فى حالة الأخطاء المقصودة)، أى لها معنى إضافى، وإمَّا كشفيةٌ أو كاشفةٌ révélatrices (فى حالة الأخطاء غير المقصودة)، أى تكشِف عن جوانبَ إضافيةٍ تتعلق بالنص أو بكاتبه أو بسياقه. وهذه الدلالاتُ تضيع عند الترجمة– محمد عبد الجليل).

(نبدأ أولا بمعنى "الغم" فى العربية: ففى "مختار الصحاح": "الغَمُّ واحد الغُمُوم. تقول منه: غَمَّهُ فاغْتَمَّ، وتقول: غَمَّهُ أى غطَّاه فانْغَمَّ. والغُمَّةُ الكُرْبة. ويقال: أمرٌ غُمَّة، أى مبهم ملتبس. قال الله تعالى: "ثم لا يكنْ أمرُكم عليكم غُمَّة". قال أبو عبيدة: مجازها ظلمة وضيق وهم. وغَمَّ يومُنا من باب "رَدَّ" فهو يوم غَمٌّ، إذا كان يأخذ بالنفس من

شدة الحر. وأَغَمَّ يومنا مثله". فهل سيظل عبد الجليل بعد ذلك ورغم ذلك راكبا رأسه تساخفا وتسامجا؟ وإن الآية التى يستشهد بها هذا الجهول لتصكه فى وجهه صكا، وهى قوله عز شأنه: "فاستَجَبْنا له ونَجَّيْناهُ مِنَ الغَمِّ وكذلكَ نُنْجِى المؤْمِنِين". والكلام فيها عن يونس، ويونس عليه السلام كان محبوسا فى بطن الحوت يعانى الضغط والضيق والاختناق والكرب الفظيع، وهو ما يعانيه ضمن ما يعانيه أهل النار.

قال المرقش الأصغر يصف حصانه ويفاخر به:

ويَسْبِقُ مَطْرُودا ويَلْحَقُ طارِدا ويَخْرُجُ من غَمِّ المِضِيقِ وَيَجْرَحُ

وقال ابن أبى سلمى عن ضفادع رآها فى ماء:

يَخرُجنَ مِن شَرَباتٍ ماؤُها طَحِلٌ عَلى الجُذوعِ يَخَفْنَ الغَمَّ وَالغَرَقا

وقال جرير:

لَعَلَّكَ ترجو أَن تَنَفَّسَ بعدَما غُمِمْتَ كما غُمَّ المعَذَّبُ فى القَبْرِ

أما الركاكة التى يرمى الآيةَ هذا الجاهلُ بها فهى ركاكة عقله وذوقه. والغريب أنه يقول ما يقول باعتزاز بالغ، ويطلق الأحكام بثقة يحسد عليها شأن كل جاهل لا يدرك من الأمر الذى يتناوله شيئا، فهو يخبط خبط عشواء، ولذا نراه دائم الوقوع فى المصائب والكُرَب والغموم الشديدة التى تأخذ بأكظام نفسه وتكاد أن تُزْهِق روحه.

وأما تعليقه الغبى على قوله جل جلاله: "كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غمٍّ أعيدوا فيها، وذوقوا عذاب الحريق" فمعناه أنه عديم الذوق والأدب: عديم الذوق والأدب فى السلوك وفى الشعر والنثر على السواء ذلك أن تركيب الآية مذهل إذهالا عجيبا، فقد انزلق الكلام من السرد والوصف إلى الحوار فى براعة وخفة وخفاء تستلزم إنسانا يتمتع

بالفهم والشعور الحى حتى يقدر ما فيه من روعة بديعة، وذلك دون استعمال أى شيء يمهد للحوار كـ"قال، وصاح، وصرخ، وسأل، وأجاب..."، اللهم إلا الواو العجيبة التى تسبق "ذوقوا". وقد سبق أن رأيناه يعيب الحذف والتقديم والتأخير ويتهم القرآن بأنه يستعمل تلك الأمور كما لو كانت سبة، جاهلا أن هذه الأشياء، إذا ما استعملها حاذق، كانت بدعا بديعا من القول. وواضح أنه يجهل تماما أن علم المعانى من البلاغة إنما يقوم على هذا، فهو العلم الذى يدرس التقديم والتأخير، والفصل والوصل، والحذف والذكر، والإيجاز والإطناب. كما تشيع هذه الطريقة فى كتابة القصة الحديثة حيث يتداخل السرد والحوار: الخارجى والداخلى منه على السواء تداخلا معجبا. ثم يأنس هذا الجاهل فى نفسه القدرة على السخرية من القرآن وممارسة الأستاذية عليه وعلينا.

وفيما يلى بعض شواهد على استعمال مثل هذا التركيب فى الشعر الجاهلى، وإن لم يبلغ روعة الأسلوب القرآنى فى الآية الكريمة. قال امرؤ القيس:

وَيَوْما عَلى ظَهْرِ الكَثيبِ تَعَذَّرَت عَلَيَّ وَآلَت حَلْفَةً لَم تُحَلَّلِ

أَفاطِمَ، مَهْلا! بَعضَ هَذا التَدَلُّلِ وَإِن كُنْتِ قَد أَزْمَعْتِ صَرْمى فَأَجْمِلي

* * *

وَتُضْحِى فَتِيتُ المِسْكِ فوقَ فِراشِها نَؤُومُ الضحى لم تَنْتَطِق عَنْ تَفَضُّلِ

إِلى مثلِها يَرْنو الحَليمُ صَبابَةً إذا ما اسْبَكَرَّت بين دِرْعٍ وَمِجْوَلِ

تَسَلَّتْ عماياتُ الرجالِ عَنِ الصِّبا وَلَيْسَ فُؤادِى عن هَواكِ بِمُنْسَلِ

أَلا رُبَّ خَصْمٍ فيكِ أَلْوَى رَدَدْتَهُ نَصِيحٍ عَلى تَعْذالِهِ غَيْرَ مُؤْتَلِ

* * *

أَلا زَعَمَتْ بَسْباسَةُ اليَومَ أَنَّنى *كَبِرْتُ وَأَلا يُحْسِنُ اللهوَ أَمثالي

كَذَبْتِ! لَقَد أُصْبِي عَلى المَرْءِ عِرْسَهُ وَأَمنَعُ عِرْسى أَن يُزَنَّ بِها الخالي

وقال زهير:

وَكُلُّ طُوالَةٍ وَأَقَبَّ نَهْدٍ مَراكِلُها مِنَ التَّعْداءِ جُونُ

تُضَمَّرُ بِالأَصائِلِ كُلَّ يَومٍ تُسَنُّ عَلى سَنابِكِها القُرونُ

وَمَرجِعُها إِذا نَحنُ انقَلَبنا نَسِيفُ البَقلِ وَاللَبَنُ الحَقينُ

فَقَرّى فى بِلادِكِ. إِنَّ قَوْما مَتى يَدَعُوا بِلادهُمُو يَهُونوا

أَوِ اِنتَجَعى سِنَانا حَيثُ أَمْسَى فَإِنَّ الغَيْثَ مُنْتَجَعٌ معينُ

* * *

وَقالَت أُمُّ كَعبٍ: لا تَزُرْنِى فَلا وَاللهِ مالَكَ مِن مَزارِ

رَأَيتُكَ عِبتْنى وَصَدَدْتَ عَنّى وَكَيْفَ عَلَيْكَ صَبْرى واصْطِبارى؟

فَلَم أُفْسِد بَنِيكَ وَلَم أُقَرِّب إِلَيكَ مِنَ المُلِمّاتِ الكِبارِ

أَقيمى أُمَّ كَعبٍ وَاطمَئِنّى فَإِنَّكِ، ما أَقَمْتِ، بِخَيرِ دارِ

وقال الأعشى:

رَأَت عُجُزا فى الحَى أَسنانَ أُمَّها لِدَاتى، وَشُبّانُ الرِجالِ لِدَاتُها

فَشايَعَها ما أَبْصَرَت تَحتَ دِرْعِها عَلى صَوْمِنا وَاستَعجَلَتها أَناتُها

وَمِثلِكِ خَوْدٍ بادِنٍ قَد طَلَبتُها وَساعَيْتُ مَعْصِيّا لَدَيْنا وُشاتُها

* * *

أَتَيْتُ حُرَيثا زائِرا عَن جَنابَةٍ وَكانَ حُرَيثٌ عَنْ عَطائِى جامِدا

لَعَمْرُكَ ما أَشبَهْتَ وَعْلَةَ فى النَّدَى شَمائِلَهُ وَلا أَباهُ المجالِدا

* * *

أَلا أَيُّهَذا السائِلى: أَينَ يَمَّمَتْ؟ فَإِنَّ لَها فى أَهْلِ يَثْرِبَ مَوْعِدا

فَآلَيتُ لا أَرْثِى لَها مِن كَلالَةٍ وَلا مِن حَفًى حَتّى تَزُورَ مُحَمَّدا

مَتى ما تُناخِى عِنْدَ بابِ ابْنِ هاشِمٍ تُرِيحى وَتَلْقَىْ مِنْ فَواضِلِهِ يَدا

* * *

وَأَرَى الغَوانِى حينَ شِبْتُ هَجَرْنَنى أَلا أَكونَ لَهُنَّ مِثْلِى أَمرَدا

إِنَّ الغَوانِى لا يُواصِلْنَ امْرَأً فَقَدَ الشَبابَ وَقَدْ يَصِلْنَ الأَمْرَدا

هَل تَذكُرينَ العَهْدَ يا اِبنَةَ مالِكٍ أَيّامَ نَرْتَبِعُ السِّتارَ فَثَهْمَدا

أَيّامَ أَمْنَحُكِ المَوَدَّةَ كُلَّها مِنّى وَأَرْعَى بِالمَغيبِ المَأْحَدا؟

* * *

قالَت قُتَيلَةُ: ما لِجِسمِكَ سايِئا وَأَرى ثِيابَكَ بالِياتٍ هُمَّدا؟

أَم غابَ رَبُّكَ فَاعتَرَتكَ خَصاصَةٌ؟ فَلَعَلَّ رَبَّكَ أَن يَعودَ مُؤَيَّدا

رَبّى كَريمٌ لا يُكَدِّرُ نِعمَةً وَإِذا يُناشَدُ بِالمَهَارِقِ أَنشَدا

وقال النابغة الذبيانى:

أُنبِئتُ أَنَّ أَبا قابوسَ أَوْعَدَنى وَلا قَرارَ عَلى زَأْرٍ مِنَ الأَسَدِ

مَهلا! فِداءٌ لَكَ الأَقوامُ كُلُّهُمُو وَما أُثَمِّرُ مِن مالٍ وَمِن وَلَدِ

* * *

قالَت: أَراكَ أَخا رَحْلٍ وَراحِلَةٍ تَغْشَى مَتالِفَ لَن يُنْظِرْنَكَ الهَرَما

حَيّاكِ رَبّى! فَإِنّا لا يَحِلُّ لَنا لَهْوُ النِساءِ، وَإِنَّ الدينَ قَد عَزَما

وقال عبد يغوث:

وَتَضْحَكُ مِنّى شَيْخَةٌ عَبْشَمِيَّةٌ: كَأَنْ لَمْ تَرَىْ قبلى أَسِيرا يمَانِيَا

وهذه بعض آيات أخرى تجرى على هذا التركيب أو على تركيب قريب أُورِدها كى أبين للقارئ أن ما يومئ إليه كلام هذا الجاهل من أن ذلك التركيب غريب فى القرآن هو سخف فى سخف: "وإذ أخذْنا ميثاقكم ورفعْنا فوقكم الطُّور: خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا"، "ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعدما جاءتهم البينات، وأولئك لهم عذاب عظيم * يوم تبيضُّ وجوه، وتسودُّ وجوه. فأما الذين اسودَّتْ وجوهُهم: أكفرتم بعد إيمانكم؟ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون"، "ويومَ يحشرهم جميعا: يا معشر الجن، قد استكثرتم من الإنس"، "ولو ترى إذ يَتَوَفَّى الذين كفروا الملائكةُ يضربون وجوهَهم وأدبارَهم، و: ذوقوا عذابَ الحريق"، "وإذا ما أُنْزِلَتْ سورةٌ نظر بعضهم إلى بعضٍ: "هل

يراكم مِنْ أَحَدٍ؟"، ثم انصرفوا"، "جناتُ عَدْنٍ يدخلونها ومَنْ صَلَحَ من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، والملائكةُ يدخلون عليهم من كل باب: * سلامٌ عليكم بما صبرتم"، "ولقد آتينا داودَ منا فضلا: يا جبالُ، أَوِّبى معه والطير"، "وإنّ للمتقين لَحُسْنَ مآب * جناتِ عَدْنٍ مفتَّحَةً لهم الأبواب * متكئين فيها على الأرائك يَدْعُون فيها بفاكهة كثيرة وشراب * وعندهم قاصراتُ الطَّرْفِ أتراب: * هذا ما تُوعَدون ليوم الحساب"، "والذين اتخذوا من دونه أولياء: "ما نعبدهم إلا ليُقَرِّبونا إلى الله زُلْفَى". إن الله يحكم بينهم يوم القيامة فيما هم فيه يختلفون"، "هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق. إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون * فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيُدْخِلهم ربهم فى رحمته. ذلك هو الفوز المبين * وأما الذين كفروا: أَفَلَمْ تكن آياتى تُتْلَى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوما مجرمين؟"، "ويومَ يُعْرَض الذين كفروا على النار: أَذْهَبْتم طيباتِكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها، فاليوم تُجْزَوْن عذابَ الهُون"، وأُزْلِفَت الجنةُ للمتقين غير بعيد: * هذا ما تُوعَدون لكلِّ أوّابٍ حفيظٍ"...- إبراهيم عوض).

(لقد قمتُ بتجربة بسيطة توضح آليةَ جمعِ القرآن وكيفية حصول الأخطاء فيه. خِلالَ الفصل الدراسى السابق، كنتُ أعطى فى كل حِصَّة دراسية نصًّا صحفيا عربيا أو أكثرَ لطلاب اللغة العربية فى الجامعة وأشرحه لهم شرحًا وافيًا ثم أُقَدِّم لهم فى نهاية الشرح ترجمةً كاملة للنص. وكنتُ أحيانًا أعطى عِدَّةَ ترجمات لبعض الجمل تاركًا للطلاب الوقتَ الكافى ليسجِّلوا ترجماتى المقترَحة. وفى آخر الفصل الدراسى، طلبتُ من بعض الطلاب المتفوقين أنْ يرسلوا لى ترجمةً موحَّدة، مما نقلوه عنى، للنصوص التى درسناها. وفوجئتُ بوجود أخطاء وترجمات مخالفة تمامًا للمعنى ولِما قلتُه لهم خلال الدروس. وجدتُ أخطاءً إملائيةً نتيجةَ السهوِ ونواقصَ وزياداتٍ فى النصوص المترجَمة المكتوبة والمنقولة عن ترجمتى الشفهية. مِن أسبابِ هذه الأخطاء عدمُ خبرتهم بالنص العربى الأصل وتفاوُتُ

قدراتِهم الاستيعابية وقدرات النقل والإملاء وربما الاختلافاتُ الثقافية والاجتماعية والنفسية بينهم وبينى. وقد أقرَّ القرآنُ بذلك فى الآية: "وفى الأرضِ قِطَعٌ مُتجاوِراتٌ وجَنَّاتٌ من أعنابٍ وزَرْعٌ ونخيلٌ صِنْوانٌ وغَيْرُ صِنْوانٍ يُسْقَى بِماء واحِدٍ ونُفَضِّلُ بَعْضَها على بَعضٍ فى الأُكُلِ" (الرعد، ٤). هذه الآيةُ تنسِفُ الأساسَ الذى تقوم عليه عقيدةُ "حِفْظِ القرآنِ فى الصدور دُونَ أى تغيير". فإذا كانت النباتاتُ شديدةَ التنوعِ والاختلافِ مع أنها تشربُ من ماء واحد فمن الطبيعى أنْ تختلفَ التلَقِّياتُ بحسب الاستعدادات وأنْ تختلفَ بالتالى القراءاتُ والتأويلاتُ للمؤمنين متعدِّدى المِشاربِ الذين تلَقَّوْا نصًّا واحدًا مفترَضًا من مَصْدَرٍ واحد مفترَض. فعلى قَدْر استعداد المريد أو التلميذ يكون المعلِّمُ. وعلى قدْر تحمُّلِ الإنسان وطاقتِه "تتنزَّلُ" الإشاراتُ ("على قَدْرِ أهلِ العزمِ تأتى العزائمُ" [المتنبي]). وكذلك تكون قُدرةُ التيَّار الكهربائى على قَدْرِ تحمُّلِ الجهاز الذى يسرى فيه هذا التيارُ، وإلا أحرقَه. وعلى قدْرِ الوعى تكونُ الرؤيةُ. ولذلك قال القرآنُ: "لَمَّا جاءَ مُوسى لِميقاتِنا وكَلَّمَهُ رَبُّهُ قالَ رَبِّ أَرِنِى أَنظُرْ إليكَ قالَ لن تَرانى ولكنِ انظُرْ إلى الجَبَلِ فإنِ استَقَرَّ مَكانَهُ فسوْفَ تَرانِى فلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلجَبلِ جَعلَهُ دَكًّا وخَرَّ موسى صَعِقًا"(سورة الأعراف، ١٤٣)- محمد عبد الجليل).

(لا أدرى هل الحكاية التى يحكيها هنا محمد على عبد الجليل حكاية صحيحة أو لا. فهو وأمثاله يتنفسون الكذب تنفسا. ومع هذا فلسوف أفترض أنها قد وقعت فعلا كما قال، فماذا فيها؟ ألا يرى أن القياس فى حكايته لا معنى له؟ هل يصح أن يقيس على الطلاب العرب والمسلمين اليوم طلابَ العرب والمسلمين قديما، ونحن نعرف مستوى الطلاب العلمى ونفورهم من التحصيل الثقافى بوجه عام ونشكو منه ومنهم لطوب الأرض دون جدوى؟ فكيف بأن يقيس الصحابة عليهم؟ وها نحن المسلمين اليوم نقترب من مليارى نسمة، وعدد البلاد والشعوب التى تنتمى إلى دين محمد عدد هائل،

وهم متوزعون على كل بلاد العالم، ومع ذلك فإن إنجازاتنا، علمية كانت أو غير علمية، فى الحضيض. فهل ننكر إنجازات الصحابة لأننا الآن فاشلون بحجة أننا المعيار الذى ينبغى معايرتهم به؟ لقد فتح المسلمون، على ندرة أعدادهم وانعدام إمكاناتهم المادية، بلاد العالم شرقا و لكننا الآن منذ قرون نتعرض للغزو والاحتلال وسرقة خيرات بلادنا ولكل صنوف المذلة والمهانة، ونتلقى الضربات، وتُمزَّق بلادنا شذر مذر، وننفذ ما يريده منا أعداؤنا دون أن نفتح أفواهنا بكلمة اعتراض واحدة، وندفع لهم ما يريدون فى مهانة وخنوع، فهل يصح أن نتخذ من ذلك ذريعة لنفى نجاحات المسلمين الباهرة بل المعجزة فى عصور الإسلام الأولى؟

نعم هل يصح أن نقيس شباب الإسلام ورجاله فى أوائل الدعوة على طلابنا فى الجامعة اليوم الذين ظللت مثلا فى أحد الأعوام الدراسية أوائل ثمانينات القرن الماضى أشرح أمامهم وأحلل معهم قصيدة كعب بن زهير التى يقول فى أولها:

بانتْ سعادُ، فقلبى اليومَ مَتْبُولُ * مُتيَّمٌ إثْرَها لم يُفْدَ مكبولُ

شهرا كاملا قرأتها أثناءه، وبالذات هذا البيت باعتباره أول القصيدة، عشرات المرات ليأتى طالب فيقول حين طلبت منه آخر المطاف أن يقرأها أمام زملائه: "بانتْ سعادُ، فقلبى اليوم مُتبَوِّلْ"؟ ، ولا أريد المضى فى هذا الموال، وإلا فلن ننتهى. وهذا إن كان الطلاب الذين يشير إليهم صاحبنا عربا ومسلمين، أما إن كانوا طلابا أجانب فالمقارنة تساخف غير مقبول ولا محتمل– إبراهيم عوض).

(تُبيِّنُ إحدى الحِكايات الصوفية أهميةَ السامع (أو القارئ) فى عملية التواصل وليس المتكلِّم (أو الكاتب)، فتروى أنَّ ثلاثةً سَمِعوا مناديًا عَشَّابًا يبيع السَّعْتَرَ البَرِّى فيقول: "يا سَعْتر بَرِّى"، ففهِمَ كلُّ واحد منهم مخاطبةً مختلفةً عن الآخَر. فسَمِعَ أحدهم: "اِسْعَ تَرَ

بِرِّى"، وسَمِعَ الآخر: "الساعةَ ترى بِرِّى"، وسمع الثالثُ: "ما أوسعَ بِرِّى". فالمسموع واحد، واختلفَت الأسماع. (المِنَح القُدُّوسِيَّة بِشَرح المرشد المعين على طريقة الصوفية، "بيان فهم القوم من اللفظ الواحد معان مختلفة"، الشيخ أحمد بن مصطفى العلاوى المستغانمى). فحتَّى لو لقَّنَ محمَّدٌ قرآنَه شفاهًا إلى جميعِ معاصريه من العرب ثم كتبوا بعدَ وفاته ما حفِظوه عنه لكان ما سيكتبوه مختلِفًا عما لقنَّهم إياه- محمد عبد الجليل).

(الرد هنا بسيط: فلا النبى عشَّاب ولا القرآن سعتر برى. أم ترى هذا المتخلف يتصور النبى وقد أخذ يذرِع شوارِع مكة وينادى على بضاعته الدينية: "عندنا إسلام من كل الأنواع يناسب جميع الأذواق والمقاسات. إسلام برى، وإسلام بيتى، وإسلام محلى، وإسلام مستورد. فمن يقول: هات؟"، كل ذلك وهو يلوى الحروف والكلمات فلا يلتقط نطقها الصحيح أحد إلا على وجه التقريب والتعميم. ألا لعنة الله على الملاحدة المتنطعين ملتقطى القمامة الفكرية من تحت الأقدام ومن أسفل الموائد القانعين ببقايا الطعام الملوثة، شأن الكلاب التى يصدق عليها قول السامرية فى العهد الجديد حين زجرها المسيح قائلا: "لَيْسَ حَسَنًا أَنْ يُؤْخَذَ خُبْزُ الْبَنِينَ وَيُطْرَحَ لِلْكِلاَب"، فقالت فى مسكنة واتضاع وخوف: "نَعَمْ، يَا سَيِّدُ! وَالْكِلاَبُ أَيْضًا تَأْكُلُ مِنَ الْفُتَاتِ الَّذِي يَسْقُطُ مِنْ مَائِدَةِ أَرْبَابِهَا!".

وقد سبق أن قلت إن عشرات الملايين من الأطفال المسلمين يحفظون القرآن عن ظهر قلب، ودون أن يخرم الواحد منهم حرفا من كتاب الله العظيم. وقد كان العرب أوانذاك ذوى ذوق أدبى راق، وكانوا كلهم يكادون أن يكونوا شعراء، فلا يصح المقارنة بينهم وبيننا اليوم بأى حال، وإلا كانت مقارنة ظالمة وغبية. كما لا ينبغى قياس الصحابة وأهل الأجيال الأولى من الإسلام على المتصوفة الكسالى الذين يريدون أن يأكلوا

ويشربوا دون عمل يؤدونه، والذين يزعمون المزاعم فيما يخص علاقتهم بربهم ودينهم مما فصلنا القول فيه فى كتابىَّ: "فى التصوف والأدب الصوفى" و"عبد الحليم محمود – صوفى من زماننا" ولعل الله يسهل لى وضع كتاب ثالث فى التصوف يكون هذه المرة عن الشيخ أحمد بن مصطفى العلاوى المستغانى، الذى ذكره الكاتب بوصفه مصدر حكاية العَشَّاب والسعتر البرى، والذى نشرتُ عنه بُوسْتًا منذ عدة ليال على صفحتى الفيسبوكية ولاحظت على طريقة تفسيره للقرآن عددا من الملاحظات العجيبة التى تدل على أن الرجل لم يكن أهلا لتلك المهمة الجليلة النبيلة مثلما صاحبنا هذا غير أهل لتناول الموضوع الذى نحن بصدده. وواضح أن كاتبنا لا يوفقه الله للاستشهاد بمؤلفين موثوقين. فالطيور على أشكالها تقع.

ثم من أين له أن المسلمين كانوا يتلقَّوْن القرآنَ تلقىَ المارة لنداء العَشَّاب على سعتره البرى؟ أهى أفكار وخواطر تندلع اندلاعا شيطانيا فى دماغك، والسلام؟ وأغلب الظن مع هذا أن حكاية السعتر البرى حكاية مختلَقة من الصوفية للإضحاك والفرفشة ليس غير، وإلا فهل يحب الكاتب أن نطبق عليه نظريته هذه فنقول إنه قرأ الحكاية ففهمها على غير وجهها، ثم لما كتبها كتبها على غير ما فهمها، ولما راجعها صيرها شيئا آخر غير الذى كتبها به، ولما طبعها الطباع طبع شيئا مختلفا عما أمامه، ولما جئنا نحن لنقرأ فهمنا شيئا غير هذا كله؟ وحتى لو كانت حكاية العشاب والسعتر البرى حقيقية فنحن نعرف أن نداءات الباعة فى الشوارع تكون غير واضحة أو مفهومة، فهم يتعمدون تشويه كلامهم للفت الأنظار إليهم وضيقهم بكثرة النداء على بضاعتهم أمام من يساوى ومن لا يساوى. ثم إنهم ينادون على بضاعتهم بعيدا عن آذاننا، ولسنا نجلس إليهم ونستمع بكل انتباه وتركيز إلى ما يقولون كما نصنع مع مشايخنا الذين يعلموننا كتاب الله ويحفّظوننا إياه، واضعين فى حسباننا منذ البداية أن نسمع كل كلمةٍ سماعا

صحيحا وأن نسجل ما نسمعه ثم ننطقه أمام الشيخ حتى إذا وجد خطأ فى أتفه شىء صححه لنا فى الحال، ثم نذهب فنحفظه ونأتى لنُسَمّع الشيخ ما حفظناه. على أن المسألة لا تنتهى عند هذا الحد بل علينا كل عدة أيام أن نسمع حصة كبيرة مما حفظناه من قبل حتى لا يتفلت القرآن من صدورنا ويظل لاصقا بها لصوقا صحيحا. فأين حفظ القرآن من نداء العشابين على السعتر البرى يا متخلف؟

بل إن إعلانات التلفاز نفسها عادة ما تكون كلمات أزجالها مدغمة ومتداخلة وسريعة راقصة، ومشوشة أيضا بتغطية أصوات الآلات الموسيقية عليها بحيث يفوتنى معظم كلماتها فلا أحققه ولا أفهمه رغم أن الإعلان الواحد كثيرا ما يذاع عدة مرات متتالية فى الجلسة الواحدة أمام المرناء حتى تكاد روح الواحد منا تزهق وهو جالس ينتظر بدء المباراة التى سيشاهدها، فأنا لم أعد أتفرج فى التلفاز على أى شىء غير المبارايات التى تهمنى.

ثم إن الكاتب اللوذعى يصور تعامل المسلمين مع القرآن فى عصر الرسول عليه السلام على أساس أن الرسول كان يقرأ عليهم النص الموحَى مرة واحدة قراءة سريعة ملهوجة ثم يتركهم لحال سبيلهم، وأنهم ما إن سمعوا ما قاله لهم حتى انصرفوا للتو واللحظة لشؤون حياتهم، التى لا تترك لهم وقتا للقرآن أو لغيره. وهو تصور مضحك. فقد كان المسلمون يتلون القرآن دائما تعبدا وتقربا إلى الله، وكانوا يقرأونه فى صلواتهم الخمس ونوافلها وغير نوافلها، إذ لا تصح الصلاة إلا به، وكانوا يتدارسونه مع النبى صلى الله عليه وسلم، ويتدارسونه بعضهم مع بعض، وكان النبى يرتله عليهم ترتيلا، وليس على طريقة العشاب بائع السعتر البرى.

ولم يكن القرآن مجرد نص يسمعونه دون اهتمام، بل كان نصا مقدسا يؤمنون أنه هو ضمانة دخولهم الجنة، وكانوا يشعرون طوال الوقت أن الله منزلَ القرآن يتابعهم دائما ويأجرهم على كل حرف ينطقونه من كتابه الأجر العظيم. لهذا قلنا ونقول إن المقارنة بين السعتر البرى والقرآن سخف ما بعده سخف. بالله ما دخل السعتر البرى فى القرآن؟ لم يبق إلا أن تشبهه بالفول المدمس والطعمية والمخلل والجرجير والطماطم والحرنكش! أما إن البعيد لسخيف العقل عديم الذوق!- إبراهيم عوض).

(إذا كان هناك أخطاءٌ لا بأسَ بها وتغييراتٌ دلالية فى عمل مجموعة محدودة لا تتجاوز العشرين طالبًا تلَـقَّوا عنى من فمى إلى آذانهم مِن دُونِ وسيط ومِن دُونِ تدَخُّلِ عواملَ سياسيةٍ قد تَحْرِفُ المعنى، فمِن الطبيعى أنْ يكونَ هناك أخطاءٌ أو انحرافٌ (إنْ لم نقُلْ: تحريفٌ) للمعنى فى حالة تدوين القرآن مع وجود مجتمع كبير جدا مقارنةً بمجموعة الطلاب ومع وجود وسطاء نقلوا عن محمد ومع وجود عواملَ سياسية وسوسيولوجية وصراعات إيديولوجية واقتصادية.

فالأصواتُ إذا خرجَتْ من فم المتكلِّم حاملةً مقاصدَه تنْحَرِفُ دلالاتُها قليلا عندما تدخل فى وسط المتلقِّى. ويزداد الانحرافُ الدلالى بمقدار ما يزداد البعدُ الثقافى والاجتماعى والاقتصادى والنفسى والزمنى بين المتكلِّم والمتلقِّى. وهذه حقيقة لغوية حتى إنَّ "النظرية الذاتوية" (الأنانة solipsisme [نظرية تقول بعدم وجود شىء قابل لأنْ يُعْرَف غير الذات أو الأنا وبأنَّ كلَّ الكائنات والأحداث ليست سوى نتاج وعى الشخصية]) فى الألسنية قد ذهبَتْ أبعدَ من ذلك بكثير فقالت، ليس فقط بانحراف المعنى عند انتقالِه من وسط واعٍ (متكلِّم) إلى وسط واعٍ آخر (سامِع)، بل باستحالة نقلِ المعانى والمشاعر التى يحسُّ بها المتكلِّم إلى المتلقِّى (جورج مونان Georges

Les problèmes théoriques de la traduction ،Mounin [المشاكل النظرية للترجمة]، غاليمار Gallimard، 1963، ص ١٧٠). وبالتالى فإنَّ قولَ القرآنِ "إنَّا نحنُ نَزَّلْنا الذِّكْرَ وإنَّا له لَحافظون" (الحِجْر، ٩) (بحسب المعنى الذى تُقدِّمُه التفاسيرُ) هو قولٌ دعائى يتعارض كليًا مع المسَلَّمة الألَسُنية القائلة بعدم ثبات المعنى. كما أنَّ عقيدة حِفظِ القرآن كما وردَ من مَصْدرِه تخالفُ أبسطَ مبادئ عِلم النفس (فى اختلاف التلقّى باختلاف استعدادات المتلقّى) وأبسطَ مبادئ اللغة (فى تعدد المعانى وفى أهمية القارئ لا النص) وأبسطَ مبادئ التاريخ (فى أنَّ ما يُكتَب هو ما يريده المنتصرون لا ما يطابق الحقيقة) وأبسطَ مبادئ الفيزياء (فى التغير الدائم وفى الارتياب). ولكنَّ المؤمنين الذين يرونَ الأشياءَ من موشور عقيدتهم يجهلون أو يتجاهلون المؤثراتِ والعواملَ النفسيةَ والفرديةَ والثقافيةَ والدينيةَ والسياسيةَ والاجتماعيةَ والاقتصاديةَ والجغرافيةَ والتاريخيةَ التى تتدخَّلُ فى صناعة النص المقدَّس ويتجاهلون الطبيعةَ الكونيةَ فى التغير الدائم، فحتى لو سقطَ حجرٌ نيزكى صلبٌ من الفضاء فلا يكون نفسَه بين لحظةٍ وأخرى فكيف بالأفكار والكلمات ذات الطبيعة الزئبقية؟- محمد عبد الجليل).

(المؤلف ينزلق هنا بصنعة لطافة من موضوع تغيير الألفاظ إلى موضوع تغيير المعانى. فأما تغيير المعانى فلا نشغل أنفسنا به ولا نجادل فيه، فالناس فعلا متفاوتة الذكاء والعقل والتربية والبيئة والميول والاهتمامات والانتماءات، ومن ثم فأفهامها للنص الواحد يمكن جدا أن تتفاوت وتختلف. لكن هذا ليس موضوعنا الآن. أما سماع الناس لنص من النصوص وحفظهم له دون أن يخطئوا فيه فأمر ميسور جدا، وإلا لقد كان ينبغى، يا فلحاس الفلاحيس، أن يكون عندنا قَرَائِين (ج. قرآن) بعدد المسلمين بحيث يصير لكل منهم قرآنه، بالضبط كما صار السعتر البرى "اِسْعَ تَرَ بِرِّى"، "الساعةَ ترى بِرِّى"، "ما أوسعَ بِرِّى". والحمد لله أن سامعى عَشَّاب السعتر البرى كانوا ثلاثة فقط، وإلا ما

انتهينا من موضوعه ولا يوم القيامة. والعجيب أن الكاتب يعرف أن المصحف شيء واحد عند جميع المسلمين، والقرآن هو هو عند الصغار والكبار وفى الصلاة وخارج الصلاة وعلى ألسنة القراء والمستمعين وحتى فى إذاعة لندن وتل أبيب ودمشق عاصمة الحكم العلوى الكاره للإسلام، ومع هذا يمضى فى التشكيك وبث الريبة. فهل رأى القراء تنطعا كهذا؟

ولدينا أحفادنا الأربعة، وأنا أحب مداعبتهم والاستماع إلى كلامهم، وبخاصة الصغيران اللذان لا يزالان فى الحضانة، وكثيرا ما أطلب منهم أن يسمِّعونى ما حفظوه من السور القصيرة، فيستجيبون، وأنا أسمع وأبتهج، وأكافئهم فى كل مرة بمبلغ من المال أعطيهم إياه وأنا أطير من السعادة. والشاهد هنا أننى كنت أظنهم سوف تلتوى ألسنتهم بالآيات الكريمة باعتبار أنهم صغار لا يحققون ولا يحسنون الاستماع، لكنى فوجئت بأنهم يحفظون النصوص المجيدة حفظا سليما، فتساءلت، فقالت لى أُمَّاهم، وهما ابنتى وزوجة ابنى: إن المدرسة تستجلب لهم محفِّظين متخصصين يهتمون بتحفيظهم السور تحفيظا سليما لا يخر منه الماء. أم تراك، أيها الذكى الألمعى، ستجادلنى وتتهم الأطفال الظراف بأنهم أساؤوا سمعا فأساؤوا تلاوة؟ وشيء آخر تعمد هذا المدلس تعمدا ألا يلمسه، وهو أن القرآن كان يسجَّل دائما كتابةً أول نزوله. وتوتة توتة خلصت الحدوتة- إبراهيم عوض).

(ولكنَّ قداسةَ النص الدينى هى صنم فكرى يعيق المؤمنَ عن رؤية حقيقة الأمر. يبدو أنَّ مشكلة المؤمنين الأساسية تكمن فى فهمهم المنحرف للمفاهيم الأساسية للدين كمفهوم القداسة والمعجزة. إنَّ الفهم الخاطئ للقداسة يجعل الخطأَ معجزةً. فالقداسةُ ليست فى الكلمات بل فى الانتباه والحضور (فى اللحظة الحاضرة، هنا- الآن) بحسب

قول البوذا فى القصة التى يرويها أنتونى دو مِلُّو Anthony De Mello (1931 – 1987) فى كتابه "أغنية الطائر: (Comme un chant d'oiseau) (ص ٢٦ فى النسخة الفرنسية، بترجمة اليسوعى إرنست ريشيه [ريشير] Ernest Richer عن الإنكليزية، ١٩٩٤. النسخة العربية بترجمة الصديق أديب خورى). فقد سُئِل البوذا ذات مرة: "ما الذى يجعل المرءَ قِدِّيسًا؟" فأجاب: "تنقسم كلُّ ساعةٍ إلى عدد معيَّن من اللحظات، وكلُّ لحظة إلى عدد من الأجزاء. فمن يستطيع أنْ يكون حاضرًا بالكُلِّية فى كل جزء من اللحظة فهو قِدِّيس." الحقيقة الوحيدة هى هنا– الآن. وأكثرُ ما يُبعِد عن هذه الحقيقةَ هو الكلام، ومنه القرآن. أما المعجزة فهى، كما تؤكد سيمون فايل 1943 – 1909) Simone Weil)، ليست حدثًا مخالفًا للطبيعة، فنحن لا نعرِف أصلا قوانينَ الطبيعة، بل المعجزة هى أنْ يقومَ الإنسان، مثلا، بثلاث خطوات بدون أى دافع آخر غير الرغبة فى "طاعة الله" على حد تعبيرها (أى فى الحضور والانتباه والمِحَبَّة المجرَّدة من الرغبة). فإنَّ هذه الخطواتِ الثلاثَ معجزةٌ سواء تمَّتْ على الأرض أم على الماء، لكنها عندما تتم على الأرض لا يبدو أى شيء مدهشًا. فالمعجزة الوحيدة، بحسب سيمون فايل، هى القداسةُ، والقداسةُ هى الحضور– محمد عبد الجليل).

(وأنا معه فى أن النص القرآنى ليس مقدسا عند جميع البشر، ولهذا نجد من لا يبالى به بالة، ومن يبصق عليه، ومن يحرقه غيظا وحقدا وتعصبا، ومن قد يتبول عليه ويدنسه كما كان جنود الأمريكان الكلاب يفعلون فى العراق أيام غزوه بغية إهانته ونزع الجلال عنه من أعين المسلمين حتى يتعودوا على هذا وتنصرف قلوبهم مع الأيام عنه تدريجيا ومعه أيضا فى أن القداسة إنما تكون فى الانتباه والحضور. لكن كيف تتوافر القداسة فى الانتباه والحضور؟ تتوافر من خلال الإيمان بالقرآن على أنه وحى سماوى من عند الله

وأن مهمة المسلم هى الحفاظ عليه، كتابةً وإيداعًا فى الصدور، من الضياع، وتطبيق أحكامه ووضع أوامره ونواهيه نصب الأعين وتنفيذها على أرض الواقع. ومن هنا كان سهلا جدا على المسلمين أن يحفظوا القرآن حفظا لم يحظ به كتاب آخر على مر التاريخ حتى ليحفظه جماهير كثيرة من الأطفال والصبيان المسلمين من غير العرب حفظا مدهشا. بل إن بعضهم ليرتله ترتيل تطريب ينافس به القراء الكبار فى العالم الإسلامى. كل ذلك وَهُمْ لا يفهمونه. لكن على كلام الكاتب الذكى كان ينبغى ألا يكون هذا قط وبتاتا وعلى الإطلاق وأبد الآبدين ودهر الداهرين وما أضاء القمران وتعاقب المَلَوان. هذا رجل يحفظ ما يُلْقَى إليه من كلام فيؤديه كما هو دون فهم ودون تفكير حتى يضمن استمرار النغنغة التى هو فيها والتى هو على استعداد لبيع أمه وأبيه لقاء دوامها، فلهذا تراه يجادل فى البديهيات شأن من يحاول إقناعك أننا بالليل فى الوقت الذى يضع كفيه على عينيه كى تقياه وهج الشمس ورغم ما يتصبب منه من عرق غزير جراء حرارة الشمس التى ينكرها، ورغم الكتاب الذى يقرؤه فى نورها الساطع المبين. هذا، باختصار، رجل متنطع. ومن السهل على القارئ العزيز ملاحظة أن هذا الرجل لا يحتفى إلا بكلام غير المسلمين: فمرة سامى الديب، ومرة البوذا، ومرة الفيلسوفة الفرنسية سايمون فايل، ومرة لا أدرى شنو أيضا، أما المسلمون فكلا ثم كلا– إبراهيم عوض).

(عندما نكشِفُ عن أخطاء لغوية وإنشائية فى القرآن بناءً على ما وصلَ إلينا من استخدامات لغوية سائدة فى عصر تدوين القرآن أو بناءً على لغة القرآن نفسِها فإننا لا نسىء لقداسة النص ولا لإعجازه، إذْ لا قداسةَ له ولا إعجازَ البتَّةَ، إنما نسعى لتحطيم الأصنام الفكرية الوهمية التى يتعب المسلمون فى حملِها أينما حلُّوا وارتحلوا. إنَّ وجودَ أخطاء فى النص لا يسىء إليه بل يكشف عن بعض أسراره.

عندما رجَّحْتُ أنَّ فى الآية "أو يأتيَهم عذابُ يوم عقيم" (الحج، ٥٥) خطأ (هو استخدام الصفة "عقيم" بدلا من "عظيم") فإنَّ المعيارَ الأول الذى استندتُ إليه هو لغةُ القرآنِ نفسُها، وذلك لأنَّ القرآن يستخدم دائمًا صفةَ "عظيم" لوصف "يوم"– محمد عبد الجليل).

(مر بنا كيف كشفتُ كذب الرجل وتدجيله وجهله وبينتُ أن "اليوم" فى القرآن لا يوصف دائما بأنه "يوم عظيم" بل هو أيضا "يوم كبيرٍ" و"يوم أليم"، و"يومٍ مُحِيطٍ"، و"يومٌ عصيبٌ"، "يومٌ مجموعٌ له الناس"، و"يومٌ مشهودٌ"، و"يوم معلوم"، و"يوم عاصف"، و"يومٌ عَسِرٌ"، و"يومٌ عسيرٌ"، و"يومٍ ذى مَسْغَبَة"، و"يوم لا بيعٌ فيه ولا خِلالٌ"، و"يومٌ لا مردَّ له من الله"، و"يوم كان مقداره ألف سنة"، و"يوم كان مقداره خمسين الف سنة"، فلا لزوم لإعادة القول فيه هنا. وهذه بالمناسبة أول مرة أسمع أن اكتشاف أخطاء فى نص مقدس لا يسىء إليه. أليس هذا الاكتشاف من شأنه أن يفقد المؤمنين به الثقة فيه ويصرفهم عنه ولا تعود لأحكامه وقيمه ومبادئه أية قيمة ولا يستمر فى أداء دور المحفز الحضارى ولا وظيفة الشاحن الروحى فى الصراع مع القوى المعادية، فينتهى بهم الأمر إلى أن يصيروا تابعين خانعين للمؤسسات الأوربية والأمريكية المبغضة للإسلام والعاملة على تحطيمه ونفيه خارج الوجود، ونخسر المعركة من قبل أن نخوضها كما حدث مع محمد على عبد الجليل فى الوقت الذى يستمر فيه أبو ساحلية وأمثاله فى الهجوم على القرآن والإشادة بكتابهم الدينى رغم ما فيه من مصائب وكوارث لا يفكر المهزوم السورى فى تفكيكها والكشف عنها بل يمالئ أبا ساحلية فى الحملة فقط على القرآن الكريم والإشادة به فى كل محفل– إبراهيم عوض).

(هذا الخطأ السهو من الناسخ يمكن أنْ يكونَ كاشفًا إذا ما قرأناه قراءةً تفكيكيةً، بحسب تفكيكية دريدا، أى إذا قرأناه كما نقرأ الأحلامَ- محمد عبد الجليل). (طبعا، فقد كان الرسول يتلقى الوحى وهو نائم، ومن هنا كان القرآن الكريم هلاوس وأضغاث أحلام لا يزيد عن ذلك. خيبك الله!- إبراهيم عوض). فقد يشيرُ هذا الخطأُ وغيرُه من الأخطاء إلى عدة أمورٍ، منها:

١- عند تدوين القرآن لم يكنْ هدفُ النُّسَّاخِ، ومِن ورائِهم السلطةُ التى أمرَتْ بجمع القرآن، التفاصيلَ الدقيقةَ فى النص القرآنى. المهمُّ ألا يَحْرِفوا المعنى إلى ضدِّه. وهذه الفكرة يؤكِّدها حديثٌ وردَ عن محمد يقول: "يا عُمَرُ، إنَّ القرآنَ كُلَّهُ صَوابٌ ما لم يُجْعَلْ عَذابٌ مَغفِرةً أو مَغْفِرةٌ عَذابًا". أى أنَّ القرآنَ لم يكنْ يُمَثِّل لهم قانونًا دقيقًا واضحًا، ولم يكن فى الأساس الهدفُ من وضْعِه وجَمْعِه إيصالَ المعانى المتغيرة التى يمكن أنْ يشيرَ إليها إلى الآخر المختلف، بل إيصال رسالة غير مباشرة إلى هذا الآخر المختلف (وخاصةً أتباع اليهودية والنصرانية) مفادُها أنَّ العربَ الأميين (الوثنيين الذين لا كِتابَ "مقدَّسًا" لهم) يمكن أنْ يكونَ لهم كِتابٌ يُعَبّر عن هويتهم. فالقرآنُ يشبه صرخةَ هُويةٍ، صرخةَ وجود، هو ردٌّ من الوثنيين على تعيير اليهود لهم- محمد عبد الجليل).

(لو كان الأمر على ما يدعى هذا الرجل المفكك العقل لكان عندنا قرآنات لا تنتهى ما دام المعنى محفوظا، وهذا إن ظل المعنى محفوظا بعد النسيان والاستبدال أو التغيير المتعمد. كذلك لم كان الحرص على أن يكون القرآن مسجوعا ما دام المهم هو المعنى؟ كذلك فالأفاق يزعم أيضا أن القرآن إنما جاء للرد على أهل الكتاب بأن عند العرب أيضا كتابا مثل كتابهم. فهل كان فى مكة يهود أو نصارى يمثلون مجتمعا ذا بال يستحق أن يتحداه محمد بهذا التحدى؟ بالعكس لقد كان المشركون الوثنيون هم من وقفوا فى

وجهه واعترضوا عليه وناصبوه العداء يا متخلف وآذَوْه وشتموه وطاردوه وقذفوه بالحجارة واتهموه بالجنون والسحر والكذب والكهانة.

ثم إذا كان الأمر كذلك فلم قال القرآن إن الإسلام سوف ينتصر على الدين كله، وهو ما حصل كما تنبأ وأكد؟ لقد كانت الغاية أن يقول محمد لأهل الكتاب، حسب تساخفك المقيت، إن لنا نحن أيضا كتابا مثلكم. فلماذا يا ترى الطموح إلى الانتصار على اليهودية والنصرانية ذاتيهما؟ ولماذا اتهام كتابيهما بوقوع العبث والتحريف فيهما؟ ولماذا دعوته أهليهما إلى اعتناق الإسلام؟ ثم لو كان الأمر كذلك فلِمَ تحدى القرآن العرب أن يأتوا بمثله أو حتى بعشر سور منه أو بسورة واحدة؟ لقد كان ينبغى أن يوجه هذا التحدى إلى أهل الكتاب لا إلى أهل الأوثان. أليس كذلك؟

وبالنسبة إلى قول المؤلف إن القرآنَ لم يكنْ يُمَثِّل للمسلمين قانونًا دقيقًا واضحًا فهو كذب صراح، إذ القرآن مفعم بالأحكام والمبادئ والتشريعات التى لابد للمسلم من الالتزام بها ككلامه عن معاملة اليتيم والفقير والمسكين، والزواج والطلاق، والربا والبيع والشراء، والسرقة والحرب والخمر والزنا والقمار والزكاة والتذكية والعبادات، إلى جانب العقيدة. أمعقول أنه لا يعرف ذلك؟ طبعا هو يعرفه، لكنه يكذب. يريد أن يُقِرّ فى نفوس المسلمين أن كتابهم لا يمثل أية أهمية فى الحياة. إنه كتاب هوية، والعرب عرب لا جدال فى ذلك. فما حاجتهم بعد هذا إليه؟ أما المسلمون من غير العرب فهم أكثر استغناء عن القرآن من العرب، إذ هو كتاب عربى للعرب لا لهم، ومن ثم ينبغى أن يطرحوه بعيدا عنهم ويتخلصوا منه ولا تعود لهم أية علاقة به.

وإذا كان القرآن كتاب هوية أراد محمد أن يثبت لأهل الكتاب به أن العرب لا يقلون عنهم شأنا، إذ ها هم أولاء قد صار لهم كتاب كما لهم هم كتاب، فلماذا عَنَّى نفسه

بتحريم الزنا مثلا رغم أن من أنبياء العهد القديم من مارسه أو تساهل فيه بكل أريحية دون خالجة من ندم أو أسف: ألم يقدِّم إبراهيم زوجته مقابل بعض المواشى لأبيمالك، الذى كان يريدها لنفسه، ولولا أن رأى فى المنام أنها زوجة إبراهيم لا أخته كما أخبره إبراهيم لكان ما كان مما لا داعى لذكره؟ ألم ينم لوط مع بنتيه وحملتا منه؟ ألم يمارس يهوذا بن يعقوب الزنا مع زوجة ابنه؟ ألم يزن داود بامرأة جاره وقائد جنده الوفى المخلص له، وزاد على ذلك فوضع خطة لقتله وتخلَّص منه كى يخلو له وجه امرأته، التى هى بالمناسبة أم سليمان؟ ألم يتزوج سليمان بالوثنيات محادَّةً لأوامر كتابه فى هذا الصدد، وساعدهن على عبادة الأوثان فى قصره؟ ألم يعتد أمنون بن داود على عرض أخته فى غرفة نومه بحيلة شيطانية مجرمة؟ ألم يقل المسيح عليه السلام ما معناه أنه ما من واحد من الجمهور الذى أتى ليشهد رجم الزانية إلا وارتكب الخطيئة مثلها، ولهذا لا داعى لرجمها؟ نعم، ما الذى أدخل محمدا فى هذا المأزق دون أدنى داع ما دام القرآن مجرد كتاب هوية للعرب كما يزعم هذا الشيطان الكذوب؟

وإذا كان القرآن كتاب هوية أراد محمد أن يثبت لأهل الكتاب به أن العرب لا يقلون عنهم شأنا، فلماذا عَنَّى نفسه بشرح ما كان موجزا من القرآن لأتباعه من خلال أحاديثه الشريفة واستكمال ما تركه القرآن لسبب أو لآخر بالحديث الشريف؟ ولماذا ترك القرآن ينزل على مدار ثلاثة وعشرين عاما، وكان يستطيع أن ينتهى من أمره دفعة واحدة دون انتظار الأسئلة التى يطرحها أتباعه يريدون الإجابة عنها، أو الحوادث التى تقع وتحتاج إلى تعليق عليها؟

وإذا كان القرآن مجرد كتاب هوية فلم تكرر فيه الإشادة بمعجزات أنبياء الكتاب المقدس فى حين أن محمدا كلما طلب منه قومه فى مكة معجزة كان رده: "سبحان ربى! هل

كنت إلا بشرا رسولا؟"؟ إن هذا معناه أن هوية أهل الكتاب ستكون لها الكفة الراجحة واليد العليا إزاء هوية العرب. يا ميت خسارة على الذى أراد الهوية فلم ينلها كما ينبغى! لقد كان الأحرى والأحجى بمحمد أن يغلق باب الحديث عن معجزات الكتاب المقدس حتى لا ينكشف عوار الهوية العربية التى لا توجد لها معجزات. وقد كان بإمكانه صلى الله عليه وسلم أن ينكر وقوع أية معجزة لأى نبى من قبله حتى لا يطالبه أحد بمعجزة فيكشف عجزه ومن ثم تضعف الهوية التى أراد كتابه تعضيدها، وعلى المتضرر اللجوء إلى الإثبات، وأنى له ذلك بعدما مضت المعجزات فى الزمان الأول ولم يعد لاسترجاعها أو مشاهدتها من سبيل؟ ولا يقل أحد إنه ما كان يجرؤ على تكذيب الكتاب المقدس، الذى كان يراه مثالا أعلى يعمل على تقليده حتى تكون لقومه هوية مثل أهل الكتاب. ذلك أن القرآن قد اتهم الكتاب المقدس بأنه قد تم تحريفه والعبث به، فماذا يكون إنكار ما فيه من معجزات بالنسبة إلى ذلك الاتهام، وبخاصة أنه ما من أحد فى العالم يستطيع أن يثبت صحة تلك المعجزات؟

كذلك إذا كان القرآن مجرد كتاب هوية بما يعنى أن كل كتاب إنما يعكس هوية أمته ولا يصلح لأية أمة أخرى فلم كفَّر محمد أهلَ الكتاب لأنهم لم يؤمنوا به وبكتاب هوية أمته؟ لقد كان كل همه، كما يدعى كاتبنا المدلس، تقليد كتاب القوم وإثبات أن العرب لهم كتاب هوية كما لهم هم كتاب، فكيف خرج على خطته والغاية التى يتغياها وتخطى الحدود والسدود والقيود وانتقدهم هم وكتابهم ووضعه على مائدة الاتهام قائلا إن زمانه قد ولى، وإن القرآن هو كتاب كل الأمم فى كل أرجاء المعمورة لهذا الزمان وكل زمان؟ إنه كتاب الهوية العربية طبقا لما يقوله هذا الشيطان، فلم تجاهل محمد ذلك وطار كل ذلك المطير؟ وقبل ذلك كله لم يا ترى يثق صاحبنا دائما بكلام القرآن والنبى حين يظن

أن هذا الكلام يخدم فكرته، ناسيا أنه شكك فى مصداقية النصوص التى كان يقرؤها النبى على المسلمين تشكيكا مطلقا؟- إبراهيم عوض).

٢- كان هدفُ واضعى القرآن متركِّزًا على الفاصلة (السجع فى نهاية الآية) لاستخدامِه فى الترتيل الطقسى. (بحسب كريستوف لوكسنبرغ فإنَّ كلمة "القرآن" مشتقة من السريانية "قريانا" qeryana ويعنى "كتاب الفصول" lectionnaire، وهو القراءات الكتابية الثابتة المستعملة فى إقامة رتبة القداس الإلهى على مدار السَّنَة. [انظر: دراسة فى لغة القرآن، روبرت ر. فينيكس الابن وكورنيليا ب. هورن، معابر، http://www.maaber.org/issue_august03/books6a.htm]) - محمد عبد الجليل).

(الشيطان يتحدث عن واضعى القرآن وليس عن واضع القرآن، الذى يزعم أعداء الإسلام أنه هو محمد. والشيطان الصغير حين يفعل ذلك يفعله كأنه أمر بديهى لا يحتاج إلى دليل. وهو كلام تافه وضعه على لسانه من يقفون خلفه ويأمرونه أمرا أن يذهب فيردده فى كل ما يكتب كأنه مسلمة من المسلمات معتمدين على أن الزَّنَّ على الآذان أمرٌ من السحر وأن التكرار يعلم الحمار من أمثاله. والتاريخ أمامنا، سواء التاريخ الذى كتبه المسلمون أو غير المسلمين، وليس فيه إلا الكلام عن محمد والقرآن الذى أتى به محمد بغض النظر عن إيمان المؤمن به أو كفر الكافر. فمن أين لهذا الأحمق هذا السخف؟ إنه كريستوف لوكسنبرج المجهول الهوية، والذى قرأت مع ذلك أنه سورىٌّ متخفٍّ تحت هذا الاسم. وقد سبق أن رددنا على هذه النقطة فى موضع سابق من هذه الدراسة، لكننا نود هنا أن نتناول الدعوى القائلة بأن كلمة "القرآن" إنما هى كلمة "القريانة" السريانية.

وسوف أصدق مؤقتا لوكسنبرج، الذى يتبع المؤلف خطاه كما يتبع القرد مدربه، فى أن الكلمتين شىء واحد. لكن السؤال الذى يطرح نفسه هنا هو: لم يا ترى ينبغى أن نقول باستعارة العربية لها من السريانية؟ بل لم لا نقول إن السريانية هى التى استعارت مادتها (مادة "ق ر أ") من لغة الضاد، وبخاصة فى ضوء ما يقوله بعض المتخصصين فى اللغات السامية من أن العربية هى اللغة الأم التى انبثقت منها الآرامية والسريانية والعبرية وغيرها من اللغات السامية؟ فإذا ما تبين لنا أن كلمة "القرآن" مشتقة من "ق ر أ"، وكانت مادة "قرأ" موجودة فى العربية على نطاق واسع، وكان وزن "فُعْلان" منتشرا فيها انتشارا كبيرا كـ"برهان، وفرقان، وتكلان، وحسبان، وعمران، وبنيان، وجردان، وفقدان..."، إضافة إلى أنها ليست بنفس النطق والمعنى فى السريانية، كان لنا أن نقول إن لوكسنبرج يتساخف فى كلامه. وإذا كان محمد قد استعار تلك اللفظة رغم ذلك من السريانية محولا إياها خطأً من "قريانة" إلى "قرآن"، وهم يقولون إن محمدا كان يستعين بسريان فى تأليف قرآنه، فكيف يا ترى نعلل ذاك الخطأ فى الوقت الذى كان حوله سريان أصلاء؟ ترى لماذا لم يصلحوه له؟ بل لماذا يقع ذلك الخطأ أصلا، وهم موجودون؟

والمعروف أن الرسول عليه السلام كان حريصا على إبعاد أى تأثير يهودى أو نصرانى عن دينه حتى إنه، حين فكر مثلا فى طريقة لدعوة المسلمين إلى الصلاة، واقترح عليه بعضهم النفخ فى الشبور كما يفعل اليهود، أو قَرْع الجرس على النحو الذى يصنع النصارى، رفض هذا وذاك، واستقر الأمر على الاستفادة من الصوت الإنسانى الجميل الرقراق. كما أنه قد أمر أتباعه أن تكون لحاهم مخالفة للحى غيرهم حسبما هو معروف. وهناك حديث يحض على الصلاة فى النعال، وصيام تاسع المحرم مع عاشره جميعا مخالفةً لليهود. وكان اليهود إذا حاضَتِ المرأةُ فيهم لم يُؤَاكِلُوهَا ولم يُجَامِعُوها فى

البيوتِ، فسأل أصحابُ النبى صلى الله عليه وسلم النبى، فأنزلَ اللهُ تعالى: "ويسألونك عن المحيض. قل: هو أذى. فاعتزِلوا النساءَ فى المحيض"... إلى آخر الآية. فقال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: اصْنَعُوا كلَّ شىء إلا النكاحَ. فبَلَغَ ذلك اليهودَ، فقالوا: ما يريد هذا الرجلُ أَنْ يَدَعَ من أمرِنَا شيئًا إلا خالفَنا فيه. وفى المدينة نزل الوحى بتغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة بعدما كان المسلمون فى مكة يستقبلون الكعبة وبيت المقدس معا فى ذات الوقت قائمين إلى الجنوب من الكعبة بحيث تكون بينهم وبين بيت المقدس فى الصلاة، فيستقبلون الاثنين جميعا، وبعدما صَلَّوْا بعض الوقت إلى الشمال حين لم يعد ممكنا الصلاة إلى الكعبة وبيت المقدس فى نفس الوقت، أتى الوحى بالتحول فى الصلاة إلى جهة الجنوب نحو مكة حيث يقوم البنيان الذى شاده من قديمٍ أبوهم إبراهيم.

وفوق هذا فإن القرآن ينتقد النصارى انتقادا شديدا ويتهمهم بالتلاعب بكتابهم ونسيان حظ مما ذُكِّروا به ويهاجمهم لإشراكهم السيد المسيح فى الألوهية، فكيف يقال إن الرسول قد أخذ "القرآن" من "قِرْيانة" السريانية النصرانية؟ وهذا إن كان، ولا يمكن أن يكون، هناك سريان فى مكة، فضلا عن أنه لم يكن حوله سريان فى أى مكان أو زمان ولا كان يعرف سريانا فى يوم من الأيام ولا استعان بأحد من السريان فى صياغة قرآنه، ببساطة لأن القرآن كتاب سماوى جاء من عند رب العالمين. وهذا ما يحاول المستشرقون والمبشرون إثارة الضجيج حوله بهذه البهلوانيات المضحكة التى مكانها الوحيد المناسب هو السيرك. ثم لماذا السريانية بالذات؟ هل فيها سرٌّ باتعٌ جعلت لوكسنبرج يختارها هى بالذات دون غيرها من اللغات ساميّة كانت أو حاميّة؟ إن لوكسنبرج مدربَ قردنا السورى يقول بوجود السريانية آنذاك فى الشام والعراق فقط، ومن ثم كان سؤالنا المشروع: إذا كان موطن السريانية على هذا البعد الشاسع من مكة حيث ظهر محمد

والقرآن فكيف يا ترى يفسر تأثر القرآن بها؟ وأين الدليل على ذلك التأثر؟ ومتى تم؟ ومن كان الوسيط أو الوسطاء الذين أخذ محمد السريانية عنهم وأدخلها قرآنه؟ وفى أية ظروف كان ذلك؟ ولماذا سكت معلموه أو معاونوه عن ذكر دورهم، وقبعوا فى الظلام والخفاء ونسجت عليهم العنكبوت بيتها ونسيهم العالم أجمع؟ بل لماذا خرس سائر سريان الشام كلهم طوال تلك القرون فلم يحاولوا فضح هذه اللعبة المحمدية؟

والعجيب أن لفظى "السريانية" و"السريان" لا وجود لهما لا فى الشعر الجاهلى ولا فى شعر المخضرمين ولا فى شعر صدر الإسلام بما فى ذلك شعر أمية بن أبى الصلت المتصل بكتب أهل الكتاب ولا فى القرآن ولا فى السيرة. ويؤكد البروفسير دانيال كينج، أستاذ اللغة السريانية- الآرامية بجامعة كارديف، فى بحثه: " A Christian Qur'an؟" أن فى كلام لوكسنبرج عن الألفاظ السريانية المزعومة فى القرآن ما يدل على اضطراب علمه بتلك اللغة، وعلى تسرعه وتعسفه فى استنتاج نتائجه. بل لقد لاحظ أن بعض تلك الألفاظ لا وجود لها أساسا فى لغة السريان.

ثم إن القرآن يكرر فى كل المناسبات أنه قرآن عربى نزل بلسان عربى: "وما أرسلنا من رسولٍ إلا بلسان قومه ليبيِّن لهم"، "بلسانٍ عربى مُبِينٍ"، "قرآنًا عربيًّا غيرَ ذى عِوَج"، "ولو جعلناه قرآنا أعجميًّا لقالوا: لولا فُصِّلَتْ آياتُه؟ أأعجميٌّ وعربىٌّ؟". فلو كان القرآن سريانيا لهب أهل مكة والعرب جميعا، وعلى رأسهم اليهود والنصارى، يصرخون فى وجه النبى عليه السلام متهميه بالكذب الصراح قائلين: كيف تجرؤ على أن تنكر الحقائق الساطعة سطوع الشمس فى وضح النهار وتقول إن القرآن الذى أتيتنا به قرآن عربى فى حين أنه سريانىٌّ؟ هل تظن أننا نائمون على صماخ آذاننا فلا نعرف أن فلانا وفلانا وفلانا من السريان يعينونك فى تأليف قرآنك؟ الحق أنى لا أدرى كيف تواتى بعضَ

الناس الوقاحةُ فيتهموا القرآن الكريم بأنه يمتح من المعجم السريانى، ويجرى على قواعد النحو السريانى، بينما هو يتبع نحو العرب ومعجم العرب وتعابير العرب وصور العرب وتراكيب العرب.

ونعود إلى مناقشة دعوى سريانية كلمة "قرآن" فنقول إن "قرآن" مصدر مشتق من مادة "ق ر أ"، وألفاظ هذه المادة كثيرة فى القرآن الكريم، ومعظمها مرتبط بقراءة القرآن: "وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ" (الأعراف/ ٢٠٤)، "فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ" (النحل/ ٩٨)، "وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا" (الإسراء/ ١٣- ١٤)، "وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا" (الإسراء/ ٤٥)، "وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلا" (الإسراء/ ١٠٦)، "وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ" (الشعراء/ ١٩٨- ١٩٩)، "إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" (المزمل/ ٢٠)، "لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ" (القيامة/ ١٦- ١٨)، "وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ" (الانشقاق/ ٢١).

ومن شواهد شعر تلك الفترة فى هذا المجال البيتان التاليان لشاعرين أحدهما لم يسلم قط، وهو أمية بن أبى الصلت، والثانى لم يكن أسلم بعد، وهو كعب بن زهير. يقول أمية:

كِتابًا مِنَ الله نَقْرَا بِهِ – فَمَنْ يَعْتَرِيهِ فَقِدْمًا أَثِمْ

ويقول كعب:

يَسْقِينَ طُلْسًا خَفِيّاتٍ تَراطُنُها – كَما تَراطَنُ عُجْمٌ تَقرَأُ الصُّحُفا

ومن استعمال العرب آنذاك لكلمة "قرآن" بمعنى الكلام المقروء، وهو المعنى اللغوى لا الاصطلاحى، ما جاء فى "اتفاق المبانى وافتراق المعانى" للدقيقى من أن أبا بكر سأل عن "قرآن" مسيلمة، أى الكلام الذى كان يزعم أنه ينزل عليه من السماء ويقرؤه على أتباعه. وفى "البداية والنهاية" لابن كثير خبر آخر عن هذا الموضوع وردت فيه لفظة "قرآن" بنفس المعنى. وفى "المثل السائر" لابن الأثير وصف لكتاب "الشاهنامة" بأنه "قرآن القوم". وبهذا يظهر لكل من له عينان حماقة محمد عبد الجليل– إبراهيم عوض).

(٣– تشير بعضُ الأخطاء إلى نقص الإمكانيات المادية والفكرية آنذاك. فنسخُ كِتابٍ لا خطأَ فيه لم يكنْ وَقْتَئذٍ بالأمر السهل. بالإضافة إلى أنَّ قواعدَ الإملاء لم تكنْ قد نضجَتْ بعدُ ("فكانَ الخطُّ العربى لأول الإسلام غيْرَ بالغٍ إلى الغاية من الإحكام والإتقان والاجادة" [تاريخ ابن خلدون، ج١، ص ٤١٩]). كما أنَّ جَهْلَ النُّسَّاخِ بكثيرٍ من سياقات النص القرآنى يزيد من احتمال وقوع الأخطاء.

٤– إنْ كان استخدامُ عبارة "يوم عقيم" مقصودًا (وبالتالى لا يُعَدُّ خطأ) فعندئذٍ يشير على الأرجح إلى أنَّ العبارةَ مترجمةٌ من لغة أخرى إلى العربية لأنَّ هذا الاستخدامَ غيرُ

مألوف فى العربية. وفى حالِ توفُّرِ مَصْدرِ العبارة يمكننا أنْ نفهمَ مقصدَها فهمًا أفضل. إلا أنه مِن المرجَّحِ وجودُ خطأٍ إملائى غيرِ مقصودٍ فيها- محمد عبد الجليل).

(من شواهد استعمالات كلمة "عقيم" مجازيا فى الأدب العربى قول هوبر الحارثى:

تزوَّدَ منا بين أذناه ضربةً دعته إلى هابِي التراب عقيمِ.

وقول أبى تمام:

وَلِلكَذَجاتِ كُنْتَ لِغَيْرِ بُخْلٍ عَقيمَ الوَعْدِ مِنْتاجَ الوَعيدِ

وقول إبراهيم بن العباس الصولى:

إذا السَّنَة الشَّهباءِ مَدّت سَماءَها مَدَدْتَ سَماءً دونها فَتَجَلّتِ

وَعادَت بِكَ الرِّيحُ العَقيمُ لَدى القِرَى لِقاحا فَدرّت عَن نداك وَطَلّتِ

* * *

لَيْسَ يَأْتِى بِمِثْلِهِ الدَّهْرُ فَضْلا هُوَ عَنْ ذَاكَ غَيْرَ شَكٍّ عَقِيمُ

وقول السرىّ الرفاء:

وقد كنتُ أُدْعَى: شاعرا بك مُفلِقا فعُدْتُ عقيمَ الفِكرِ بعدَك مُفحَما

وقول ابن الرومى:

فتقولون: من يرومُ ركوب الـــــبحْرِ لا سيَّما مَهَبَّ العقيم؟

* * *

فجادتْ سماءُ اللّه جُودا غدتْ له عَقِيمُ بِقاع الأرضِ مثلَ وَلُودِها

وقول ابن نباتة السعدى:

ولم أعلمْ بأنّ الرزقَ خصمى وأنّى صاحبُ الجَدِّ العَقيمِ

وقول الشريف الرضى:

تَنْظُرُ فى أَثناءِ أَوطانِنا لِقاحَ جُودٍ للرجاءِ العَقيمْ

وقول مهيار الديلمى:

فقمتُ على ظلٍّ من الأنس باردٍ ومن هيبةِ المُلْك العقيم على الجمرِ

* * *

فما أَشِروا مع القَدَرِ المُوَالى ولا بَطِروا على المُلْك العقيمِ

* * *

لك حبّى حُزْتَه أكرمتُه عن عقيم اليدِ مولود العِلَلْ

وقول ابن حيوس:

يُفْضِى إِلى الشمسِ العقيمِ كُسُوفُها وَنَراكَ شمسا أُفْقُها لَم يُظْلِمِ

وقول صردر بن صربعر:

وما الناسُ إلا كالبحور: فبعضُها عقيمٌ، وبعضٌ معدنٌ للجواهرِ

وقول النعمان بن المنذر: "الملك عقيم"، أى لا أرحام بين الملوك وبين أحد، وقول أبى منصور الثعالبى فى "لباب الآداب": "خط سقيم، وخاطر عقيم"، وقوله فى "تحسين القبيح وتقبيح الحَسَن": "مالٌ عقيمٌ خيرٌ من أدبٍ وَلُودٍ"، وقول ابن رشيق فى "العمدة": "هذا الشعر عندهم عقيم"، وقول ابن الجوزى فى "المدهش": "ضمانك عقيم، ووعدك عاقر"، وقول السرىّ الرفاء فى "المحب والمحبوب": "وألقحا الطبع العقيم بنتاج الأدب"، "العقل العقيم"، وقول المرزوقى فى "شرح ديوان الحماسة": "رجل عقيم"، أى لا شبيه له، وفى "محاضرات الأدباء" للراغب الأصفهانى: "الهمة تُلْقِح الجَدَّ العقيم"... وغير ذاك كثير. وقبل هذا كله يقول القرآن المجيد فى سورة "الأحقاف" عن العقاب الذى أخذ الله به قبيلة عاد: "وفى عادٍ إذْ أرسلنا عليهم الريحَ العقيم * ما تَذَرُ من شىءٍ أَتَتْ عليه إلا جعلتْه كالرميم". وعن ابن عباس "أخذَتْهُم (أي المشركينَ) يومَ بدرٍ ريحٌ عقيمٌ".

وفى "أساس البلاغة" للزمخشرى: "تقول: فلانٌ شرّه مقيم، وهو من الخير عقيم. ويقال: امرأة عقيم ومعقومة، وقد عُقِمَتْ وعَقِمَتْ وعقُمتْ. ومن المستعار: ريح عقيم. والدنيا عقيم لا ترد على صاحبها خيرا. وعقل عقيم: لا ينفع صاحبه. وفي الحديث المرفوع: "العقل عقلان: فأما عقل صاحب الدنيا فعقيم، وأما عقل صاحب الآخرة فمثمر". و"الملك عقيم": لا ينفع فيه نسب. وداء عُقَام: لا يرجى البرء منه، وتقول: بلاه بالسقام، ورماه بالداء العقام. وحرب عُقَام: لا يلوى فيها أحد على أحد. ورجل عقام الخلق أي ضيِّقه. وسئل هذليّ عن حرفٍ من الغريب، فقال: هذا كلام عقميٌّ، أي عويص لا يعرف وجهه. وكلمات عقم. وقال زهير:

هم جدّدوا أحكام كلّ مضلةٍ من العقم لا يُلْقَى لأمثالها فَصْلُ

وعاقمه: خاصمه وشادّه. ويقال للفرس: إنه لشديد المعاقم إذا كان شديد معاقد الأرساغ"- إبراهيم عوض).

(٥- ليس مِن المستغرَبِ وجودُ أخطاءٍ فى نصٍّ كالقرآن، بل مِن المستغرَبِ عدمُ وجودِ نقدٍ لأخطائه. فعدمُ وصول أى نقد لأخطاء القرآن من خصوم محمد إلينا (إلا النزر اليسير مما نقلَه القرآنُ وفقهاء المسلمين) يدلُّ على حجم العنف والدكتاتورية فى فرضِ النص القرآنى. فالتاريخ نقلَ لنا أنَّ محمدًا لم يتهاون مع منتقدى القرآن إذْ عفا عن أسرى المشركين وأصرَّ على قتل النضر بن الحارث صبرًا (بحرمانه من الشرب والأكل) لأنه انتقدَ القرآن وفضحَ مصادرَه- محمد عبد الجليل).

(هذا رجل يتنفس الكذب تنفسا، ولا يستطيع أن يعيش دون أن يكذب، فمثله كمثل السمكة والماء: إن غادرتْه ماتت. ويتلخص كذبه فى دعواه بأن النضر بن الحارث قد انتقد القرآن وفضح مصادره. إن شيئا من ذاك لم يحدث، إذ كل ما عمله هو أنه كان يتتبع النبى بمكة، فكلما تلا الرسول على الناس شيئا من الوحى جلس النضر مكانه وفتح كتابا معه يشتمل على بعض الحكايات الفارسية من أخبار ملوك الفرس وقوادهم، وقرأ منه زاعما أن حديثه أفضل من قرآن محمد. تقول سيرة ابن هشام: "كان النضر بن الحارث من شياطين قريش وممن كان يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم وينصب له العداوة. وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم وإسبنديار، فكان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسا فذكَّر فيه بالله وحذَّر قومه ما أصاب مَنْ قبلهم مِنَ الأمم مِنْ نقمة الله خَلَفَه فى مجلسه إذا قام ثم قال: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثا منه، فهلمَّ إلى، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه. ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم وإسبنديار ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثا منى؟ قال

بن هشام: وهو الذى قال فيما بلغنى: "سأنزل مثل ما أنزل الله". قال ابن إسحاق: وكان ابن عباس رضى الله عنهما يقول فيما بلغنى: نزل فيه ثمانى آيات من القرآن: قول الله عز وجل "إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين". وكل ما ذكر فيه من الأساطير من القرآن". فأين الفضح الذى فضح به النضر مصادر القرآن؟ ألا يعلم هذا الأفاك الأفاق لا يتضمن أى شىء من تاريخ الفرس أو من الحديث عن ملوكهم وزعمائهم وقوادهم وأنبيائهم؟ بلى هو يعلم ذلك، ولكنه يوجه الاتهامات إلى النبى الكريم كذبا وزورا. ثم أين الانتقاد الذى وجهه النضر إلى القرآن؟ هل حلل شيئا من آياته أو سوره وبين ما فيها من مآخذ ومعايب ووضح كيف كان يمكن أن تكون أفضل؟ أبدا. إذن فكلام الكاتب كلام فارغ.

ولقد ظل النضر على عداوته للإسلام، وكان أحد كبار المشركين القرشيين المنظِّمين لمقاطعة بنى هاشم فى شِعْب أبى طالب والمشرفين على تنفيذها ومعاقبة كل من يفكر فى الخروج عليها بتوفير الطعام للمساكين المحاصَرين فى الشعب عطفا ورحمة، إلى أن مات عقب غزوة بدر، التى كان أحد من تَوَلَّوْا كِبْرَها من القرشيين وممن تم أَسْرُهم، وكان يتصل هو وأمثاله من مشركى مكة باليهود ويشترك معهم فى التآمر على الرسول ودينه وأصحابه. وبالمناسبة فقد أسلم ابنه النضير وانحاز إلى الصدق والعقل هاجرا الأصنام، وترك مكة إلى المدينة. كما أسلمت ابنته (أو أخته) قتيلة يوم الفتح. هذا ما يقوله التاريخ لا الذى يلفقه محمد على عبد الجليل من أحقاده وأوهامه- إبراهيم عوض).

(٦- لقد وظَّفَ المفسِّرون بعضَ الأخطاء لإظهار إعجاز القرآن أو لزرع أفكار تهدف إلى السيطرة على المجتمع أو للإشارة إلى تفوُّق سياسى أو عسكرى. فقد وظَّفوا الخطأَ المحتمَل ("يوم عقيم") لرفع درجة الخوف لدى المجتمع الإسلامى من يوم القيامة إنْ لم

يستسلِموا للهِ، أى للسلطانِ "ظِلِّ اللهِ فى أرضه"، فقالوا بأنَّ "اليوم العقيم" هو الذى لا ليلَ فيه أو الذى لا خيرَ فيه أبدًا. وربما أرادوا أنْ يبثُّوا الرعبَ فى الخصم فأشاروا من خلال تفسيرهم لهذا الخطأ اللغوى إلى يوم بدر يومِ انتصار "المسلمين" على "المشركين"- محمد عبد الجليل).

(إذن فتعبير "يوم عقيم" له معنى، ويبعث الرعب فى القلوب يا كذاب. ألم تقل قبلا إنه تعبير ليس له معنى، وإن أصله "يوم عظيم" لكن حدث خطأ نسخى؟ و مع هذا فهل تعبير "يوم عظيم" أو "يوم أليم" يبعث على البهجة والانشراح ويلقى الطمأنينة فى قلوب المسلمين بالنسبة لليوم الآخر فلا يرتعبون منه؟ ثم ماذا يفعل تعبيرٌ لم يستعمل سوى مرة واحدة إزاء آخر استعمل مرات ومرات؟ وما علاقة الحاكم بقوله تعالى: "وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (٥٥) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٥٦) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٥٧) وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨) لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (٥٩)" حتى يزعم الكذاب القرارى أنه قد أريد به إرعاب المسلمين من معارضة السلطان، الذى هو ظل الله فى الأرض؟ وكيف يمكن أن يفهم المسلمون ذلك من هذا النص القرآنى الكريم، والقرآن هو الذى يقول عن محمد ذاته إنه لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا يعلم الغيب وإنه مجرد بشر وعبد لله كبقية عباد الله، وسوف يحاسَب مثلهم، وإنه ليس بجبار على أحد، وإن استشارته للناس من حوله واجب لا يمكنه الفكاك منه؟ واضح أن الكاتب لا يجد ما يقوله فيلجأ إلى هذه الأفكار الطفولية يحشو بها ثغرات كلامه - إبراهيم عوض)

(٧- تشير الأخطاءُ فى القرآن إلى تقديس أتباع محمَّد للرسم القرآنى العثمانى (طريقة كتابة القرآن فى مصحف عثمان)، إضافةً إلى تقديسهم للنص القرآنى نفسِه. ولذلك لم يُغيِّروا الأخطاءَ الواردةَ فيه، بل أعطَوها معنى. وهو ما أشار إليه ابنُ خلدونَ بقوله: وانظُرْ ما وقَعَ [...] فى رسْمِهِمُ المصْحفَ حيثُ رسَمَه الصحابةُ بخطوطهم، وكانت غيرَ مستحكِمةٍ فى الإجادة، فخالَفَ الكثيرُ من رسومهم ما اقتضَتْه أقْيِسةُ رسومِ صناعةِ الخط عند أهلها. ثم اقتفى التابعون مِن السلف رسْمَهم فيها تبرُّكًا بما رسَمَه أصحابُ الرسول [...] المتَلقُّون لِوَحْيِه مِن كِتاب الله وكلامِه كما يُقْتَفى لهذا العهد خطُّ ولى أو عالِمٍ تبرُّكًا ويُتَّبَعُ رسْمُه خطأً أو صوابًا. وأين نسبةُ ذلك من الصحابة فيما كتبوه، فاتُّبِعَ ذلك وأُثْبِتَ رسمًا، ونَبَّهَ العلماءُ بالرسم على مواضعه؟ ولا تَلْتَفِتَنَّ فى ذلك إلى ما يزعمُه بعضُ المغفَّلين مِن أنهم كانوا محكِمين لصناعة الخط وأنَّ ما يُتَخيَّلُ من مخالفة خطوطهم لأصول الرسم ليس كما يُتَخَيَّل بل لكلِّها وجهٌ. يقولون فى مِثْلِ زيادة الألف فى "لأَاْذبَحَنَّهُ" [سورة النمل، ٢١] إنه تنبيهٌ على أنَّ الذبح لم يَقعْ، وفى زيادة الياء فى "بِأَييْدٍ" [الذاريات، ٤٧] إنه تنبيهٌ على كمال القدرة الربانية، وأمثال ذلك مما لا أصلَ له إلا التحكُّم المحض. وما حمَلَهم على ذلك إلا اعتقادُهم أنَّ فى ذلك تنزيهًا للصحابة عن توهُّمِ النقصِ فى قلَّة إجادة الخط. وحسِبوا أنَّ الخطَّ كمالٌ فنزَّهوهم عن نقصِه ونسبوا إليهم الكمالَ بإجادته وطلبوا تعليلَ ما خالفَ الإجادةَ مِن رسْمِه، وذلك ليس بصحيح. واعلمْ أنَّ الخطَّ ليس بكمالٍ فى حقهم إذِ الخطُّ مِن جملة الصنائع المدنية المعاشية [...]. والكمالُ فى الصنائع إضافى، وليس بكمالٍ مطلق، إذْ لا يعودُ نقصُه على الذات فى الدين ولا فى الخِلال، وإنما يعود على أسباب المعاش وبحسب العمران والتعاون عليه لأجل دلالته على ما فى النفوس[١].

٨- بالنسبة لأخطاء الانتقال المفاجئ من ضمير المتكلِّم الجمع إلى ضمير المتكلِّم المفرد أو العكس (استخدام "أنا"/"ـى" و"نحن"/"ـنا" للإشارة لشخص واحد هو المتكلِّم) وكذلك الانتقال من صيغة الغائب إلى صيغة المخاطب أو العكس للإشارة إلى عائد واحد والتى يُدرِجُها النحاةُ والمفسِّرون ضِمْنَ أسلوب "الالتفات" énallage البلاغى، مِنَ المحتمَلِ أنْ يكونَ أحدُ أسباب بعض هذه الأخطاءِ هو عدمُ معرفةِ واضعى القرآن لعائد بعض الضمائر فى النص الأصلى المنقول عنه. فمثلا قد يعود ضمير المتكلم فى سِفْر المزامير (Livre des Psaumes) إلى داوود أو إلى الله أو إلى الكاتب أو الراوى. ففى الآيتين المذكورتَين سابقًا (مزمور، ٤٩: ٥) و(مزمور ٥٦: ٧)، لا نعرِفُ بالضبط على من تعود ياءُ المتكلم فى الكلمة العِبْرِيّة المذكَّرة الجمع (עֲקֵבַי) ("آثارِى" أو "تعقُّباتِى"). من هو الراوى؟ وبالتالى فمن المرجَّح أنَّ الالتباسَ فى عائديةِ بعضِ الضمائر فى النص الأصلى (المِصْدَر) المفترَض قد ظَهَرَ على شكلِ تخبُّطٍ فى استخدام الضمائر فى النص العربى المترجَم (الهدَف)، أى على شكلِ انتقالٍ من ضمير إلى ضمير بصورة عشوائية على الأرجح. ولكنَّ السبب الأول والرئيسى للتخبُّط فى استعمال الضمائر هو تجميع قُصاصات القرآن تجميعًا عشوائيًا من عدة نصوص وسياقات.

(هنا يبلغ الرجل الغاية فى الفجور، فهو يعيب الالتفات مع أنه من أجمل الوسائل البلاغية فى الإبداع والإمتاع. ترى هل هناك من يعيب الالتفات كمبدإ إلا إذا كان غليظ الذهن متبلد الإحساس لا يستطيع أن يتذوق روائع الأدب كبقية البشر الراقين؟ ليس ذلك فقط بل إنه يلقى الاتهامات يمينا وشمالا دون أن يعطينا أمثلة على ما يقول حتى ننسفه ونذروه هو وأمثلته فى الهواء ككل ما ذكره فى مقاله المتهافت.

وهأنذا أورد نصين من الكتاب المقدس يظهر فيهما بكل وضوحٍ الالتفات، الذى يعيبه هذا المتخلف، وهو ليس قرآنا، ولا صائغو ترجمته مسلمين، ولا هم متأثرين بلغة القرآن، بل يحرصون على أن يتجنبوا السير على خطا "الجملة القرآنية" حرصا شديدا. ومُرَاجِع الترجمة هنا هو المعلم بطرس البستانى اللغوى اللبنانى الشهير. والنص الأول مقتبس من الإصحاح التاسع والعشرين من سفر "التثنية"، والثانى مأخوذ من المزمور الحادى والثمانين. وهما من من ترجمة فانديك.

وهذا هو النص الأول: "٢وَدَعَا مُوسَى جَمِيعَ إِسْرَائِيلَ وَقَالَ لَهُمْ: «أَنْتُمْ شَاهَدْتُمْ مَا فَعَلَ
الرَّبُّ أَمَامَ أَعْيُنِكُمْ فِي أَرْضِ مِصْرَ بِفِرْعَوْنَ وَبِجَمِيعِ عَبِيدِهِ وَبِكُلِّ أَرْضِهِ، ٣التَّجَارِبُ
الْعَظِيمَةُ الَّتِي أَبْصَرَتْهَا عَيْنَاكَ، وَتِلْكَ الآيَاتِ وَالْعَجَائِبَ الْعَظِيمَةُ. ٤ولكِنْ لَمْ يُعْطِكُمُ
الرَّبُّ قَلْبًا لِتَفْهَمُوا، وَأَعْيُنًا لِتُبْصِرُوا، وَآذَانًا لِتَسْمَعُوا إِلَى هذَا الْيَوْمِ. ٥فَقَدْ سِرْتُ بِكُمْ
أَرْبَعِينَ سَنَةً فِي الْبَرِّيَّةِ، لَمْ تَبْلَ ثِيَابُكُمْ عَلَيْكُمْ، وَنَعْلُكَ لَمْ تَبْلَ عَلَى رِجْلِكَ. ٦ لَمْ تَأْكُلُوا
خُبْزًا وَلَمْ تَشْرَبُوا خَمْرًا وَلاَ مُسْكِرًا لِكَيْ تَعْلَمُوا أَنِّي أَنَا الرَّبُّ إِلهُكُمْ. ٧وَلَمَّا جِئْتُمْ إِلَى هذَا
الْمَكَانِ خَرَجَ سِيحُونُ مَلِكُ حَشْبُونَ وَعُوجُ مَلِكُ بَاشَانَ لِلِقَائِنَا لِلْحَرْبِ فَكَسَّرْنَاهُمَا،
٨وَأَخَذْنَا أَرْضَهُمَا وَأَعْطَيْنَاهَا نَصِيبًا لِرَأُوبَيْنَ وَجَادَ وَنِصْفِ سِبْطِ مَنَسَّى. ٩فَاحْفَظُوا
كَلِمَاتِ هذَا الْعَهْدِ وَاعْمَلُوا بِهَا لِكَيْ تُفْلِحُوا فِي كُلِّ مَا تَفْعَلُونَ.

١٠«أَنْتُمْ وَاقِفُونَ الْيَوْمَ جَمِيعُكُمْ أَمَامَ الرَّبِّ إِلهِكُمْ: رُؤَسَاؤُكُمْ، أَسْبَاطُكُمْ، شُيُوخُكُمْ
وَعُرَفَاؤُكُمْ وَكُلُّ رِجَالِ إِسْرَائِيلَ، ١١وَأَطْفَالُكُمْ وَنِسَاؤُكُمْ، وَغَرِيبُكُمُ الَّذِي فِي وَسَطِ مَحَلَّتِكُمْ
مِمَّنْ يَحْتَطِبُ حَطَبَكُمْ إِلَى مَنْ يَسْتَقِي مَاءَكُمْ، ١٢لِكَيْ تَدْخُلَ فِي عَهْدِ الرَّبِّ إِلهِكَ
وَقَسَمِهِ الَّذِي يَقْطَعُهُ الرَّبُّ إِلهُكَ مَعَكَ الْيَوْمَ، ١٣لِكَيْ يُقِيمَكَ الْيَوْمَ لِنَفْسِهِ شَعْبًا، وَهُوَ
يَكُونُ لَكَ إِلهًا كَمَا قَالَ لَكَ، وَكَمَا حَلَفَ لآبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ". ولا شك

أن القارئ قد لاحظ كيف تحوَّل فى النص ضمير جماعة المخاطبين الذكور إلى ضمير المخاطب المفرد المذكر، والعكس بالعكس، كما تكرر تحول ضمير جماعة المتكلمين (الله) إلى ضمير المتكلم المفرد، والعكس بالعكس. بل انظروا كيف انتقل الكلام فى بدايات النص من السرد الموسوى إلى الخطاب الإلهى لبنى إسرائيل دون تمهيد بل فى لمحة واحدة وعلى حين بغتة.

ثم هذا هو النص الثانى، والخطاب فيه موجه من الله إلى بنى إسرائيل: "٨«اِسْمَعْ يَا شَعْبِي
فَأُحَذِّرَكَ. يَا إِسْرَائِيلُ، إِنْ سَمِعْتَ لِي! ٩لاَ يَكُنْ فِيكَ إِلهٌ غَرِيبٌ، وَلاَ تَسْجُدْ لإِلهٍ أَجْنَبِيٍّ.
١٠أَنَا الرَّبُّ إِلهُكَ، الَّذِي أَصْعَدَكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ. أَفْغِرْ فَاكَ فَأَمْلأَهُ. ١١فَلَمْ يَسْمَعْ
شَعْبِي لِصَوْتِي، وَإِسْرَائِيلُ لَمْ يَرْضَ بِي. ١٢فَسَلَّمْتُهُمْ إِلَى قَسَاوَةِ قُلُوبِهِمْ، لِيَسْلُكُوا فِي
مُؤَامَرَاتِ أَنْفُسِهِمْ. ١٣لَوْ سَمِعَ لِي شَعْبِي، وَسَلَكَ إِسْرَائِيلُ فِي طُرُقِي، ١٤سَرِيعًا كُنْتُ
أُخْضِعُ أَعْدَاءَهُمْ، وَعَلَى مُضَايِقِيهِمْ كُنْتُ أَرُدُّ يَدِي. ١٥مُبْغِضُو الرَّبِّ يَتَذَلَّلُونَ لَهُ،
وَيَكُونُ وَقْتُهُمْ إِلَى الدَّهْرِ. ١٦وَكَانَ أَطْعَمَهُ مِنْ شَحْمِ الْحِنْطَةِ، وَمِنَ الصَّخْرَةِ كُنْتُ
أُشْبِعُكَ عَسَلاً»". وواضح كيف يتحول كاف الخطاب إلى ضمير جماعة المخاطبين الذكور، وتاء المتكلم إلى ضمير المفرد الغائب... وهكذا. ولنلاحظ أيضا أن هذه الالتفاتات موجودة فى الأصل المترجم إلى العربية، ولم يخترعها المترجمون كما هو معروف. وهذا كله يبرهن بأجلى بيان أن الكاتب مجرد ببغاء يردد ما يؤمر بترديده دون فهم أو تبصر. فخيبة الله على الأغبياء الضالين.

وهاتان ترجمتا النصين بالإنجليزية (English Standard Version) والفرنسية (Louis Segon, 1910)، وسوف يرى القارئ بنفسه أن الالتفات موجود فيهما

أيضا، وأنهما انعكاس لما هو موجود فى الأصل القديم، بما يدل على أنه أداة بلاغية عالمية، وهو ما ينكره بل يعيبه هذا الأحمق.

And Moses summoned all Israel and said to them: ٢" "You have seen all that the LORD did before your eyes in the land of Egypt, to Pharaoh and to all his servants and to all his land, 3 the great trials that your eyes saw, the signs, and those great wonders. 4 But to this day the LORD has not given you a heart to understand or eyes to see or ears to hear. 5 I have led you forty years in the wilderness. Your clothes have not worn out on you, and your sandals have not worn off your feet. 6 You have not eaten bread, and you have not drunk wine or strong drink, that you may know that I am the LORD your God. 7 And when you came to this place, Sihon the king of Heshbon and Og the king of Bashan came out against us to battle, but we defeated them. 8 We took their land and gave it for an inheritance to the Reubenites, the Gadites, and the half-tribe of the Manassites. 9 Therefore keep the words of this covenant and do them, that you may prosper in all that .you do

You are standing today all of you before the " ١٠
LORD your God: the heads of your tribes, your elders,
and your officers, all the men of Israel, 11 your little
ones, your wives, and the sojourner who is in your
camp, from the one who chops your wood to the one
who draws your water, 12 so that you may enter into
the sworn covenant of the LORD your God, which
the LORD your God is making with you today, 13
that he may establish you today as his people, and that
he may be your God, as he promised you, and as he
swore to your fathers, to Abraham, to Isaac, and to
".Jacob

* * *

Hear, O my people, while I admonish you! O Israel, ٨"
if you would but listen to me! 9 There shall be no
strange god among you; you shall not bow down to a
foreign god. 10 I am the LORD your God, who
brought you up out of the land of Egypt. Open your
mouth wide, and I will fill it. 11 "But my people did
not listen to my voice; Israel would not submit to me.

12 So I gave them over to their stubborn hearts, to follow their own counsels. 13 Oh, that my people would listen to me, that Israel would walk in my ways! 14 I would soon subdue their enemies and turn my hand against their foes. 15 Those who hate the LORD would cringe toward him, and their fate would last forever. 16 But he would feed you with the finest of the wheat, and withhoney from the rock I would ."satisfy you

Moïse convoqua tout Israël, et leur dit: Vous avez vu ٢" tout ce que l'Eternel a fait sous vos yeux, dans le pays d'Egypte, à Pharaon, à tous ses serviteurs, et à tout son pays, 3 les grandes épreuves que tes yeux ont vues, ces miracles et ces grands prodiges. 4 Mais, jusqu'à ce jour, l'Eternel ne vous a pas donné un coeur pour comprendre, des yeux pour voir, des oreilles pour entendre. 5 Je t'ai conduit pendant quarante années dans le désert; tes vêtements ne se sont point usés sur toi, et ton soulier ne s'est point usé à ton pied; 6 vous n'avez point mangé de pain, et vous n'avez bu ni vin ni liqueur forte, afin que vous connussiez que je suis

l'Eternel, votre Dieu. 7 Vous êtes arrivés dans ce lieu;
Sihon, roi de Hesbon, et Og, roi de Basan, sont sortis à
notre rencontre, pour nous combattre, et nous les
avons battus. 8 Nous avons pris leur pays, et nous
l'avons donné en propriété aux Rubénites, aux Gadites
et à la moitié de la tribu des Manassites. 9 Vous
observerez donc les paroles de cette alliance, et vous les
mettrez en pratique, afin de réussir dans tout ce que
.vous ferez

Vous vous présentez aujourd'hui devant l'Eternel, ١٠
votre Dieu, vous tous, vos chefs de tribus, vos anciens,
vos officiers, tous les hommes d'Israël, 11 vos enfants,
vos femmes, et l'étranger qui est au milieu de ton camp,
depuis celui qui coupe ton bois jusqu'à celui qui puise
ton eau. 12 Tu te présentes pour entrer dans l'alliance
de l'Eternel, ton Dieu, dans cette alliance contractée
avec serment, et que l'Eternel, ton Dieu, traite en ce
jour avec toi, 13 afin de t'établir aujourd'hui pour son
peuple et d'être lui-même ton Dieu, comme il te l'a
dit, et comme il l'a juré à tes pères, Abraham, Isaac et
".Jacob

* * * .

Ecoute, mon peuple! et je t'avertirai; Israël, puisses- ٨"
tu m'écouter! 9 Qu'il n'y ait au milieu de toi point de
dieu étranger! Ne te prosterne pas devant des dieux
étrangers! 10 Je suis l'Eternel, ton Dieu, qui t'ai fait
monter du pays d'Egypte; Ouvre ta bouche, et je la
remplirai. 11 Mais mon peuple n'a point écouté ma
voix, Israël ne m'a point obéi. 12 Alors je les ai livrés
aux penchants de leur coeur, Et ils ont suivi leurs
propres conseils. 13 Oh! si mon peuple m'écoutait, Si
Israël marchait dans mes voies! 14 En un instant je
confondrais leurs ennemis, Je tournerais ma main
contre leurs adversaires; 15 Ceux qui haïssent l'Eternel
le flatteraient, Et le bonheur d'Israël durerait toujours;
16 Je le nourrirais du meilleur froment, Et je le
."rassasierais du miel du rocher

وأما قوله: "تشير الأخطاءُ فى القرآن إلى تقديس أتباع محمَّد للرسم القرآنى العثمانى، إضافةً إلى تقديسهم للنص القرآنى نفسِه. ولذلك لم يُغيِّروا الأخطاءَ الواردةَ فيه، بل أعطَوها معنى" فهو حجة عليه لا له، إذ إن المسلمين لا يقرأون حسب ذلك الإملاء العثمانى بل حسب ما يمليه المعنى. فمثلا لا أحد يقول: "لا أذبحنه" بل الجميع يقول:

"لأذبحنّه"، ولا أحد يقول: بأَيِّد" بل الكل ينطقها: "بأيْدٍ"، مثلما لا أحد يقول: "الصَّلُوة" بمد اللام بالواو، بل كل من يقرأ القرآن يقول: "الصلاة" بالألف، ومثلها "السموات"، إذ ما من واحد إلا ويقول: "السماوات" بمد الميم بالألف ولا يكتفى بفتح الميم فقط... وهكذا. ومن ثم كان حفظ القرآن على الشيخ وفَكّه ثم كتابته ثم تصحيحه ثم حفظه ثم تسميعه، ثم تسميع الحصة كل عدة أيام. أما أن الإملاء العثمانى دليل على ضعف الكتابة عند الصحابة أو يعكس معانى أخرى إضافية فهذا موضوع آخر- إبراهيم عوض).

(٩- أمَّا الأخطاءُ الإنشائية غيرُ المقصودةِ فقد تشير قبْلَ كلِّ شىء إلى جهل النسَّاخِ وجامعى القرآن بسياقات النص القرآنى وبسياقات مصادره. فلو كُلِّفَ ناشرٌ لا يعرِفُ شيئًا عن الطب أنْ يجمعَ لنا فى كتاب واحدٍ جُمَلا وفقراتٍ ذُكِرَتْ فى ندوةٍ طبية عربية تتناولُ موضوعًا معيَّنًا فإنَّ هذا الناشرَ، وإنْ كان يتقن العربيةَ جيدًا، سوف يرتكب أخطاءً إنشائيةً جمَّةً تتعلَّق فى ترتيب هذه الجُمَل والفقرات وربْطِ بعضِها ببعض وذلك لجهلِه بمواضيع الكِتاب- محمد عبد الجليل).

(هذا الكلام الممخَّط معناه أن المسلمين الذين جمعوا القرآن لم تكن لهم صلة به قبل العثور على مخطوطه الذى طُلِب منهم نسخه. فهل هذا صحيح؟ لقد عايشوا نزول القرآن آية آية، وقطعة من الآيات بعد قطعة، وسورة وراء سورة. بل كان القرآن ينزل إما ردا على أسئلتهم أو أسئلة الكفار أو اليهود أو النصارى وإما تعليقا على ما كان يواجهه الرسول من قومه أو من أهل الكتاب أو يقع لأحد من أتباعه. وهذا كله قد عايشوه معايشة لصيقة، وكانوا دائمى السماع لنصوص الوحى العزيز من فم الرسول والتلاوة له والتدبر لمعانيه والصلاة به والاستشهاد بنصوصه والاستنباط لأحكامه، ومن

ثم فهم يعرفون القرآن الكريم معرفة ممتازة جد ممتازة. أما الصورة البائسة التى يرسمها هذا الأفاك لصلة الصحابة بكتاب الله المجيد فهى نتاج ما هو مطبوع عليه من الفجور. هل يمكن أن يشبه عاقل علاقة الصحابة بالقرآن الكريم بعلاقة الطَّبَّاع العامىّ بالطب؟ هذا رجل لا يعرف الخجل- إبراهيم عوض).

(١٠- وأمَّا إنْ كان الخطأُ الإنشائى مقصودًا فيُرجَّح أنْ يكونَ جامعو القرآنِ قد لجؤوا إليه لطمسِ فكرة ما لا تتناسب مع مصالحهم أو مع عقيدتهم التى ورثوها عن آبائهم ولم يستطيعوا تغييرَها. ويُرجَّح أنْ يكونَ، مثلا، هدفُ تبعثُرِ الآيات التى تشير إلى التقمص وعدمِ ترابُطها هو إخفاء هذه الفكرة لعدم إيمان الأكثرية المسلمة (مِن سُنَّة وشيعة) بها. فالترتيبُ الحالى لهذه الآيات خطأ منطقى: إمَّا عن قصدٍ، وهو الأرجح، وإمَّا عن جَهْل- محمد عبد الجليل).

(لا يزال الرجل ماضيا فى هلوساته. وهلوسته هذه المرة قد بلغت الغاية فى الضلال حتى ليزعم أن معظم الصحابة لم يكونوا يؤمنون بالآخرة. كذلك انظر إلى استبدال مصطلح "التقمص" بمصطلح "البعث" كراهية منه لكل ما هو إسلامى كما أشرنا من قبل! يا متخلف، لو كان ما تقوله صحيحا لامتلأ القرآن بالتكذيب ليوم القيامة والحساب والثواب والعقاب، ولترددت فى كل جنباته الحنين الواله للوثنية والجاهلية. طيب بالله لم كانت كل تلك المعارك اللفظية والحربية بينهم وبين الشرك إذا كانت ثمرة كل ذلك هى النفور من عقيدة البعث؟ شفى الله الكلاب وضرك يا سيد محمد على عبد الجليل. لقد بلغت الغاية فى الغباء والعناد والكذب. كلامك هذا يرشحك للذهاب إلى سراية المجانين فى الحال، فأنت مجنون رسمى- إبراهيم عوض).

(وهذا هو سياق مترابط نوعًا ما مقترَح لبعض آيات البعث بحيث تعطى معنًى أكثرَ وضوحًا يشير إلى التقمص (العَود للتجسُّد): ("[...] ولَئِن قُلْتَ: «إنَّكم مَبعوثونَ مِن بَعْدِ الموتِ» لَيقُولَنَّ الذينَ كَفَروا إنْ هذا إلاَّ سِحْرٌ مُبين." [هود، ٧] "يا أيُّها الناسُ إنْ كُنتُم فى رَيبٍ مِنَ البَعثِ فإنَّا خَلقْناكم من تُرابٍ ثُمَّ من نُطفةٍ ثُمَّ من عَلقةٍ ثُمَّ من مُضْغةٍ مُخَلَّقةٍ وغَيْرِ مُخَلَّقةٍ لِنُبَيِّنَ لكم ونُقِرُّ فى الأرحامِ ما نَشاءُ إلى أجَلٍ مُسَمّى ثُمَّ نُخْرِجُكم طِفلا" [الحج، ٥] – "فهذا [هو] يومُ البعثِ ولكنَّكم [كُنتُم] لا تَعلَمون." [الروم، ٦٥] – "ثمَّ لِتبْلُغوا أَشُدَّكُم ومِنكم مَنْ يُتَوَفَّ ومِنكُم مَنْ يُرَدُّ إلى أَرذَلِ العُمُرِ لِكَيلا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شيئًا." [الحج، ٥] "والموتى يَبعَثُهمُ اللهُ ثُمَّ إليهِ يُرْجَعون." [الأنعام، ٣٦] "كذلك" [الشعراء، ٥٩ أو الكهف، ٩١ أو الدخان، ٢٨ و٥٤] "يَخْلُقُكم فى بُطونِ أُمَّهاتِكُم خَلْقًا مِن بَعْدِ خَلْقٍ فى ظُلُماتٍ ثَلاثٍ ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُم له المُلْكُ لا إلهَ إلا هُوَ فأنَّى تُصْرَفُون؟" [كيف تَضِلُّون؟] [الزُّمَر، ٦] "وهو الذى أحياكم ثمَّ يُمِيتُكُم ثمَّ يُحْيِيكُم إنَّ الإنسانَ لَكَفُور." [الحج، ٦٦] "كيْفَ تَكْفُرونَ بِاللهِ وكُنتُم أمواتًا فأحياكُم ثمَّ يُميتُكم ثمَّ يُحْيِيكُم ثمَّ إليهِ تُرْجَعون؟" [البقرة، ٢٨] "ثمَّ بَعَثْناكُم [يبعثكم] مِن بَعْدِ موتِكُم لعلَّكم تَشكُرون." [البقرة، ٥٦]"يا أيُّها الإنسانُ ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكريمِ الذى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ؟ فى أى صورةٍ ما شاءَ رَكَّبَكَ." [الانفطار، ٦، ٧، ٨] "ألَمْ تَرَ أنَّ اللهَ أَنزلَ [يُنزِلُ] مِنَ السَّماء ماءً فَتُصْبِحُ الأرضُ مُخْضَرَّةً إنَّ اللهَ لطيفٌ خبير." [الحج، ٦٣] "وتَرَى الأرضَ هامِدةً فإذا أَنزَلْنا [أَنزَلَ] عليها الماءَ اهتَزَّتْ ورَبَتْ وأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهيج." [الحج، ٥] "يُخْرِجُ الحَى مِنَ الميِّتِ ويُخْرِجُ الميِّتَ مِنَ الحَى ويُحْيِى الأرضَ بَعْدَ موتِها وكذلِكَ تُخْرَجون." [الروم، ١٩] "مِنْها خَلَقْناكم [خَلَقكم] وفيها نُعِيدُكم [يُعيدكم] ومنْها نُخْرِجُكُم [يُخرِجُكم] تارةً أُخرى." [طه، ٥٥] "واللهُ [فاللهُ] أَنبَتَكُم مِنَ الأرضِ نَباتًا، ثُمَّ يُعيدُكم فيها ويُخْرِجُكم إخراجًا" [نوح، ١٧ و١٨] "ذلكَ بأنَّ اللهَ هو الحَقُّ وأنهُ

يُحْيِى الموتى وأنهُ على كُلِّ شيء قدير." [الحج، ٦]"وأنَّ الساعةَ آتيةٌ لا رَيبَ فيها وأنَّ اللهَ يَبعثُ مَن فى القُبور." [الحج، ٧] "قالوا: رَبَّنا أَمَتَّنا اثْنَتَيْنِ وأحْيَيْتَنا اثْنَتَيْنِ فاعترفْنا بِذُنوبِنا فهلْ إلى خُرُوجٍ مِن سبيلٍ؟" [غافر، ١١] "فلا! أقسمُ بالشفق والليلِ وما وسَق والقمرِ إذا اتَّسق لَتركبُنَّ طَبَقًا [حالا] عن طَبَق." [الانشقاق، ١٦ و١٧ و١٨ و١٩ و٢٠])

تطلبُ هذه الآياتُ المذكورةُ أعلاهُ ممن ينكرون البعثَ بعد الموتِ أنْ ينظروا إلى دليل ملموس أمام أعيُنِهِم، وهو مراحلُ "خَلْقِ" [أو تشكُّلِ] الإنسانِ ابتداءً من النطفة حتى خروجه طفلا كاملا، وهذا هو البعثُ. ثم يكبرُ الإنسانُ ويموت. والموتى يُبْعَثون بعدَ ذلك. وهكذا دواليكَ. المسألة دورية، خَلْقًا بعدَ خَلْقٍ. فكيفَ لا تَقْدِرُ عقولُ المنْكِرين على فَهمِ ذلك؟ لقد خُلِقوا وماتوا أكثرَ من مرة. يبدو أنَّ الإنسانَ شديد النُّكران. ولكنَّ الإنسانَ يُبعَثُ مرةً أخرى لعلَّه يتذكَّر. أيها الإنسانُ المنكِرُ للبعث، ما الذى خدعَكَ حتى أنكرْتَ الصورَ أو الهيئاتِ الكثيرةَ التى مررتَ بها؟ انظرْ أمامَ عينيكَ إلى دليلٍ آخر على البعث، وهو التعاقبُ الدَّورى للفصول، إذْ تكونُ الأرضُ مَحْلا فى الشتاء ثم تصبح خضراء فى الربيع. هذا هو البعثُ. فكما تنمو النباتاتُ وتموتُ وتعود فتنمو كذلك يُخلَقُ الإنسانُ من الأرض ويعود إليها ثم يُخْلَق من جديد. وهكذا يُبعَثُ البشرُ من قبورهم كما تُبعَثُ النباتُ من البذرة فى الأرض. أيها البشر، لقد نَبَتُّم من الأرض كما يَنْبُتُ النباتُ. ثم ستعودون إلى التراب وتخرجون من التراب، كالنبات تمامًا. هذا هو البعثُ. أمَّا الذين أقرُّوا بأنّهم خُلِقوا مرتين وماتوا مرتين فلا بدَّ أنْ يمرُّوا بحالات كثيرة [طبقًا عن طبق] فيكتسبوا خبراتٍ متعدِّدة ويتفتَّح وعيُهم.

وهكذا، بعدَ ترتيبِ هذه الآياتِ بحسب موضوعها ترتيبًا منطقيًا، يتَّضح للقارئ أكثرَ فأكثرَ الموضوعُ الأساسى لها المختبئُ فى النص اختباءَ القِطَعِ الأثريةِ فى التراب. إنَّ أكثر

آيات القرآن المرتَّبة على الشكل الحالى تشبه لُقًى أثريةً مبعثَرةً من عِظامِ حيواناتٍ وبقايا أدوات حجريةٍ وغيرها وتحتاج إلى من يعيد تركيبَها بحيثُ تتَّضح لنا أنواعُ هذه الحيوانات وتلك الأدوات– محمد عبد الجليل).

(يا سلام على المفهومية والذكاوة! لكأننا لم نكن نفهم البعث والحياة الآخرة ولا نعرف ما سوف يحدث فيها حتى اطلعنا على هذا التنطع السخيف. ثم تأمل، أيها القارئ الكريم، تشبيهه الآيات الكريمة بعظام الحيوانات من أمثاله وبقايا الأدوات الحجرية التى تذكِّر بعقله المتكلس، وهو تشبيه يراد به تحقير القرآن والإيحاء بأسلوب خبيث بأنه مجرد حفريات لا مكان لها فى عصرنا، بل كل ما نستطيع فعله هو تجميع قطع هذه الحفريات حتى نتصور كيف كانت تلك الحيوانات المنقرضة تعيش فى ذلك الماضى السحيق الذى لم تعد لنا به من صلة، ولم يعد يمثل لنا أية قيمة أو أهمية.

وطبعا لاحظ القراء تدخلات هذا الأحمق فى الآيات الكريمة بتغيير الضمير مرة، وتغيير حرف الربط مرة أخرى، وإضافة كلمات هنا وكلمة هناك، كل ذلك ليوقع فى رُوع القراء السذّج أن فى النص القرآنى أشياء تحتاج إلى أن يصلحها حمار جهول ذو حوافر مثله. ترى هل يمكن أن يصدق أى واحد له مُسْكَة من عقل أن النصوص التى أوردها عن البعث كانت غامضة أو مرتبكة حتى جاء هذا القرد فعاث فيها فسادا فاتضح معناها الخبيء؟ هذا رجل لا يستحى، إذ جاء لمهمة معينة هى تحطيم مشاعر الإجلال التى يكنها المسلمون لكتاب ربهم، فتراه لهذا يعبث طول الوقت به كى يغرس فى نفوسهم أن أمره ليس بكل تلك الخطورة، فها هو ذا يتلاعب به كما يشاء، أو بالأحرى: كما يشاء من أسندوا إليه تلك الوظيفة الحقيرة، دون أن تقع السماء على الأرض– إبراهيم عوض).

(١١- إنَّ تحويل الأخطاء والعيوب اللغوية فى القرآن إلى أساليبَ بلاغيةٍ وإعجازيةٍ يُمكن أنْ يُشيرَ إلى حجمِ عقدةِ النقصِ المتحكِّمةِ فى نفوس العرب الوثنيين أو "الأميين" (Gentils) والمتمثِّلةِ فى عدم امتلاكهم لكِتابٍ مقدَّس يتفاخرون به كهُويةٍ دينية أمامَ اليهود والنصارى العرب. فكان القرآنُ يمثِّلُ لهُم طوقَ نجاةٍ من سخرية اليهود والنصارى وتغطيةً لعقدة النقص لديهم ("هوَ الذى بعثَ فى الأُميين رسولا منهم يتلو عليهم آياتِه ويزكِّيهم ويُعلِّمهم الكِتابَ والحكمة" [سورة الجمعة، ٢]) وصرخةَ وجودٍ وهُويةً وإعادةً للثقة بالنفس. فمِن الطبيعى أنْ يتمسَّكوا به ويعضُّوا عليه بالنواجذ ويحوِّلوه إلى أيقونة مقدَّسة لا يجوز المساسُ بها ويدافِعوا عنه بما أوتوا من قوة مادية وفكرية ويعطوا العيوبَ اللغوية معنى. ولما كان همُّهم هو بناء سقفٍ فكرى يحمى رؤوسَهم من سِهام المستهزئين وسخريتهم فقد خرجَ كِتابٌ مليء بالتناقضات والأخطاء، ولكنه فى عصر ظهوره لبَّى إلى حدٍّ ما حاجتَهم الاجتماعية والسياسية آنذاك- محمد عبد الجليل).

(الواقع أن هذا رجل لا يستحى كما قلنا وكررنا. لنفترض أن القرآن هو كتاب هوية العرب وأنهم لهذا لا يمكنهم أن يتخلَّوْا عنه خشية فقدان الهوية والعزة القومية والمهلبية، فهل هو كتاب هوية الفرس والمصريين والأفغان والترك والمغول والبشناق والألبان والبربر والهنود والصينيين والسودان والحبش وسائر الشعوب الإفريقية والآسيوية التى تدين به، والمسلمين الأوربيين والأستراليين والأمريكان أيضا؟ فكيف آمن به هؤلاء؟ نعم كيف آمن ولا يزال يؤمن به غير العرب، ومنهم الغربيون الذين يتفوقون على العرب الآن تفوقا عسكريا وسياسيا واقتصاديا وعلميا وفنيا ماحقا؟ ثم أين عقدة النقص عند العرب التى تدفعهم، كما تقول، إلى التمسك بالقرآن، وقد كانوا، على العكس من ذلك، يرفضون لسنواتٍ طوالٍ الإيمان به ويزعمون أنهم قادرون على أن يأتوا بقرآن يشبهه؟ ومن الناحية الأخرى كيف يكون عند العرب آنذاك عقدة نقص من الناحية الأدبية حتى ليضفون

على القرآن إعجازا لا يستحقه، وهم الذين كانوا ينظرون إلى أشعار الأمم الأخرى وخُطَبهم نظرة احتقار وظلوا كذلك إلى ما بعد الإسلام حتى كان من بين العلماء العرب من يتصور أن غير العرب لا يعرفون البلاغة والخطابة مثلا؟ ثم كيف يفسر متخلفنا قول غير العرب من العلماء المسلمين إن هجاءهم باللغة العربية أحب إليهم من مدحهم بلغة آبائهم؟ لقد قال ذلك علماء من الفرس أصحاب أعظم حضارة قديمة فى المنطقة. وما زال علماء الفرس، رغم شيعيتهم، يعتزون باللغة العربية ويقرأون ويكتبون ويؤلفون بها حتى الآن، وجعلتها الحكومة الإيرانية بعد الثورة اللغة الثانية تلو الفارسية. بل إن الفرس فى القرون الأولى من تاريخ الإسلام كانوا لا يعرفون فى كتاباتهم وأشعارهم وأنثارهم غير العربية. فلم هذا كله، والعربية ليست لغتهم ولا تدخل فى تحديد هويتهم القومية؟

ولو كان القرآن كتاب هوية العرب فلم يا ترى يبرز فيه أنبياء العهد القديم، وبالذات أنبياء بنى إسرائيل، أقوى من ظهور هود وصالح وشعيب وإسماعيل، وهم أنبياء العرب؟ ليس هذا فقط بل إن القرآن والأحاديث النبوية ليصوران هؤلاء الأنبياء تصويرا رائعا على عكس الصور المقززة التى رسمها لهم العهد القديم إذ نسب إليهم الزنا والقتل وممارسة الجنس مع المحارم والظلم والتزوج من الوثنيات وغير ذلك؟ ولماذا يقول القرآن (كتاب الهوية العربية) عن بنى إسرائيل إن الله اختارهم على العالمين (فى عصرهم) بينما لم يقل ذلك عن العرب، وحين قال للمسلمين: "كنتم خير أمة أُخْرِجَتْ للناس" وضع لها شروطا من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والإيمان بالله غير ذاكر العرب فى هذا السياق، وقال فى موضع آخر: "إن أكرمكم عند الله أتقاكم"، أى أن التقى هو المكرم عند الله، وبحسب درجة تقواه يكون الإكرام، وجلَّى الرسول عليه السلام الأمر بما لا يحتاج إلى مزيد فقال: ليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح؟ بل نهى عليه السلام أهلَه، الذين هم أهله، أن يأتى الناس يوم القيامة بأعمالهم الصالحة

ويأتوا هم بنسبهم إليه مما لا ينفع ولا يشفع؟ اللهم إنه القرآن، الذى يزعم ذلك الأفاق أنه كتاب الهوية العربية.

ولو كان القرآن هو كتاب الهوية العربية فلماذا لم يُدِرْه محمد حول تاريخ العرب كما أدار كَتَبَةُ الكتاب المقدس كتابَهم حول تاريخ بنى إسرائيل مع مقدمة سريعة عن تاريخ البشرية من لدن بداية الخلق حتى يعقوب؟ لكننا ننظر فلا نجد للعرب فى القرآن أى مكان متميز عن أية أمة أخرى. بل لا نجد لكلمة "العرب" ذاتها أى ذكر فى القرآن. كذلك لو كان القرآن يتخذ الكتاب المقدس مثالا أعلى ينسج على منواله لَحَرَص محمد على اتباع الطريقة التى أُلِّف بها الكتاب المقدس وجعل القرآن يعجّ بأسماء الأعلام، وبخاصة أعلام قومه، وبالأرقام والتواريخ والتفصيلات شأن ما هو موجود فى العهدين: القديم والجديد. وأيضا لو كان محمد قد وضع الكتاب المقدس نصب عينيه بوصفه مثالا يحتذى كما يزعم هذا الأفاق لما انتقده ولا انتقد أصحابه ولا خالفهم فى شىء. أليس هذا هو ما يقوله المنطق والعقل؟

ثم إن مهرِّجنا يقول فى هذه الفقرة إن العرب قد تمسكوا بالقرآن وعضوا عليه بالنواجذ وحوّلوه إلى أيقونة مقدَّسة لا يجوز المِسَاسُ بها ودافعوا عنه بما أُوتُوا من قوة مادية وفكرية وأعطوا عيوبه اللغوية معنى، وكان همُّهم كله هو بناء سقفٍ فكرى يحمى رؤوسَهم من سِهام المستهزئين وسخريتهم، ومن ثم جاء كتابا مليئا بالتناقضات والأخطاء، فلم يبالوا بذلك لأن المهم عندهم أنه لبَّى حاجتَهم الاجتماعية والسياسية. لكن كيف يوفق ذلك الأفاق بين هذا وبين تأكيده فى نفس الوقت أن العرب كانوا يدركون عيوب القرآن وينتقدونه، وكانوا أحرياء أن يعلنوا موقفهم ذاك لولا أن السلطة كانت تقمعهم وتمنعهم من التفوه بكلمة واحدة ضده؟ واضح أن أفكار الرجل سمك لبن تمر هندى!

ومع هذا فقد كان الصحابة وغير الصحابة يمارسون حريتهم فى التعبير كلما حدث ما يستوجب ممارسة هذه الحرية: لنأخذ مثلا عدى بن حاتم بعد إسلامه للرسول حين سمعه يقرأ آية سورة "التوبة" القائلة بأن النصارى يتخذون أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله، إذ قال مؤكدا: ما كنا نعبدهم. فوضح له الرسول أن متابعتهم إياهم على ما يشرعونه لهم من دون الله تحليلا وتحريما هو العبادة المقصودة. فسؤال عَدِىٍّ هو لون من الاعتراض، ومع هذا لم ينهره الرسول بل وضح الأمر له فى منتهى الهدوء والروية. كذلك سأله بعض الصحابة عما ظنوه تعارضا بين آيات القرآن فيما يخص أحداث يوم القيامة، فرد عليهم بأن الآيات التى تبدو متعارضة إنما تتناول مواقف مختلفة فى ذلك اليوم بحيث إن كلا منها يتحدث عن أمر غير الأمر الذى تتحدث عنه الآيات الأخرى، ومن ثم فلا تعارض. وضح لهم هذا أيضا دون غضب أو تشنج أو تهديد.

وقد ردد الزنادقة هذا الاعتراض الأخير على القرآن فيما بعد وانتقدوه به، وأورده ابن قتيبة فى كتابه: "تأويل مشكل القرآن" فقال: "وقالوا: وهل التناقض إلا مثل قوله: "فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ" (٣٩) (الرحمن/ ٣٩)، وهو يقول فى موضع آخر: "فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ" (الحجر/ ٩٢- ٩٣)، ومثل قوله: "هذا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ * وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ" (المرسلات/ ٣٥، ٣٦)، ويقول فى موضع آخر: "ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ" (الزمر/ ٣١)، ويقول: "هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ" (البقرة/ ١١١)، ومثل قوله: "وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ" (الطور/ ٢٥، والصافات/ ٢٧)، وهو يقول فى موضع آخر: "فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَساءَلُونَ" (المؤمنون/ ١٠١)؟". وكان رده هو نفس الرد الذى أُثِر عن رسول الله عليه الصلاة والسلام.

وبالمناسبة فقد جمع ابن قتيبة كثيرا من تلك الاعتراضات الزنديقية ورد عليها. وسواء وُفِّق ابن قتيبة فى ردوده كلها أو وفق فى بعضها ولم يُوَفَّق فى الباقى فالمهم أن كتابه يدل على أن هناك من انتقد القرآن ولم يتعرض له أحد أيا كان سبب عدم التعرض. وهذا ينسف دعوى محمد على عبد الجليل نسفا. ومما تعرض ابن قتيبة للرد عليه قوله سبحانه فى سورة "هود" على لسان نوح يخاطب ابنه الكافر الذى رد على تحذير أبيه له من السيول الغامرة التى ستغرق كل شيء وكل إنسان قائلا: "سآوِى إلى جبلٍ يعصمنى من الماء"، فأجابه أبوه بأنه "لا عاصمَ اليوم من أمر الله إلا مَنْ رَحِم". وكان توجيه ابن قتيبة للآية أن "عاصم" موضوعة فى موضع "معصوم" وأن المعنى "لا معصوم اليوم من أمر الله إلا من يرحمه الله". وقد تناولت هذا الكتاب بالعرض والتحليل والمناقشة المفصلة فى كتابى: "من ذخائر المكتبة العربية"، الذى ألفته فى الطائف فى بدايات تسعينات القرن المنصرم، وكان تعليقى على هذا التوجيه أن هناك توجيها آخر أقل كلفة، وهو "لا عاصم اليوم من أمر الله إلا لمن رحم" بزيادة اللام قبل الاسم الموصول. ثم مرت أعوام، وذات يوم كنت أفكر فى ظاهرة معروفة فى الأفعال الإنجليزية، إذ إنها كلها تقريبا تستعمل لازمة ومتعدية بعدما كنت قديما أتصور أن عددا منها فقط هو الذى يصدق عليه ذلك، فنشب فى عقلى سؤال: إلى أى مدى يصدق هذا الكلام على اللغة العربية؟ وكنت قبل هذا أحسب أن الأفعال العربية التى تستخدم لازمة ومتعدية معا قليلة جدا بل نادرة، ولم أكن فى البداية أتنبه إلا إلى الفعلين: "زادَ، ونَقَص"، ثم تنبهت إلى "هاجَ وغاظَ وأَوَى وهَلَكَ ودَحَضَ..."، ثم انضاف إلى ذلك أفعال أخرى لم أكن أظن من الممكن مجيئها لازمة كالفعل "سكبَ" وغيره، فنقول: "سَكَبَ فلانٌ الماءَ، وسَكَبَ الماءُ (بمعنى "انسكب")". وهنا بدا لى أن أراجع الفعل: "عَصَمَ" لأجد أنه يأتى بمعنى "حمى" وأيضا بمعنى "احتمى، أى اعتصم". فقلت: إذن ليس فى الآية شيء يحتاج إلى توجيه، فالمعنى

واضح ومباشر، وهو "لا محتمِىَ (أى لن ينجو) اليوم من أمر الله إلا مَنْ رَحِمَ". وقد علمتنى الحوادث المتكررة أننى لا ينبغى أن أقلق من أى انتقاد للقرآن مهما كان قائله ومهما بدا فى الظاهر أنه وجيه، بل أبحث الأمر بتفصيل وتدقيق غير واضع أى اعتبار لأى شىء يمكن أن يمنعنى من تناول أشد الكلام اعتراضا على القرآن وتخطئة له. وينتهى الأمر فى كل مرة بانفضاح سخف المعترضين والمخطِّئين.

ومن هذا توجيه ابن قتيبة، فى باب "مخالفة ظاهر الفعل للفظ معناه"، للآية الثانية عشرة من سورة "فاطر": "وما يستوى البحران: هذا عذبٌ فراتٌ سائغٌ شرابُه، وهذا ملحٌ أُجَاجٌ. ومن كلٍّ تأكلون لحما طريا وتستخرجون حِلْيَةً تلبسونها" بأن لدينا هنا شيئين هما البحر العذب والبحر الملح، لكن استخراج الحلىّ إنما هو من أحدهما فقط، وهو البحر الملح، إذ رغم أن ابن قتيبة كان يدافع عن أسلوب القرآن ومضمونه ضد من اتهم القرآن هنا بأنه مخطئ فذكر أن الحلى تستخرج من كلا البحرين: العذب والملح مع أنها لا تستخرج إلا من الملح فقط، لم يتصور رحمه الله أن الحلى كما هى موجودة فى البحر الملح فكذلك هى موجودة أيضا فى البحر العذب كما بينت فى موضع سابق من هذه الدراسة. وهو ما يعنى أن القرآن هو الصواب، على حين أن من هاجمه ومن رد هجومه كليهما على خطإ. والعجيب، كما لاحظت، أن هذه الأنهار كلها تقع خارج الشرق الأوسط، بل بعيدا عنه بعدا شديدا، إذ توجد فى تشيكوسلوفاكيا مثلا وسيبريا والأورال وأسكتلندا والبرازيل واليابان. ومعنى ذلك أن الآية من الإعجاز القرآنى دون أدنى ريب.

ونرجع إلى ما كنا بسبيله من إيراد ما استغربه بعض الصحابة من أساليب القرآن ومعانيه. فهناك حكاية المريض المصاب بالإسهال الذى أمر الرسولُ أخاه أن يسقيه عسلا انطلاقا من كلام القرآن عن العسل فى سورة "النحل" وما فيه من شفاء للناس:

"جاء رجلٌ إلى النبى صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقال: إنَّ أخى استُطْلِقَ بطنُه. فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: اسقِه عسلا. فسقاهُ ثم جاءَه فقال: إنى سقيتُه عسلا، فلم يزدْه إلا استطلاقًا. فقال لهُ ثلاثَ مراتٍ. ثم جاء الرابعةَ فقال: اسقِه عسلا. فقال: لقد سقيتُه، فلم يزدْه إلا استطلاقًا. فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: صدق اللهُ، وكذب بطنُ أخيكَ. فسقاهُ فبرأَ". والآن إن كان الحديث قد وقع كما هو هنا فقد رأينا أن النبى لم ينفعل على الرجل بل وجهه نحو ما ينبغى أن يفعل ببساطة بالغة ودعابة من أظرف ما يكون، وأما إن كان لم يقع على هذا النحو فالمهم أن المسلمين لم يجدوا حرجا فى رواية حوار بين أحد الصحابة وبين النبى عليه السلام يستغرب فيه الصحابى ألا يشفى العسل أخاه حسبما هو متوقع من كلامِ القرآن واقتراحِ الرسول بما يدل على أن مثل ذلك الاستغراب الذى يقرب من حد الاعتراض لم يكن أمرا غير مألوف.

وذات مرة اعترض النساء المسلمات على استعمال القرآن فى خطابه للمؤمنين ضميرَ جماعة الذكور، فنزلت الآيات تستخدم ضمير الذكور وضمير الإناث معا. ومعروف فى اللغات التى تفرق بين جماعة الذكور وجماعة الإناث كالفرنسية والألمانية والعربية مثلا أنه إذا كان هناك جمع يمتزج فيه الذكور والإناث استعمل له ضمير الجمع الذكورى. أى أن القرآن لم يكن يتجاهل النساء. ومع هذا فما إن عبرت النساء عن مشاعرهن حتى استجاب القرآن لهن. ثم يأتى هذا البائس فيقول إن أحدا لم يكن يستطيع أن يعلن رأيه فى القرآن فى دولة القمع والرعب. وكلامه هذا المتهافت يذكرنى بما كتبه محمد أسد بك اليهودى النمساوى المتظاهر بالإسلام (Lev Nussimbaum، وهو غير محمد أسد اليهودى الألمانى المعروف) فى كتابه الخاص بالسيرة النبوية الكريمة والمترجم إلى الفرنسية بعنوان "La Vie de Mahomet" من أن شوارع المدينه فى دولة الرسول كان يسودها القهر والتجسس والفزع، ولم يكن أحد يستطيع أن يفتح فمه بما يستكن

فى ضميره رعبا من المصير الذى كان ينتظره. خيبة الله عليك وعلى نوسيمباوم معا يا محمد على عبد الجليل.

وعلى نفس الشاكلة فى تقليب حديث العسل والاستطلاق على وجهيه ننظر فى الحديث التالى أيضا، وهو من رواية عائشة رضى الله عنها: "كنتُ أغارُ على اللاتى وهَبْنَ أنفسَهنَّ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأقول: وتهبُ المرأةُ نفسَها؟ فلما أنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: "تُرْجِى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِى إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ" (الأحزاب/ ٥١) قالت: قلتُ: واللهِ ما أرى ربَّك إلا يُسارِعُ لك فى هواك".

كما كان المنافقون يسخرون فيما بينهم من النبى والوحى الذى ينزل عليه، ويَبْلُغه ما يقولون، ولم نسمع أنه آذى أحدا منهم قط. لقد كان عليه الصلاة والسلام واسع الصدر مأمور أمرا من الله سبحانه أن يكون رحيما بالبشر حريصا على هدايتهم. وقد تعرض لمواقف غليظة خشنة من بعض الناس: مسلمين وغير مسلمين، لكنه قط ما أخذهم بالعقوبة. وحين أسلم الشعراء المشركون الذين كانوا يؤذونه بأشعارهم تقبل منهم إسلامهم دون محاسبتهم على ما مضى باعتبار أن الإسلام يجُبّ ما قبله. فكيف يمكن أن يكون دكتاتورا كما قال هذا الكذاب الأَشِر؟

كذلك فالآيات التالية من سورة "الفتح" تشير إلى أعراب كانوا يسكنون قريبا من مدينة النبى، ولم يكونوا يشاركون فى الغزوات بحجج سخيفة، فأمر القرآن النبى بمنعهم من المشاركة عند انطلاق المسلمين إلى مغانم يأخذونها، فلما جاء الانطلاق لأخذ الغنائم وأرادوا أن يشتركوا مع المجاهدين الصادقين لا لشىء إلا للحصول على نصيب من تلك الغنائم التى لا يستحقونها ومنعهم النبى من اشتراكهم فى تلك الغزوة كان ردهم أن

المسلمين والنبى يحسدونهم. وهذا تكذيب بالقرآن، إذ فسروا الأمر على أنه حسد من المسلمين المجاهدين المخلصين، وليس وحيا إلهيا.

ومع هذا لم يفكر النبى فى إيذائهم بل كل ما فعله هو أن قال لهم بناء على أمر الله سبحانه إن هناك غزوة لقوم ذوى بأس شديد سيقوم المسلمون بها، فإن خرجوا مع المجاهدين تاب الله عليهم، وإلا فإنه سبحانه معاقبهم على التوائهم وخيانتهم عقابا شديدا: "سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١١) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (١٢) وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (١٣) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٤) سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلا قَلِيلا (١٥) قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦)".

وبالمثل كان اليهود فى المدينة يتهكمون بنصوص الكتاب المجيد كقولهم حين نزلت الآية التالية: "وأقرِضوا الله قرضا حسنا": إن الله فقير ونحن أغنياء. كما تساخفوا وقالوا: يد الله مغلولة. ورغم ذلك لم ينزل بهم عليه السلام أى إيذاء أو إضرار جراء هذا. وحين عاد وفد النبى من نجران إلى المدينة سأله المغيرة بن شعبة سؤالا كان نصارى نجران قد

ألقوه عليه مؤداه: كيف يقول القرآن عن مريم أم عيسى إنها أخت هارون، وبينها وبين هارون الأزمنة الطوال؟ فلم يثر النبى ولا صاح بنصارى نجران يأمرهم أن يبقَوْا فى حالهم فلا يتدخلوا فى شؤون دينه وأصحابه، ولم يُسْكِت المغيرةَ بن شعبة حاملَ السؤال إليه ولا عَنَّفَه أو حتى عاتبه بل فسر الأمر له بأن بنى إسرائيل كان يسمون أبناءهم بأسماء صالحيهم. هكذا بكل بساطة وأريحية وقبول بحرية التعبير والتفكير.

وفى التراث نوادر مضحكة كثيرة لم يتورع مؤلفوها عن إدخال القرآن فيها على نحو أو على آخر: ففى "التذكرة الحمدونية" لابن حمدون مثلا: "كان بعض الأعراب يأكل ومعه بنوه، فجعلوا يأخذون اللحم من بين يديه فيقول لهم: يا بَنِيَّ، إن الله عز وجل يقول: "فلا تقل لهما أُفٍّ ولا تنهرهما". ولأن تقولوا لى ألف مرة: "أف"، فى كل مرة سبعون انتهارا، أهونُ عليَّ مما تفعلون".

ومنه: "شكا عيينة بن حصن إلى نعيمان (وهو صحابى كان يحب الدعابة وعمل المقالب) صعوبة الصيام عليه، فقال: صُمْ بالليل. ورُوِىَ أنه دخل عيينةُ على عثمان وهو يعطى فى شهر رمضان، فقال: العَشَاء! فقال: أنا صائم. قال عثمان: أتصوم بالليل؟ قال: هو أخفُّ عليَّ. فيقال إن عثمان قال: إحدى هَنَات (مقالب) نعيمان".

ومنه: "دخل عقيل بن علفة المرى على عمر بن عبد العزيز، وكان جافيا، فقال له عمر: ما أراك تقرأ من كتاب الله شيئا. قال: بلى، إنى لأقرأ. قال: فاقرأ. فقرأ: "إذا زُلْزِلَت الأرضُ زلزالَها..." فلما بلغ آخرها قرأ: "فمن يعملْ مثقال ذرةٍ شرًّا يَرَهْ، ومن يعمل مثقال ذرة خيرا يره". فقال عمر: ألم أقل لك إنك لا تحسن تقرأ؟ قال: أَوَلَمْ أقرأ؟ قال: لأن الله عز وجل قدَّم الخير، وأنت قدَّمْتَ الشر، فقال عقيل:

خذا بطن هَرْشَى أو قفاها، فإنه كلا جانبَيْ هرشى لهنَّ طريقُ"

ومنه: "قيل لأعرابى: ما تقرأ فى صلاتك؟ قال: أم الكتاب، ونسبة الرب، وهجاء أبى لهب. وسُمِع آخر يقرأ: "الأعراب أشدُّ كفرًا ونفاقًا". فقال: لقد هجانا. ثم سمعه يقرأ بعده: "ومِنَ الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر". فقال: لا بأس! هَجَا ومَدَحَ. هذا كما قال شاعرنا:

هَجوْتُ زهيرًا، ثم إنى مدحتُه وما زالت الأعرابُ تُهْجَى وتُمْدَحُ"

ومنه: "سرق أعرابىٌّ غاشيةً من سرج ودخل مسجدًا، فقرأ الإمام: "هل أتاك حديث الغاشية؟"، فقال: اسكت، فقد أخذتَ فى الفضول. فقال الإمام: "وجوهٌ يومئذٍ خاشعة". فقال: ها هو ذا غاشيتكم، فلا تخشعوا وجهى".

ومنه: "أُحْضِر رجل رُمِىَ بالرفض عند الوالى، فقيل له: ما تقول فى أبى بكر؟ خليفة هو؟ قال: لا. قال: فعمر؟ قال: لا. قال: فعثمان؟ قال: لا. قال: فما تقول فى علىٍّ رضى الله عنه؟ قال: ليس بخليفة. قال: ويحك! مَنِ الخليفةُ؟ قال: معاوية. قال: كيف؟ قال: لأن الله تعالى قال حاكيًا عن الملائكة: "إنى جاعلٌ فى الأرض خليفة. قالوا: أتجعل فيها من يُفْسِد فيها ويَسْفِك الدماء؟". وهذه صفة معاوية".

ومنه: "كان بالرى وراق حسن الخط، وكان إذا كتب اسم الله تعالى أو اسم النبى صلى الله عليه وسلم فى قرآن أو شعر كتب بعدهما ما يكتبه الإنسان فى سائر المواضع. فكان يكتب فى القرآن: "إن الله عز وجل يأمر بالعدل والإحسان". "وما محمد صلى الله عليه وسلم إلا رسول قد خَلَتْ من قَبْلِه الرسل". وكان يكتب فى الشعر:

إن تقوى ربنا عز وجل خيرُ نَفَلْ * وبإذن الله تبارك وتعالى رَيْثِى وعَجَلْ"

ولم نسمع أن واضع الكتاب أو من روى حكاياتهم الفكاهية هذه قد تعرضوا لأى عقاب.

ومثل ذلك بل أشد منه ما أورده ابن الجوزى فى "أخبار الحمقى والمغفلين"، وهو مَنْ هو بين علماءِ الدين، من التشنيعات والفكاهات التالية: "قال ابن كامل: وحدثنا أبو شيخ الأصبهانى محمد بن الحسين قال: قرأ علينا عثمان بن أبى شيبة فى التفسير: "وإذا بطشتم بطشتم خبازين"، يريد قوله: "جبارين". "وعن محمد بن عبد الله الحضرمى أنه قال: قرأ علينا عثمان بن أبى شيبة: "فضُرِب بينهم سِنَّوْرٌ له ناب"، فقيل له: إنما هو "بِسُورٍ له باب"، فقال: أنا لا أقرأ قراءة حمزة. قراءة حمزة عندنا بدعة". "حدثنى أبو الحسين أحمد بن يحيى قال: مررت بشيخ فى حجره مصحف وهو يقرأ: "ولله ميزاب السموات والأرض"، فقلت: يا شيخ، ما معنى "ولله ميزاب السموات والأرض"؟ قال: هذا المطر الذى نراه. فقلت: ما يكون التصحيف إلا إذا كان بتفسير. يا هذا، إنما هو "ميراث السموات والأرض"، فقال: اللهم اغفر لى. أنا منذ أربعين سنة أقرؤها وهى فى مصحفى هكذا". "كان رجل كثير المخاصمة لامرأته، وله جار يعاتبه على ذلك، فلما كان فى بعض الليالى خاصمها خصومة شديدة وضربها، فاطَّلع عليه جاره، فقال: يا هذا، اعمل معها كما قال الله تعالى: إما إمساكٌ إيش اسمه أو تسريحٌ ما أدرى إيش".

ليس هذا فحسب، بل هناك شعراء يقتبسون آيات القرآن فى سياقات لا تليق بكتاب الله الكريم. قال أبو نواس:

خُطَّ في الأَردافِ سَطْرٌ في عروضِ الشِّعْر موزون:

لن تنالوا البِرّ حتَّى تنفقوا ممَّا تُحِبُّون

وقال ابن النبيه في مدح القاضي الفاضل:

قمتُ ليلَ الصُّدودِ إلاَّ قَليلاَ ثمَّ رتَّلْتُ ذكركم ترْتيلاَ

ووصلتُ السُّهادَ أَقبحَ وصلٍ وهَجَرْتُ الرُّقادَ هجرًا جَميلاَ

مَسْمعٌ ملَّ من سَماعِ عَذُولٍ حينَ أَلقَى عليهِ قولا ثَقيلاَ

وفُؤاد قد كانَ بينَ ضلوعٍ أَخَذَتْهُ الأَحبابُ أَخْذًا وَبيلاَ

قُلْ لِراقِى الجفونِ إنَّ لعينى فى بِحارِ الدُّموعِ سَبْحًا طَويلاَ

ماسَ عُجْبًا كأَنَّه ما رأَى غُصْـــــنًا طَليحًا ولا كثيبًا مَهيلاَ

وحَمَى عن مُحِبِّهِ كأس ريقٍ حينَ أَمْسَى مزاجُها زنجبيلاَ

بانَ عنِّى، فصحتُ فى أَثَر العِيـــسِ: ارْحمونى وأَمْهِلونى قَليلاَ

أَنا عبدٌ للفاضلِ بن عليٍّ قدْ تبَتَّلْتُ بالثنَا تَبْتيلاَ

لا تَسُمْهُ وعدًا بغيرِ نَوالٍ إنَّه كانَ وَعدُهُ مفْعولاَ

جلَّ عن سائرِ الخَلائِقِ قدْرًا فاخْترَعْنا فى مدحه التَّنْزيلاَ

وقال البهاء زُهَير:

وسَقاني من رِيقهِ البارِدِ العَذْ بِ كُؤوسًا حَوَتْ شرابًا طَهُورَا

بقَواريرِ فضَّةٍ مِنْ ثَنايا قَدَّروها بلؤلؤٍ تقديرَا

وغُيومٍ مثل الجُمَانِ فما تنْـــظرُ فيها شمسًا ولا زَمْهَريرَا

نُصْبَ روضٍ وَشَى النسيم عليه فانْبَرى سَعْيُهُ بهِ مَشْكورَا

أَيُّها الحاسِدُ المفَنِّدُ، إمَّا إنْ تكن شاكِرًا وإمَّا كَفُورَا

كيفَ تَخْفُو التى يطيرُ بها الهَـــمُّ، وإنْ كان شَرُّهُ مُستطيرَا

وقال القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر فى معشوقه نسيم:

إن كانت العشاق من أشواقهم جعلوا النسيم إلى الحبيب رسولا

فأنا الذى أتلو لهم: يا ليتنى كنتُ اتخذتُ مع الرسول سبيلا

وقال الصاحب شرف الدين ابن قاضى حماة، وهو من أهل القرنين السادس والسابع الهجريين:

قسمًا بشمس جبينه وضحاها ونهار مبسمه إذا جلاها

وبنار خَدَّيْه المشعشع نورها وبليل صُدْغَيْه إذا يغشاها

لقد ادعيت دعاويًا فى حبه صدقتْ، وأفلح فيه من زَكَّاها

فنفوس عُذَّالى عليه وعُذَّرِى قد ألهمت بفجورها تقواها

فالعذر أسعدها يقوم دليله والعذل منبعثٌ له أشقاها

وقال آخر:

وقد وافَقَ الزهْرُ نَقْشَ البساط فعينى لِمَا أَبْصَرَتْ حائِرَهْ

جِنَانٌ تُزَخْرَفُ للكافِرِينَ ونحن نُحَالُ على الآخِرهْ

فإنْ يكُ فى الحَشْرِ حالِى كذا فتلكَ إذًا كَرَّةٌ خاسِرَهْ

وقال غيره:

أَوْحَى إلى عُشَّاقِهِ طَرْفُهُ: هيهاتَ هيهاتَ لما تُوعَدونْ

ورِدْفُهُ ينطقُ من خَلْفه: لمثل ذا فَلْيَعْمَل العاملونْ

ولم نقرأ أن أحدا تعرض لهؤلاء الشعراء بأذى، اللهم إلا أن يكون ناقدا، فيبدى نفوره من هذه الطريقة الماجنة وينصح بنبذها وتجنبها. ودُمْتُم.

هذا، وقد حاول محمد على عبد الجليل بتدليساته أن يحرفنا بعيدا عن حقيقة الإسلام، الذى هو رسالة حضارية فى غاية الرقى ومنتهاه والذروة منه، فهو يدعو إلى الحرية الاعتقادية: "قل: إنما أَعِظُكم بواحدةٍ: أن تَقُوموا لله مَثْنَى وفُرَادَى ثم تتفكَّروا. ما بصاحبِكم مِنْ جِنَّة"، "وقل: الحقُّ من ربِّكم. فمَنْ شاء فلْيُؤْمِنْ، ومَنْ شاء فلْيَكْفُرْ"، "قل: هاتوا برهانَكم إن كنتم صادقين"، "لا إكراهَ فى الدين. قد تبيَّنَ الرُّشْدُ من الغَىّ"، "قل: مَنْ يرزقكم من السماء والأرض؟ قل: اللهُ. وإنَّا أو إيَّاكم لَعَلَى هُدًى أو فى ضلالٍ مُبِينٍ * قل: لا تُسْأَلُون عما أَجْرَمْنا، ولا نُسْأَلُ عما تعملون". ودائما ما يخاطب العقل ويستحث البشر على استخدامه ويحذر من إهماله، وإلا انحطوا عن مرتبة البشرية: "ولقدْ ذَرَأْنَا لجِهَنَّمَ كثيرًا من الجِنِّ والإِنْسِ: لهم قلوبٌ لا يَفْقَهُون بِهَا، ولهم أعينٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا، ولهم آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا. أولئكَ كالأَنْعَامِ بل هم أَضَلُّ. أولئكَ هم الغافِلُونَ". ونبيه إنسان كبقية البشر لا يعلم الغيب ولا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا، ولا يدرى ما يُفْعَل به ولا بغيره من الناس، ولا يزعم أنه ملك من الملائكة، فضلا عن أن يكون فيه شىء من الألوهية. إنما هو عبد الله ورسوله، وكل ما هنالك أنه على خلق عظيم: "قل: إنما أنا

بَشَرٌ مثلُكم يُوحَى إلَيَّ أنما إلهكم إلهٌ واحدٌ"، "وإنك لَعَلَى خُلُقٍ عظيمٍ". والبشر كلهم عيال الله، ولا فضل لأحد منهم على آخر إلا بالتقوى والعمل الصالح. والله رحيم كريم يغفر الذنب ولا يكلف نفسا إلا وسعها، ولا يحمل أحد عن أحد ذنوبه، ولا ينفع العبدَ أمام الله سبحانه سوى عمله وإنجازاته. وهو يَنْفِر ويُنَفِّر من الخرافات والسحر والكهانة والعرافة، وهو الدين الوحيد الذى يقدم الألوهية فى نسختها النقية الصافية، ويصور الأنبياء على وضعهم الصحيح بلا أى تشويه كما تفعل كتب مقدسة أخرى تلصق بهم الزنا والقتل والدياثة وتنزع لهم الألوهية.

كذلك فالإسلام هو الدين الوحيد الذى يحض حضا على العلم ويكافئ طالبه ومعلمه بأجر عظيم، ويجعل أهل العلم وُرَّاثا للأنبياء، ويضعهم فى منزلة أعلى من منزلة العُبَّاد، ويزن مدادهم بدماء الشهداء، ويجعل الملائكة دائمة الاستغفار لهم والتواضع فى حضورهم، ويشارك الملائكة فى هذا الاستغفار كل من فى السماوات والأرض بما فى ذلك الحيتان (الأسماك) فى البحار. ويعتبر الخارج فى طلب العلم خارجا فى سبيل الله. وبالمثل نراه يشجع على التفكير وإعمال العقل ويزيل المخاوف من طريق من يفكرون. والمهم أن يستعدوا لهذا فلا يمارسوا الاجتهاد الفكرى دون أن يحوزوا أدواته. فالمجتهد مأجور فى كل حال: إذا أصاب فله أجران، وإذا أخطأ فله أجر واحد، وهو ما لا يعرفه أى نظام سياسى أوفلسفى أو تربوى. فقط يعرفه دين محمد بن عبد الله! وعلى الناحية الأخرى نراه يبغض ويحرِّم ويجرِّم كل ضروب الخرافات من سحر وشعوذة وكهانة وعرافة ووثنية وتأليه لأى بشر.

كما أنه الدين الوحيد الذى يحث على العمل وإتقان الأداء، ويعلن أن من الذنوب التى يرتكبها البشر ذنوبا لا يكفرها سوى العمل، ويأمر أتباعه بأنه إذا كان فى يد أحدهم

فسيلة وقامت القيامة فلْيغرسْها رغم أن أحدا لن ينتفع بها ما دامت الدنيا قد آذَنَتْ بالانتهاء والفناء، وفى الوقت ذاته كره لهم أن يمدوا أيديهم للشحاتة فيريقوا كرامتهم ويكونوا عالة على جهد غيرهم، وكائنات طفيلية تمتص دماء الآخرين ولا تقدم شيئا، وحذَّر مَنْ يفعل ذلك من الإتيان يوم القيامة وفى وجهه نقطة سوداء. والإسلام كذلك هو دين الذوق والجمال والحساسية حتى ليبدى رسول الله ضيقه ممن يراه منكوشَ الشعر أو مصفرَّ الأسنان، ويوجب النظافة على المسلمين بطرق شتى لأقل مناسبة. كما يلفت القرآنُ الأنظارَ والبصائرَ للتأمل فى جمال الكون وجلاله من أشجار ونباتات وحيوان وجبال وسحاب ورياح ونجوم وكواكب وليل ونهار وسكون وبحار وبَرْق ووَدْق. وهو دين القوة والكرامة والتبريز فى الدنيا لا دين الانسحاب من الحياة بحجة الزهد فيها، فالمؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف. وهو يضع الفقراء والمساكين والعجزة فى عينيه ويخصص لهم نسبة فى أموال القادرين حقا معلوما لهم، مذكرا الواجدين بأنهم إنما يُرْزَقون بضعفائهم، وأن فى إخراج الصدقة مداواة لمرضاهم. فأى رقى هذا؟ وأية عبقرية؟ وهو كذلك دين العزة والكرامة والنجاح. ولو ذهبتُ من هنا إلى آخر عمر الدنيا أعدد محاسن دين محمد وأتغزل فى جماله وحلاوته وسموقه ما توقفت. وهو دين الرحمة، فالله قد خلق عباده ضعفاء، وهو يغفر لهم ويعفو عنهم فكأنهم ما ارتكبوا ذنبا متى استغفروه سبحانه حتى لو أذنبوا فى اليوم مائة مرة. والذنوب عنده قابلة كلها للغفران، والحسنات يذهبن السيئات، وهو عز وجل يجازى (إن جازى) على السيئة بمثلها فى حين يجازى على الحسنة بعشرة أضعافها إلى ما شاء الله...

وهو أيضا دين احترام السنن الكونية، فالدنيا خلقت بميزان وتقدير، وعلى الإنسان أن يراعى هذا وإلا ضاع وخسر خسرانا مبينا. ولهذا ينبغى أن يكون معتدلا فيتجنب الإسراف. وقد كنا نقرأ الآيات التى تحذر من الإسراف وتعلن أن الله لا يحب المسرفين

دون أن نعرف أبعادها حتى كبرنا وعلمنا أن كل شيء يتناوله أو يمارسه البشر له حد أدنى وحد أعلى لا ينبغى تجاوزهما، وإلا كان الخطر. فأنت، فى الطعام مثلا، آمنٌ ما لم تتعدّ الحد الأدنى من كمية المأكول أو المشروب إلى ما تحته، أو تتعدّ الحد الأعلى إلى ما فوقه حتى لا يصيبك واحد أو أكثر من أمراض السكر والكولسترول والضغط... إلخ.

وأيضا ليس هناك دين مثله يهتم بالمرأة منذ ولادتها حتى وفاتها كل هذا الاهتمام الذى عُرِف به دين محمد عليه الصلاة والسلام: فقد كان العرب، ومثلهم شعوب أخرى حتى اليوم، يئدون بناتهم عند الولادة، فحرَّم الإسلام هذا السلوك المتوحش تحريما عنيفا وتوعد مجترحيه بالعذاب الشديد يوم الحساب. وحث على إحسان تربية البنت وجعل جزاء ذلك الجنة. وفرض طلب العلم عليها كما فرضه على الولد سواء بسواء، وجعله طريقا إلى الجنة مثلما هو الأمر بالنسبة له. وعند خِطْبتها لا بد من أخذ رأيها وعدم إجبارها على التزوج ممن لا ترغب. وجعل للنساء نصيبا فى الميراث يقل فى بعض الحالات عن نصيب الرجال، ويزيد فى بعض الحالات الأخرى عما يأخذون، ويتساوى فى بعض ثالث بما يحصلون عليه. وألح على الأبناء أن يحسنوا صحبة أمهاتهم أكثر مما ألح عليهم بإحسان صحبة آبائهم. وفى النزع الأخير وصى الرسول عليه السلام توصية حارة بالنساء (ومعهن الأسرى) لما هن عليه من ضعف. ودعا فى كل الأحوال إلى مراعاة رقتهن وحساسيتهن، وسماهن: القوارير. وقال للأزواج: خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلى. ونبه الرجال إلى أنهم لا ينبغى أن يَفْرَكوا زوجاتهم لما يجدونه فيهن من عيوب، فإنهم قُمَنَاءِ أن يجدوا فيهن حسنات تعوضهم عن ذلك أو توازنه، ودعا إلى الصبر عليهن. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لاَ يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً. إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ".

واهتم الإسلام بالبيئة أشجارا وماء وهواء وشوارع وطرقا، فأعلن أن إماطة الأذى عن الطريق صدقة، وأن النظافة من الإيمان، ونهى عن الإسراف حتى فى الوضوء على النهر الجارى، وعن خلع الأشجار، وعن التبول فى المياه أو فى طريق السابلة، وعن قتل الطيور والحيوانات دون داع. ودعا إلى الرفق بالحيوان فلا يحمِّله صاحبه ما لا يطيق، ولا يلعنه عند الغضب ولا يضربه. ويجب عليه، لَدَى ذبح الحيوان للأكل، أن يسن سكينه سنا شديدا حتى تتم عملية الذبح بسرعة وبأقل ألم للحيوان المذبوح. بل لقد أمر الرسولُ الذابحَ أن يخفى سكينه عن ذبيحته حتى لا يزيدها ألما فوق ألمها وألا يذبحها على مرأى من الحيوانات الأخرى تجنبا لإفزاعهنّ... وهكذا. وقد ترجمتُ منذ أعوام مقالا رائعا لمستشرقة هولندية صحفية ومتخصصة فى الأنثروبولوجيا اسمها فرانسيسكا دو شاتل عنوانه: "محمد رائد الحفاظ على البيئة"، كله انبهار وإجلال للمصطفى عليه الصلاة والسلام.

فانظر كيف يتعامى ذلك المدلِّس عن كل هذا وغيره مما أومأتُ إليه أو لم أُومِئْ، ويتغافل عن الإنجازات العبقرية التى أنجزها محمد ودين محمد وأصحاب محمد والتى لا تساويها إنجازات أخرى فى ظروفها الوعرة وبإمكانات أصحابها الصفرية. لقد أنهض محمد قومه من رقدة التخلف الحضارى والثقافى حتى لقد صاروا فى مدى جد قصير من الزمن سادة العالم حضارة وثقافة، وتبنت الشعوب الأخرى لغتهم ودينهم وكثيرا من عاداتهم وتقاليدهم، وأضحَوْا فى النهاية مثلهم عربا أو يشبهون العرب فى كثير من أمور حياتهم. لقد كان دينه أساسا لحضارة عظيمة انتشرت فى كثير من أرجاء المعمور لقرون طوال لم يجرؤ أحد على أن يتحداها، فإن تحداها خر صريعا أمامها فى النزال.

ومن هنا وضع مايكل هارت النبيَّ محمدًا على رأس الأشخاص المائة الأكثر تأثيرا فى التاريخ الإنسانى فى كتابه: " The 100: A Ranking of the Most Influential Persons in History" الصادر عام ١٩٩٢م. وهو يحتوى على أسماءِ مائة شخص رتبهم الكاتب حسب مدى تأثيرهم فى التاريخ، فضم أسماء محمد وعيسى وموسى ومؤسسى الديانات الكبرى، ومبتكرى أبرز الاختراعات التى غيرت مسار التاريخ، وقادة الفكر وغيرهم، واتبع أسسًا محددة فى اختيار الأشخاص وترتيبهم كأن يكون الشخص حقيقيا، وأن يكون معروفا، إذ هناك عباقرة مجهولون مثل أول من اخترع الكتابة، وأن يكون عميق الأثر، وأن يكون تأثيره عالميا غير منحصر فى النطاق الإقليمى، مع استبعاد الأحياء منهم.

لكن أحمقنا الأرعن يتجاهل هذا كله وأضعاف هذا كله، ويحاول أن يشغلنا ويضيع وقتنا فى ذلك الغثاء الذى يطفح به قلبه الأسود تقربا إلى الأوربيين سعيدا بالفتات الذى يتساقط منهم أثناء أكلهم على المائدة بينما هو قابعٌ يُبَصْبِص بذَنَبه عند أقدامهم يلتقط سُقَاطة أفواههم كأنها كنز لا يقدَّر بثمن- إبراهيم عوض).